شارون كريتش

الرحلة

ترجمة سارة فاروق

الرحالة

تأليف
شارون كريتش

ترجمة
سارة فاروق

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

الرحالة

شارون كريتش

The Wanderer

Sharon Creech

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٦ ٣٠٨٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للكاتبة شارون كريتش، عناية رايترز هاوس، إل إل سي.

المحتويات

تجهيزات الرحلة ١٥
١- البحر ١٧
٢- ثلاثة وجوه ١٩
٣- الوقت يمر ببطء ٢٣
٤- الطفل الكبير ٢٧

رحلة تجريبية ٣٣
٥- ركوب البحر ٣٥
٦- كسالى ومجانين ٣٩
٧- غزالتان شاردتان ٤١
٨- اليتيمة والأبله ٤٥
٩- فصل الرءوس ٤٩
١٠- أهوي ٥٣
١١- الرمي ٥٥
١٢- تُرَّهات فارغة ٥٩
١٣- رحلة تجريبية ٦١
١٤- بومبي والسيارة ٦٥

الجزيرة ٦٩
١٥- جراند مانان ٧١
١٦- عالقون ٧٥

١٧- العادات	٧٧
١٨- بومبي والقطار	٨٣
١٩- وود آيلاند	٨٧
٢٠- الطفل الصغير	٩٣
٢١- المعمودية	٩٧
٢٢- بومبي والقس	١٠١
الإبحار	١٠٥
٢٣- الانطلاق	١٠٧
٢٤- برتقال وبيتزا	١١١
٢٥- الفصل من العمل	١١٣
٢٦- الشفرة	١١٥
٢٧- التأمين	١١٧
٢٨- تشارلي – أوسكار – دلتا – يانكي	١٢١
٢٩- إشارات ضوئية	١٢٥
٣٠- العُقَد	١٣١
٣١- روزالي	١٣٣
٣٢- بومبي وحفرة السباحة	١٣٩
٣٣- الحياة	١٤٣
٣٤- كوابيس الطفل الصغير	١٤٧
٣٥- ذا بلو بوبر	١٤٩
الرياح والأمواج	١٥٥
٣٦- ارتجاج	١٥٧
٣٧- الرياح	١٥٩
٣٨- عواء الرياح	١٦١
٣٩- تمايُل	١٦٣
٤٠- لا وقت	١٦٥
٤١- ركوب الأمواج	١٦٧

٤٢- المعركة ١٧١
٤٣- مُنهَكون ١٧٣
٤٤- الابن ١٧٥
٤٥- وحيدون ١٧٧
٤٦- بومبي في المحيط ١٧٩
٤٧- عاصفةٌ شدَّتها عشر درجات ١٨١
٤٨- الليل ١٨٣
٤٩- الدوران ١٨٥
٥٠- الموجة ١٨٩
٥١- مترنِّحون ١٩٣
٥٢- مضطربون ١٩٥
٥٣- بومبي ووالده ١٩٧
٥٤- السيد مُصلح ١٩٩
٥٥- بللٌ في كل مكان ٢٠١
٥٦- ذو نفع ٢٠٣
٥٧- التفكير ٢٠٥
٥٨- الطفل الصغير: دفع وجذب ٢٠٧
٥٩- أحلام جديدة ٢٠٩
٦٠- تساؤلات ٢١٣

اليابسة ٢١٥
٦١- أهوي أهوي ٢١٧
٦٢- اليابسة ٢٢١
٦٣- ثرثرة بلا حساب ٢٢٣
٦٤- جسدٌ جديد ٢٢٧
٦٥- صراعٌ داخلي ٢٢٩
٦٦- الضيف ٢٣١
٦٧- مكالمات هاتفية ٢٣٣
٦٨- ويلز ٢٣٥

٦٩- الفتاة الصغيرة ٢٣٧
٧٠- القلعة ٢٤١
٧١- الكوخ ٢٤٣
٧٢- بومبي ٢٤٥
٧٣- القصة ٢٤٩
٧٤- التفاح ٢٥٣
٧٥- أوه، روزالي! ٢٥٧
٧٦- الهدايا ٢٦١
٧٧- ذكريات ٢٦٥
٧٨- الوطن ٢٦٩

دليل القارئ ٢٧١
أسئلة للمناقشة ٢٧٣
أسئلة إلى شارون كريتش ٢٧٥

عندما أبحَرْنا الليلةَ الماضية في ضوء النجوم في رحلةٍ تجريبية عبر ساحل كونتيكت، شعرتُ بقلبي يقفز إلى السماء من فرطِ السعادة. كانت السماء بأكملها تتَّشح بزُرقةٍ مخملية ضاربة إلى السواد، وقد ترصَّعَت بلآلئ النجوم، وتتمازج مع المحيط الأسود اللامع. رائحة البحر، وملمس الرياح على وجهي وذراعيَّ، ورفرفة الأشرعة؛ يا إلهي، لقد كان عالمًا من السحر!

نحن حقًّا في الطريق!

إلى ابنتي كارين، التي أبحرَت عبر المحيط وألهمَتني هذه القصة.
من الأم التي كان القلق يُخالجها بينما كنتِ بعيدة.

هذه القصة حقيقية، وهي قصتي أنا. إنها تحكي عن كيف أن البحر أخذني وجرَفني هنا وهناك ...

مجهول
قصيدة «البحَّار»

تجهيزات الرحلة

الفصل الأول

البحر

صوفي

البحر، البحر، البحر، تلاحقَت أمواجه ودعاني. كان يقول «اقتربي مني، اقتربي مني».

واستجبتُ له، طفوتُ على صفحته، وتقاذفَتني أمواجه، وابتلَّت ثيابي برَذاذه، وسبَحتُ في أرجائه، وناداني البحر، «اخرجي، اخرجي»، فواصلتُ السباحة بعيدًا، ولكن دائمًا ما كانت تقذف بي الأمواج إلى الشاطئ.

وظل البحر يُنادي، «اخرجي، اخرجي»، ركبتُ شتى أنواع القوارب؛ قوارب التجديف والقوارب المطَّاطية وتلك البُخارية، وبعد أن تعلَّمتُ الإبحار أصبحتُ كمَن يطير فوق

صفحة الماء، لا أسمع سوى أصوات الرياح وخرير الماء وتغريد الطيور، جميعهم يُنادونني: «أبحِري، أبحِري».

وهذا ما كنتُ أريد، أن أواصل الإبحارَ بمفردي وسطَ الماء والرياح والطيور، ولكن البعض قال إني ما زلت صغيرة جدًّا، وغواية البحر شيءٌ خطير، وعندما سجا الليل، رأيتُ حلمًا مزعجًا. رأيت أمواجًا عاتيةً تزحف خلفي وترتفع فوقي كجبالٍ سوداءَ شاهقة، وأخذَت تقترب وتقترب، ولكني دائمًا ما كنتُ أستيقظ قبل أن يغمرني الماء، ودائمًا ما كنتُ أشعر كأنني أطفو فوق الماء عندما أستيقظ.

الفصل الثاني

ثلاثة وجوه

صوفي

لستُ دائمًا تلك الفتاةَ الحالمة التي تستمع إلى همس البحر وهو يُناديها. أبي يطلق عليَّ صوفي ذاتَ الوجوه الثلاثة؛ وجه حالم ورومانسي، وآخَر منطقي وواقعي، وثالث شديد المِراس ومندفع. إنه يقول إنني إما أن أحلِّق في سماء الأحلام، أو أعيش في دنيا الواقع، أو أسكنَ أرضًا تعجُّ بأناسٍ يتَّسمون بالعناد الشديد، وإذا حدث وجمعتُ بين الوجوه الثلاثة معًا، فسأكون مستعدَّةً لذلك تمامًا، وإن كنتُ أتساءل عن المكان الذي سأكون فيه إذا حدث ذلك. فإن لم أحلِّق في سماء الأحلام، ولم أعِش في دنيا الواقع، ولم أسكن أرضًا تعجُّ بأناسٍ يتَّسمون بالعناد، فأين سأكون؟

يقول أبي إنني أُشبهه إلى حدٍّ كبير في الجانب العقلاني من شخصيتي، وإنني قد ورثتُ وجهي الحالم من أمي إلى حدٍّ كبير، وهذا ليس من العدل في شيء. فأبي يحبُّ أن

يرى نفسه رجلًا منطقيًّا، في حين أنه هو من يتفحَّص صور البلاد الغريبة، ويقول أشياءَ على غِرار: «يجب أن نقوم برحلة سفاري!» و«يجب أن نُحلق في الهواء في مِنطاد الهواء الساخن.»

وعلى الرغم من أن أمي عاملةُ نسيج تنسج الأقمشةَ الحريرية وترتدي الملابس المزركَشة بالزهور، فإنها من تُزوِّدني بكتب لتعليم الإبحار، وتُشجعني على دراسة قواعد السلامة في المياه والتنبُّؤ بالطقس، وتقول لي أشياءَ على غِرار: «نعم يا صوفي، لقد علَّمتُك الإبحار، ولكن هذا لا يعني أنني أستسيغ فِكرةَ إبحارك بمفردك. أريدك أن تَبقَي بالمنزل. هنا. معي. في أمان.»

يقول أبي إنه لا يعرف ممَّن ورثتُ شخصيتي العنيدة. فهو يقول إن سِمة العناد لا تَسري في دماء العائلة.

أبلُغ من العمر ثلاثةَ عشر عامًا، وسوف أُبحر عبر المحيط. على الرغم من أني أرغب في السفر بمفردي! — «بمفردي! بمفردي! وأحلِّق فوق صفحات الماء» — فإنني لا أفعل ذلك. فقد راحت الشخصية العنيدة بداخلي تستجدي مكانًا على متن مركب شراعي، حجمُه خمس وأربعون قدمًا، مع فريقٍ غير متجانس يتكوَّن من ثلاثة أخوال وابنَي خال. الأخوال، ستيو ومو ودوك، هم إخوة أمي، التي قالت لهم: «إذا أصاب ابنتي صوفي أيُّ مكروه، فسوف أقوم بتعليقكم من أصابع أقدامكم.»

لا يُساور أمي القلقُ (على الرغم من وجوب عكس ذلك) بشأن تأثير ابن خالي براين عليَّ؛ إذ كان براين هادئًا ومجتهدًا وعاقلًا، لكن القلق يُساورها بشأن العادات السيئة التي قد أكتسبُها من ابن خالي الآخر، كودي. فكودي ذو شخصية صاخبة ومندفعة وجذَّابة بشكلٍ لا يجعل أمي تثقُ به. فهي تقول: «إنه جذَّاب أكثر مما ينبغي، بشكل يجعله يُشكل خطرًا.»

ليست أمي الشخصَ الوحيد الذي لا يروق له هذه الرحلة. فقد بذَل خالاي ستيو ومو قُصارى جهدِهما لِثَنْيي عن قراري بالسفر. «سوف تكون رحلةَ شباب، سنقوم بفعلِ أشياءَ خاصةٍ بالشباب، ولن يكون هذا مكانًا مناسبًا لفتاة»، و«أليس من الأفضل لك أن تبقَي في المنزل، يا صوفي؛ حتى يتسنَّى لكِ الاستحمام يوميًّا؟» و«إنها رحلة شاقة»، ومِثل هذا الهراء. ولكني كنتُ عاقدةً العزمَ على الذَّهاب، وأمسكَت شخصيتي العنيدة بزِمام الأمور، واستخدمتُ مصطلحات خاصة بالإبحار والطقس، وغمَرتُهم بسيلٍ من المعلومات

التي اكتسبتُها من كتب الإبحار الخاصة بي، إلى جانب معلومات أخرى توصَّلت إليها كإضافة.

قال الخال دوك، وهو من أُطلق عليه لقب الخال الطيب؛ لأنه كان الشخصَ الذي لم يرَ أيَّ خطر في قدومي معهم: «إن لديها دراية بالقوارب تفوق براين وكودي مجتمِعَين»، فاستسلَموا.

يوجد سببان آخران لعدم تقييد أمي لي في السرير ورفضِها أن أسافر. السبب الأول هو أن الخال دوك قد أعطاها قائمةً شاملة باحتياطات الأمن والسلامة على المركب، وتشمل نظامَ المِلاحة عبر الأقمار الصناعية ونظامَ تحديد المواقع العالمي. أما السبب الثاني، وهو سببٌ غير منطقي إلى حدٍّ كبير، ولكنه يُوفر العزاءَ لأمي بطريقةٍ ما، فهو أن بومبي يعيش على الضفَّة الأخرى من المحيط.

سوف ينتهي بنا المطافُ بين أحضان بومبي، وهي تتمنَّى أن تنضمَّ لنا من أجل هذه اللحظة فقط.

بومبي هو جدي، والد أمي، ووالد أخوالي دوك وستيو ومو، وقد عاش مع والديَّ عدةَ سنوات. إنه بمنزلة أبٍ ثانٍ لي، وأنا أحبُّه؛ لأنه يُشبهني كثيرًا. فلديه ثلاثةُ وجوه مثلي، ويعرف فيما أفكر دون أن أنبس ببنتِ شَفة. إنه رجلٌ لطيف عذب الكلام وراوٍ بارعٌ للحكايات.

عندما بلغ بومبي الثانية والسبعين قرَّر العودة إلى الوطن. كنتُ أعتقد أنه في وطنه بالفعل، ولكن ما كان يقصده بالوطن هو المكان الذي وُلِد فيه، وكان هذا المكان هو «تِلال إنجلترا الخضراء المتموِّجة».

لقد جانَبَ أبي الصوابُ عندما أنكر وجودَ جينات العناد في دماء عائلتنا. فعندما قرَّر بومبي العودةَ إلى إنجلترا، لم يكن أيُّ شيء لِيَثنيَه عن قراره. لقد اتخذ قراره وانتهى الأمر، ورحل.

إلى اللقاء يا بومبي.

الفصل الثالث

الوقت يمر ببطء

صوفي

يحدونا الأملُ في أن نُبحر في الأسبوع الأول من شهر يونيو، بعد انقضاء العام الدراسي مباشرةً. تلك الأسابيع الأخيرة من العام الدراسي تمرُّ ببطءٍ شديد، وتمضي الساعاتُ ثِقالًا. ولكني أنطلق بخيالي بكل قوةٍ نحو ذلك اليوم الأخير من العام الدراسي، ويدور في خَلَدي كلُّ تفاصيله الصغيرة. أخبرتُ والدَيَّ بأنني سأعود إلى المنزل في اليوم الأخير من الدراسة، وأقوم بحَزم أمتعتي، وأذهب إلى محطة الحافلات حيث سأقابل أخوالي وأبناءَ أخوالي في ولاية كونتيكت، ثم ننطلق جميعًا عبر البحر.

قال أبي: «ليس بهذه السرعة يا صوفي. عندما يحين الوقت، سوف أقوم أنا وأمُّك بتوصيلك إلى هناك. لن ندَعَك هكذا تستقلِّين حافلةً بمفردك.»

وا حسرتاه. في البلدة الصغيرة للغاية التي نعيش فيها، يُقبل الجميع على خوض المغامرات إلا أنا. لقد كنا فيما مضى نعيش على ساحلِ ولاية فرجينيا بين أحضان المحيط، لكن في العام الماضي توصَّل والدايَ إلى مخطَّطهما العظيم، الذي لا يروقني، بالانتقال إلى الريف؛ بسبب حنين أمي إلى جبال كنتاكي التي ترعرعَت بينها. لذا انتقلنا إلى هذه البلدة النائمة، حيث بقعةُ المياه الوحيدة بها تتمثَّل في نهر أوهايو، وهو نهرٌ يُضاهي البلدةَ في نومه. الناس هنا بالتأكيد يُحبُّون ذلك النهر، لكني لا أعرف السبب وراء هذا الحب. إنه نهر يخلو من الأمواج وتيَّارات المدِّ والجَزر. ولا وجودَ فيه لسرطانات أو قناديل البحر. بل إن عين الرائي لا تستطيع رؤية جزءٍ كبير منه مرة واحدة، فقط جزء بسيط منه يمتدُّ حتى المنعطَف النهري التالي.

لكن بالنسبة إلى الأطفال في صفِّي، فهذا النهر هو بمنزلة الفردوس، وكان لهم فيه وعلى ضفافه مغامرات. فكانوا يُمارسون فيه الصيد والسباحة وركوب الطوف. أريد القيام بأشياء من هذا القبيل، لكني أتوق أن تكون هذه المغامراتُ في البحر في المحيط الواسع الفسيح.

عندما أخبرتُ بعض أصدقائي أنني سأُبحر عبر المحيط، قال أحدهم: «لكن البقاء هنا أمرٌ جيد، حيث يتدفَّق النهر كل يوم.»

وقال آخَر: «لكنك جئتَ إلى هنا للتو. ونحن لا نعرف أيَّ شيء عنك. مثل المكان الذي عِشت فيه من قبل، و...»

لم أشَأ الخوض في كل هذا الجدل. أردتُ أن أبدأ من الصفر. وكان هذا من محاسن الانتقال هنا. لقد كانت بمنزلة بداية جديدة.

قال آخَر: «لماذا تريدين أن تكوني سجينةً على متن قارب على أي حال؟»

قلت: «سجينة؟». وأضفتُ: «سأكون حرة مثل طائر القيق الصغير الهائم في السماء هناك!»

ومن ثَم أخبرتهم عن الأمواج التي تناديني وعن البحر ذي الأمواج والسماء المفتوحة، وعندما انتهيتُ من حديثي راحوا يتثاءبون، وقالوا أشياءَ على غِرار: «أيًّا كان»، و«من الممكن أن تَلقي حتفَك هناك»، و«إذا لم تعودي، فهل يُمكنني أخذُ سُترتِكِ الحمراء تلك؟»

أدركتُ أنهم على الأرجح لن يتقبَّلوا مغامرتي أبدًا، وأنني سأُضطَر إلى السفر دون أن يتفهَّموا سبب رغبتي في السفر.

أعطتني والدتي دفتر اليوميات هذا الذي أكتب فيه. قالت: «فلتبدئي من الآن. اكتُبي يومياتك. كلَّ تفاصيل الرحلة. وعند عودتك، يمكننا قراءة كلِّ ما كتبته، وسيبدو الأمر تمامًا كما لو كنا معكِ هناك.»

لكن أساتذتي في المدرسة لا يريدون سماعَ أي شيء عن رحلتي.

«صوفي! اتركي كتابَ الإبحار هذا جانبًا وأخرِجي كتاب الرياضيات!»

«صوفي! العام الدراسي لم ينتهِ بعد! ركِّزي في دراستك! أخرجي واجبَ النحو!»

أمس، اتصل الخالُ دوك، وقال إننا لن نُبحر في المحيط بمجرد وصولنا إلى هناك. فهناك بعضُ المهام يجب القيام بها أولًا؛ «مهامُّ كثيرة!» على حد قوله.

لا أجد غَضاضةً في التفكير في هذه المهام؛ لأنني أحبُّ العبث والتسكع على القوارب، لكني أتوق شوقًا إلى الإبحار في المحيط، حتى إنني أكاد أشعر بلمسه وأتذوَّق طعمه وأشم رائحته.

الفصل الرابع

الطفل الكبير

صوفي

في نهاية المطاف، قام أبي بمفرده بتوصيلي إلى كونتيكت. قالت أمي إنها ليست متأكدةً من أنها ستتمالك نفسها. كانت تخشى ألا تستطيع السيطرة على مشاعرها في مثلِ هذا الموقف، وأن تُمسك بي ولا تدعَني أذهب. ظللتُ أخبرها أن الأمر لا يعدو مجردَ رحلةٍ صغيرة عبر المحيط لا أكثر. حتى إن رحلة العودة لن تكون بالقارب؛ لأن الخال دوك سيتركه مع صديق له في إنجلترا.

أعتقد أن أمي تتخيَّل أشياءَ مُروِّعة تحدث في ذلك المحيط، لكنها لن تُفصح عن ذلك جهرًا. ولكن عقلي يأبى أن يتخيَّل أشياء مروِّعة.

قال أبي: «أحيانًا ما يكون ثَمة أشياء يتحتَّم على المرء القيام بها فحسب دون تساؤل. وأظن أن هذه الرحلة ربما تكون واحدةً من تلك الأشياء بالنسبة إلى صوفي.» اندهشتُ لسماع ذلك. لقد شعرت بالفعل أن هذه الرحلةَ شيءٌ «عليَّ» القيام به، لكني عجزت عن الإفصاح عن السبب، وانتابني شعور بالدهشة والامتنان لأبي لأنه تفهَّم ذلك دون أن أُضطرَّ إلى توضيحه.

قالت أمي: «حسنًا، حسنًا، حسنًا! اذهبي!». وأردفَت: «وأتمنى أن تعودي سالمة!»

مكثتُ أنا وأخوالي وابنا خالي أسبوعَين معًا في كوخ خالي دوك الصغير. بدأتُ أدرك أننا لن نحتمل المكوث معًا كلَّ هذه المدة على الأرض، فضلًا عن الرحلة البحرية. يُخيَّل إليَّ أن كلًّا منا سيقتل الآخرَ قبل انطلاق الرحلة.

كان القارب يرسو على اليابسة، وعليَّ أن أعترف أن المشهد للوهلة الأولى كان مُزريًا. فلم يكن يبدو صالحًا للإبحار بأيِّ حال. غير أن اسمه كان رائعًا: «ذا وندرر» (بمعنى الرحَّالة). أتخيَّل نفسي على متن هذا القارب الشراعي، أجوب وأجوب عبر البحر.

القارب مملوك للخال دوك ويصفُه بأنه «طفله». يبدو لي القاربُ ضخمًا عملاقًا، أكبر بكثير من أي قارب آخَر أبحرتُ على متنه. يبلغ طوله خمسًا وأربعين قدمًا (يا له من «طفل» عملاق)، لونه مزيجٌ من الأزرق الداكن والأبيض، وله صاريتان متساويتا الحجم، وعارضاتٌ أنيقة تلتفُّ حول الأشرعة.

يوجد في الطابق السفلي مكانٌ للنوم يتَّسع لستة أفراد (أربعة في الجزء الأمامي واثنين في الجزء الخلفي)، ومطبخ به صندوق تبريد، وحوض، ومَوقد، وطاولة (يُستخدم اثنان من الأسرَّة مقاعدَ طويلةً لها)، وحمام، وطاولة للخرائط ومُعدَّات مِلاحة، وحجراتُ تخزين صغيرة وخزانات.

اصطحبَنا الخال دوك الذي يعمل نجَّارًا في جولةٍ عبر أرجاء القارب «وندرر» في اليوم الأول، وأخذ يشير إلى الأشياء التي تحتاج إلى إصلاح. قال: «يحتاج طفلي إلى بعض العناية. الدفة تحتاجُ إلى إصلاح، نعم، والعارضة الرئيسية أيضًا، نعم»، و«جوف القارب بأكمله يحتاج لبنائه من جديد، نعم»، و«الكهرباء تحتاج إلى إعادة توصيل وأسلاك جديدة، نعم»، و«القارب بأكمله يحتاج إلى أعمال تجديد، نعم.»

نعم، نعم، نعم.

عكَف ابنُ خالي براين على إعداد قائمة بكل هذه الأشياء على لوح الكتابة الخاص به. وقال بعد أن تجوَّلنا في أرجاء القارب مرارًا: «حسنًا، إذَن! ها هي القائمة. أظن أن علينا أيضًا إعدادَ قائمة بالمُعدَّات التي سنحتاج إليها ...»

قاطعَه والده، الخال ستيو. وقال: «هذا هو ولدي، منظَّم بطبعه!»

اسم الخال ستيو الحقيقي هو ستيوارت، ولكن الجميع يدعوه ستيو، الذي يعني بالإنجليزية القلق؛ نظرًا إلى قلقه الدائم إزاء أيِّ أمر هيِّن لا يُذكر. إنه طويل القامة، نحيل الجسد، ذو شعرٍ أسود. وابنه براين يبدو نسخةً مصغَّرة منه. وكلاهما يُضاهي الدُّمى الخيطية في مِشيته الخرقاء غير المتَّزِنة، وكلاهما يُقدِّر قيمة النظام كثيرًا.

بينما كان براين لا يزال يكتب القائمة، بدأ ابن خالي الآخَر كودي يعبث بالدفة. قال الخال ستيو: «ليس بعد!» وأضاف: «لسنا منظَّمين بعد!»

قال براين: «سوف نُعدُّ جميع القوائم ثم نقسم المهام.»

قال الخال ستيو متفاخِرًا: «هذا هو ولدي، شابٌّ مسئول بحق.»

نعم.

الطقس حارٌّ، ودرجة الحرارة في معظم الأيام تصل إلى ٣٥ درجةً مئوية، ولكلٍّ منَّا رأيُه فيما يتعلَّق بكيفية إصلاح الأشياء التي تحتاج إلى إصلاح. يقضي الخال مو وقتًا ليس بالقليل مستلقيًا على كرسي على سطح القارب يُراقب بقيتنا ويصدح بالأوامر: «ليس من هذا الجانب، ابدأ من الجانب الآخر!» و«أيها الأبله! هل هذه الطريقة التي نستخدم بها الفرشاة؟» وغالبًا ما يكون هذا الكلام موجَّهًا إلى ابنه كودي الذي يُعاني من الصمَم الانتقائي. فبإمكان كودي أن يسمَعنا جميعًا جيدًا، إلا أنه يبدو أنه لا يستطيع أن يسمع أباه أبدًا.

يتمتَّع الخال مو بجسدٍ ممتلئ قليلًا، وهو يهوى التجوُّل بدون قميصه ليحصلَ على لونٍ برونزي. أما ابنه كودي (الذي تراه أمِّي جذابًا بطريقة تُشكل خطرًا)، فله جسدٌ رياضي مفتول العضلات، ودائمًا ما يُدندن أو يُغنِّي، وعلى شَفتَيه ابتسامةٌ عريضة تُظهر أسنانه البيضاء. تُلاحقه أعينُ الفتيات اللاتي يَمرُرن على ساحةِ بناء المراكب وهنَّ في طريقهن إلى الشاطئ العام، حيث يتوقَّفن وينظرن إليه على أملِ لَفْت انتباهه.

والخال دوك شخصٌ هادئ الطباع. لا يُقلقه أو يُكدِّر صفْوَه شيءٌ أبدًا على ما يبدو، لا المهامُّ التي علينا إتمامها، ولا الحوادث التي تقع؛ مثل سقوط عُلبة الطِّلاء من يد براين،

أو الثَّقب الذي أحدثه كودي بسطح القارب بالإزميل، أو تَسبُّب الخال ستيو في تشابُك الحبال. يكتفي الخال دوك بهزِّ كتفَيه ويقول: «سنقوم بإصلاحه، نعم.»

في اليوم الثاني، بعد أن انتهى الخال ستيو وبراين من توزيع معظم المهامِّ على الجميع إلا أنا، سألتُهم: «وماذا عني؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟»

قال الخال ستيو: «أنتِ؟ أوه، نعم. أعتقد أنَّ بإمكانك القيامَ بأعمال التنظيف.»

«أريد أن أصلح شيئًا.»

ضحك الخال ستيو ضحكةً مصطنَعة: «ها، ها، ها. وماذا تظنين أن بإمكانك إصلاحَه يا صوفي؟ ها، ها، ها.»

«أودُّ أن أصلح جوف القارب ...»

فقال: «ماذا؟!» وراح يبتسم للجميع وكأنهم يتشاركون دعابةً سرِّية فيما بينهم. «وكيف يمكنك القيامُ بذلك بالضبط؟»

ومن ثَم أخبرتُه كيف يمكنني إعادة تصميمه ونوع المُعدات التي قد أحتاج إليها، وكلما أسهبتُ في الكلام، تلاشت ابتسامةُ الخال ستيو، واتَّسعَت الابتسامة على وجه الخال دوك.

قال الخال دوك: «أترى؟ إن لديها درايةً بالقوارب. أوكِلْ لها مهمةَ إصلاح جوف القارب.»

قال براين ولوحُ الكتابة في يده، محركًا ذراعه التي تُشبه ذراع الدمية، «ومَن سيقوم بالتنظيف، إذن؟ ليس لديَّ أحدٌ يقوم بالتنظيف ...»

قال الخال دوك: «سنقوم جميعًا بالتنظيف.»

قال الخال مو: «لن أشارك معكم. أنا لا أُجيد التنظيف. الجميع يعرف ذلك.»

وهكذا قضينا جميعًا (باستثناء الخال مو الذي كان مضطجعًا على الكرسي ليكتسب سُمرة) هذه الأيامَ الحارَّة، يتصبَّب العرَقُ من جباهنا، في إصلاح «وندرر» على رصيف الميناء. أصلحنا الدفَّة والعارضة، وأعَدْنا تصميم جوف القارب، وأعدنا توصيلَ أسلاك الأجهزة الكهربائية، وقمنا بتنظيف القارب وترتيبه.

خرَج القارب «وندرر» من مهدِه صباح اليوم. كنت أنا ودوك وبراين على متن القارب بينما كانت الرافعةُ ترفع القاربَ في شبَكةٍ من الحبال وتُنزلها داخل المياه. كان شعورًا غريبًا للغاية: القارب يهبط إلى أسفل، وأسفل، وأسفل. وظلَّ يهبط حتى ظننتُ أنه لن

يتوقَّف عن الهبوط، لكنه بعد ذلك اهتزَّ وتمايل، وأخذ يرتفع ويهبط فوق الأمواج مثل قطعة من الفلين.

ها هو يطفو على صفحة الماء!

قال دوك: «هل أنت بخير يا براين؟». ثم أضاف: «تبدو غيرَ مستقرٍّ بعض الشيء.»

قال براين: «إن مَعِدتي مضطرِبة قليلًا. هذا القارب يبدو صغيرًا للغاية الآن بعد أن صار في المياه. أهذا ما سيُبقينا على قيد الحياة؟»

قال الخال دوك: «صغير؟». وأردف «إن «وندرر» طفلٌ كبير.»

قلت: «إنه جزيرتنا الصغيرة ووطنُنا.»

أرسلتُ بطاقةً بريدية إلى والديَّ. أخبرتُهما بأنني قريبًا سأجوب البحار على متن «ذا وندرر».

رحلة تجريبية

الفصل الخامس

ركوب البحر

صوفي

لقد بدأت الرحلة!

عندما أبحرنا الليلةَ الماضية في ضوء النجوم في رحلةٍ تجريبية عبر ساحل كونتيكت، شعرتُ بقلبي يقفز إلى السماء من فرطِ السعادة. كانت السماء بأكملها تتَّشح بزُرقةٍ مخملية ضاربة إلى السواد وقد ترصَّعَت بلآلئ النجوم، وتتمازج مع المحيط الأسود اللامع. رائحة البحر، وملمس الرياح على وجهي وذراعيَّ، ورفرفة الأشرعة؛ يا إلهي، لقد كان عالمًا من السحر!

نحن حقًّا في الطريق! البحر يُنادينا، «أبحِروا، أبحروا!» وتمايَل القارب الرقيق يُذكرني ببومبي — هل كان حقًّا بومبي؟ — وأنا جالسةٌ في حجره عندما كنتُ صغيرة وهو يُلقي على مَسامعي الحكايات بصوتٍ هامس.

في الجزء الأول من رحلتنا سنُبحر عبر لونج آيلاند ساوند وصولًا إلى بلوك آيلاند، ثم سنرسو وقتًا قليلًا على جزيرة مارثا فينيارد، ثم حول قناة كيب كود، وصولًا إلى الساحل الشمالي، ثم إلى مُقاطعة نوفا سكوشا، وأخيرًا إلى الطريق الطويل المؤدِّي إلى أيرلندا ثم إنجلترا، موطن بومبي! يُقدر الخال دوك الوقتَ الذي سنستغرقه في هذه الرحلة بنحوِ ثلاثة إلى أربعة أسابيع، على حسَب المدة التي سيرسو فيها القارب على اليابسة.

يحتفظ كودي بدفتر يوميات هو الآخر، إلا أنه يُطلق عليه «المُكدِّرة». عندما سمعتُه يقول ذلك أولَ مرة، سألتُه: «أتقصد مُفكِّرة؟»

قال لي: «لا، مُكدِّرة. مفكرة مكدِّرة.» وقال إنه يحتفظ بهذه المفكرة المُكدِّرة؛ لأنه مضطرٌّ إلى ذلك لكونها مطلوبةً لمشروع في العطلة الصيفية. «كان أمامي إما المُكدِّرة أو قراءة خمسة كتب. فأيقنتُ أن المُكدِّرة ستكون أسهلَ بكثير من قراءة هذا الكم من الكلمات التي كتبها أشخاصٌ آخَرون.»

يحتفظ الخال دوك بسِجلِّ القبطان الرسمي، ويوجد في مقدمته خرائطُ منظَّمة تُظهر مسار رحلتنا. قال الخال ستيو وبراين إنهما سيكونان مشغولَين للغاية ولن يستطيعا «تسجيل الأحداث الرئيسة»، وعندما سألت الخال مو إذا كان سيصنع أيَّ سجلٍّ للرحلة، تثاءب. قال وهو ينقر على رأسه بإصبعه: «أوه، سوف أسجل كلَّ شيء هنا. وربما أرسم بعض الأشياء.»

«أتقصد الرسم؟ هل تُجيد الرسم؟»

قال: «لا تندهشي هكذا.»

لقد كنتُ مندهشةً بالفعل؛ لأنه لا يبدو أن لديه طاقةً لفعل أي شيء.

لدينا جميعًا مهامُّ يومية (من واقع قائمة براين) ونوبات حراسة، وقد اقترح الخال ستيو أن يُعلِّم كلٌّ منا الآخَرين شيئًا خلال الرحلة.

استفسر كودي: «شيئًا مثل ماذا؟».

«أي شيء؛ الملاحة باستخدام الآلات، أو بالاستعانة بالنجوم ...»

قال كودي: «صحيح. هذا سهلٌ بالنسبة إليك، ولكن ماذا لو لم يكن لدينا درايةٌ بأي شيء من هذا؟»

قال الخال ستيو بابتسامةٍ واهنة متكلَّفة: «لا بد أنك تعرف شيئًا تستطيع تعليمنا إياه.»

قال كودي: «ماذا عن رمي الأشياء في الهواء؟». وأردف: «يُمكنني تعليمكم جميعًا رمي عدة أشياء معًا في الهواء.»

قال براين: «رمي الأشياء؟».

قال والد كودي: «أبله.»

قلت: «أريد أن أتعلمَ الرمي. أنا واثقةٌ من أنها ليست بالسهولة التي تبدو عليها.»

تساءل براين: «وما علاقة الرمي بما نقول؟».

أجاب كودي: «حسنًا، إذا كنتَ ترى أنها ستكون صعبةً للغاية بالنسبة إليك ...»

«ومَن تحدث عن أيِّ صعوبة؟ أنا أجيد الرمي. غايةُ ما في الأمر أنَّ تعلُّم شيء كهذا على متنِ قاربٍ ضربٌ من الحماقة.»

لستُ أعرف بعدُ ماذا يمكنني أن أُعلِّمه للآخَرين، لكني سأفكر في شيء. لا بد أن نُقرر جميعًا بحلول الليل.

الجو بديعٌ اليوم — مُشمس ودافئ — والتيار مُواتٍ، والرياح تدفعنا بلطفٍ صوبَ منحدَرات بلوك آيلاند الضبابية. لقد زرتُ بلوك آيلاند من قبلُ مرةً واحدة فقط، لكني لا أتذكَّر مع مَن زُرتها. والداي وجدِّي؟ أتذكر أنني كنتُ أسير أعلى تلٍّ كبير به زهورٌ أرجوانية وصفراء يانعة، وشجيرات هزيلة تنمو حول الصخور. وأتذكَّر الشاحنة الصغيرة الزرقاء القديمة، بمقاعدها القابلة للطيِّ في الخلف، وهي تسير في طرقٍ ضيِّقة، بينما أحدِّق في المحيط وأدندن: «على جزيرةِ بلوك آيلاند نسير، في اللوري الأزرق الكبير ...»

اشترى لي جدِّي قبعة قبطان، كنتُ أرتديها كلَّ يوم. كنا نذهب لجمعِ المحار ليلًا، وكنتُ أستطلع الطائرات من عِلية الكوخ.

وفي كل صيف منذ ذلك الحين، كنتُ أتوق للعودة إلى بلوك آيلاند، لكننا لم نفعل ذلك قَط. لم يكن هناك وقت.

تَبادر إلى ذهني شيءٌ يمكنني تعليمه لرفقاء القارب من أفراد أُسرتي: القصص التي علَّمني إياها بومبي.

كان دوك وكودي قد اصطادا للتوِّ سمكتَين زرقاوين. رائع! لكن لم يَرُقني مشاهدةُ كودي وهو يقطعهما ويُخرج أحشاءهما. ولكننا سنُضطرُّ جميعًا إلى القيام بذلك. إنها إحدى القواعد. وسيَحين دوري في المرة القادمة، ولا أريد أن أفعل ذلك.

لكن منحدرات بلوك آيلاند تلوح في الأفق، وشرائح السمك الأزرق تُحضر من أجل الغداء، وقد داهَمني الجوع ...

الفصل السادس

كسالى ومجانين

كودي

يوشك أبي أن يقودَني إلى الجنون. إنه شخصٌ كسول لا تراه إلا مستلقيًا، ولا يُشارك في أي عمل، مكتفيًا بإلقاء أوامره يَمنةً ويَسرة. أعتبر صوفي محظوظة؛ لأنها ليس لديها أبوان يُكدِّران حياتها.

قال العم ستيو إن السبب الوحيد وراء وجود صوفي في هذه الرحلة هو إشفاقُ العم دوك عليها؛ لكونها يتيمة. هذه هي الكلمة التي يستخدمها العم ستيو لوصف صوفي: اليتيمة. تنتابني رغبة في أن ألكمَه عندما يصفُها بهذه الكلمة.

تتحدث صوفي عن عمتي وزوج عمتي وكأنهما والداها الحقيقيَّان، على الرغم من أنهما والداها بالتبنِّي فقط، ولم تعِشْ معهما سِوى ثلاثِ سنوات فحسب. يقول براين إن صوفي تعيش في عالم من الأحلام، لكني أرى أن ما تفعله هو عين الصواب. على الأقل لا تُمضي وقتها في الشكوى والبكاء على حالها كونها يتيمة.

أتمنى أحيانًا لو كنتُ يتيمًا؛ لأن أبي رجل حادُّ الطبع، وأمي تُرهبه، ودائمًا ما تتوارى في أي زاوية خوفًا، على نحوٍ يثير الشفقة.

لكن أعتقد أنه لا يُفترض أن أكتب أشياءَ من هذا القبيل في هذه المُكدِّرة. أعتقد أنه يُفترض أن أكتب عن الرحلة وما شابهَ ذلك.

لقد بدأناها. أقصد الرحلة. إنها رائعة. اعتقدتُ في البداية أننا لن نَبْرح اليابسة مطلقًا، في ظل قوائم المهامِّ الجديدة التي يُعدُّها براين يوميًّا. لا شك أن هذا الصبي يهوى إعدادَ القوائم. وكذلك الحال بالنسبة إلى أبيه. إنه فريقٌ محبٌّ للقوائم بحق.

لا توجد أيُّ أحداث بارزة سوى أن القارب يُبحر بالفعل، ولا يتسرَّب إليه كثير من ماء البحر ولا ينقلب بنا. وهذا حتى الآن.

الفصل السابع

غزالتان شاردتان

صوفي

بعد رسوٍّ «ذا وندرر» في الليلة الماضية في ميناء بلوك آيلاند، امتطَينا أنا وكودي وبراين الزورقَ إلى اليابسة وسِرْنا على الشاطئ. اعتاد براين التدقيق في كل شيء؛ إذ رفع بنطاله الجينز بعناية حتى لا يبتلَّ، وكان يتفادى الأمواج، وينظر في ساعته باستمرار.

قال براين: «الساعة الآن السابعة وعشر دقائق»، ثم بعد عشر دقائق «الساعة السابعة وعشرون دقيقة»، وبعد عشر دقائق أخرى «الساعة السابعة والنصف.»

قال كودي: «أيمكن أن تتوقَّف عن هذا؟». وأردف: «ما أهميةُ معرفة الوقت الآن؟»

تفادى براين صخرةً محشورة وسط الرمال، وقفز إلى الخلف من رذاذ المحيط المتناثر حولها من اصطدام المياه بها. ثم قال: «لا بد أن نعود قبل حلول الظلام.»

نظر كودي إلى الشمس التي تميل نحو المغيب. «أتعلم؟ أنا واثقٌ أن بإمكاننا أن نعرف أن الظلام قد بدأ يحلُّ، دون الاستعانة بساعةِ يد!»

قهقه براين.

أتَت فتاتان من الجهة المقابلة. قال كودي لبراين: «انظر، غزالتان شاردتان!».

«أين؟ ماذا؟»

قال كودي وهو يُحملق في الفتاتين: «الفتاتان. الفتاتان.»

توقَّفَت إحدى الفتاتين الجميلتين أمام كودي، وابتسمَت له ابتسامةً عذبة. قالت: «مرحبًا.»

أجاب كودي: «مرحبًا.»

سألت الفتاة: «هل تعرف كم الساعة الآن؟». تضرَّج وجهُ صديقتها خجلًا ونفَضَت شيئًا عن ذراعها.

قهقه براين، وهزَّ ذراعه التي تُشبه ذراع الدمية، مُدلِّيًا مِعصمَه الذي يرتدي فيه الساعة أمام كودي. ثم قال: «أحيانًا يكون للساعة منفعة.»

عُدنا أدراجنا إلى القارب (قبل حلول الظلام، وهو ما أثار ارتياحًا كبيرًا في نفس براين)، وقضينا الليلةَ على متنه في الميناء بدلًا من الإبحار به؛ لأن الخال دوك قال إننا بحاجة إلى إجراء مزيد من الإصلاحات البسيطة.

الشمس أكثر سطوعًا اليوم!

صعدتُ إلى الصاري على السقَّالة المتحركة للمرة الأولى لتغيير مصباح الإضاءة الخاص بالمرساة. يمكنك من هذا الموضع الرؤيةُ إلى عدةِ كيلومترات على مَرمى البصر، وصولًا إلى أطرافِ بلوك آيلاند وعبر المحيط: مساحةٌ شاسعة من السماء والماء. نظرًا إلى عدم وجودِ دعامات على هذه الصواري، فإنك تشعر بحركةِ القارب والمياه بالأعلى. تشعر بالهواء يُداعب وجهك وشعرك، تشمُّ رائحة البحر، تستشعر نسيم الحرية.

فيما بعد، بينما كان الخال دوك يعبث بوصلات الكهرباء محاولًا إصلاحَها، عدتُ أنا وكودي إلى الساحل، وسِرْنا عبر الشاطئ إلى الفنار، ثم عُدنا إلى محميَّة الطيور. رأى كودي فرخًا صغيرًا أزغبَ وقال: «مرحبًا، أيها الفرخ الصغير الأزغب. مرحبًا، أيَّتها الكرة الهشَّة»، وهو ما أدهشني؛ لأن كودي عادةً ما يكون مشغولًا باستعراض عضلاته، ولا تتوقَّع منه أن يكون بهذه الرقة مع الطيور الصغيرة. وعندما هممنا بالانصراف، صاح قائلًا: «وداعًا أيتها الطيور الصغيرة.»

بالتأكيد هو شابٌّ مرح. إنه يتحدث عن الفتيات، وبعد دقيقة تجده يُثرثر مع الطيور.

لقد بدأنا رحلتنا للتو، وكل شيء يسير بسلاسة وهدوء حسبما يبدو. أرتدي ما هو جافٌّ وقريب من يدي. أخلد للنوم قبل أن أسقط من شدة التعب، وأستيقظ على صوت أناس

يتحدَّثون في حُجرة القيادة. لكنني مستعدَّة للإبحار في المحيط الواسع. أريد أن أتحرك، أن أُبحر، حيث لا فرق بين النهار والليل، حيث يمضي الوقتُ متَّصلًا بلا فواصل. أريد أن أصطاد سمكة، وأن آكلَ مباشرةً ما أصطاده من المحيط. أتمنى أن أركب البحار، أن أكون رحالة تبحر إلى حيث يعيش بومبي!

الفصل الثامن

اليتيمة والأبله

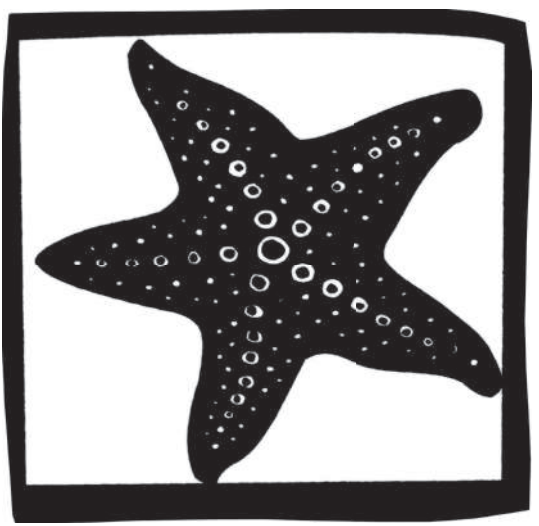

كودي

أردتُ الهروب من أبي ليلةَ أمس، فذهبتُ مع صوفي وبراين إلى الجزيرة. يُثير براين أعصابي. في البداية، أغرَقَنا بسيلٍ من الأسئلة التي لا تنتهي، مثل عمَّا إذا كان يرتدي الملابسَ المناسبة، وإن كان عليه أن يأخذ سترة، ثم بدأ بعدها مباشرةً في تعليمنا كيفيةَ التجذيف، وربط الزورق، وكل هذا الهُراء. أتوقع أن يُعلمنا بعد ذلك كيف نتنفَّس.

يُثير براين استفزاز صوفي أيضًا. فقد قالت شيئًا عن كيف أن أمها لا تُحب سماعي أطلق على الفتيات وصْفَ «الغزلان الشاردة»، فأتحفنا براين وقال إن أمها ليست هنا

معنا، لسوء الحظ. وزاد الطين بلةً حين أردفَ قائلًا: «ثم عن أيِّ أمٍّ تتحدثين، على أي حال؟»

لم تُعِرْ صوفي قوله أيَّ اهتمام، ولم تستشعر أيَّ حرج. فقد التقطتْ قطعةً من الصخر وقذفَتها في الماء. قالت: «انظر إلى ذلك!». وأردفَت: «أيمكنُك رميُها لهذه المسافة؟» لم أستطِع تحديدَ ما إذا كانت قد سمعَت ما قاله براين أم إنها آثرَت تجاهله.

أخبرته بأن يُغلق فمه. فقال: «لستُ مضطرًّا إلى ذلك إذا كنتُ أرغب فيه.» يا له من أبله.

تسلَّلتُ أنا وصوفي وعُدنا إلى الجزيرة اليوم بدون براين. يسهل عليَّ التعاملُ مع صوفي أكثرَ من أي شخص آخر على القارب. فهي دائمًا ما تأخذ أنفاسًا عميقة، وتبتسم للنسيم والشمس والأمواج. ولا تُثير استفزازَ أحد لأيِّ سبب.

غير أنني أثَرتُ حفيظتها. فقد وجدنا فرخًا صغيرًا يسير مُترنحًا بمفرده وسط الحشائش، فقلت «يا إلهي، إنه يتيم!»

قالت صوفي: «إنه ليس يتيمًا!» وأخذَته بين يديها إلى عُش كنا قد رأيناه.

أتمنى لو أني لم أتحدث عن اليُتم.

صعدت صوفي على السقالة اليوم أيضًا. كان العم دوك واقفًا يُحدق إلى المصباح الموجود أعلى الصاري، ويتساءل كيف سنقوم بتغييره.

سألته صوفي: «تريدني أن أصعد لتغييره؟».

أجاب: «ربما كان على براين القيام بهذه المهمة. براين؟ اصعد على هذه السقالة، وقم بتغيير ذلك المصباح، مفهوم؟»

قال براين: «مستحيل!». كان يبدو متعَبًا وشاحبًا. وكان الصاري أشبهَ ببرجٍ شاهق. «كودي! ماذا عنك؟»

فأجبت: «لا أعتقد أنه بإمكاني فعل ذلك.» حسنًا، لم أكن متحمسًا لذلك. فأنا لا أحبُّ المرتفَعات.

قالت صوفي: «اسمعوا! أنا الأخفُّ وزنًا والأصغر حجمًا. ومن المنطقي أن أقوم أنا بهذه المهمة. أحب أن أفعل ذلك!»

أجاب العم دوك: «أخشى عليكِ فقط من أن يلحق بك أيُّ ضرر، هذا كل ما في الأمر.» أعتقد أنه يعني أنه لا يجد غضاضةً في أن يلحق بي أو ببراين ضرر. عظيم.

قالت صوفي: «هل ستستمرُّ في معاملتي بهذه الطريقة طَوال الرحلة؟ ألن تسمح لي بفعل أي شيء؟»

ومن ثَم سمح العم دوك على مضضٍ لصوفي بالصعود على الصاري، وكان يجب أن تراها! كانت تضحك وتصيح بصخب! وفي لمح البصر صعدَت على السقالة، وقامت بتغيير ذلك المصباح، وقالت: «هلَّا تركتَني أتأرجح هنا قليلًا؟ إن المنظر بديع هنا!»

قال العم دوك: «أتمنى ألا يُصيبها أيُّ مكروه بالأعلى.»

في الليلة الماضية، كان علينا جميعًا الإعلانُ عن الشيء الذي سنقوم بتعليمه للآخَرين خلال الرحلة. وهذه هي إحدى أفكار العم ستيو العظيمة. سيُعلمنا العم دوك كيفيةَ قراءة الخرائط، وسيُعلمنا براين مناورات الإبحار الأساسية (أيًّا كانت ماهية هذا)، أما العم ستيو فسيُعلمنا كيفية استخدام ما يُطلقون عليه جهاز السَّدْس، بينما سيُعلمنا أبي شفرة الراديو، أو شيئًا من هذا القبيل، وأنا سوف أعلمهم رمي الأشياء. وقد أُثيرت حفيظةُ بعضِهم من قيامي بتعليمهم شيئًا «غبيًّا» مثل «الرمي». لكن لا يُهم. فأنا أرى الرمي شيئًا مُسلِّيًا.

تعجَّبتُ بعض الشيء حينما سمعتُ عن الشيء الذي ستُعلمه صوفي لنا. فقد قالت إنها ستُخبرنا بحكايات بومبي.

سألها براين: «وكيف عرَفتِ حكايات بومبي؟».

«لقد قصَّها عليَّ.»

فلم ينبس أحدٌ ببنتِ شَفة.

قال لي براين فيما بعد: «عمَّ تتحدث هذه الفتاة؟ إنها لم ترَ بومبي مطلقًا!»

قلت: «دَعْها وشأنها.»

الفصل التاسع

فصل الرءوس

صوفي

غادرنا بلوك آيلاند باكرًا لبدءِ رحلةٍ من المُتوقَّع أن تستغرق ستَّ عشرة ساعة. كان الجميع على متن القارب عندما انطلقنا إلى جزيرة مارثا فينيارد.

صاح كودي في الرياح صيحة البحارة: «أهوي! انطلق بنا!». يحبُّ كودي أن يَغيظ أباه عن طريق خلطِ مصطلحات الإبحار بأي مصطلح آخر يردُ على ذهنه، وغالبًا ما يُخطئ في مصطلحات الإبحار، أو يستخدمها في غير موضعها، أو يستخدمها جميعًا معًا. «اثنِ الدفَّة، اسحب، أقلِع!» يمكنك أن ترى الخال مو يجزُّ على أسنانه كلما قال كودي هذا. لا يرى براين والخال ستيو أيضًا أن كودي مضحك، لكن يبدو أن الخال دوك لا يُمانع في ذلك، وأنا أحب ذلك. فذلك يجعلني أقلَّ خجلًا من عدم الإتيان بكل شيء على النحو الصحيح تمامًا.

صاح كودي: «ارفع الصاري واخفض العارضة!».

قال براين: «توقَّف عن ذلك. لربما يتعيَّن عليك أحيانًا أن تأتيَ بالمصطلحات الصحيحة حين تتوقفُ أرواحنا على ذلك، وحينها إما لن تعرف ماذا تقول، وإما لن يستمع إليك أحد لأنك تتفوَّه بتُرَّهات طوال الوقت.»

قال كودي: «أوه، اهدأ يا براين. اثنِ أشرعتَك.»

كانت الرياح والتيَّار مُواتيَين طوال اليوم، وكذلك كانت الأسماك. فقد اصطدنا سبعَ سمكات زرقاوات، هربَت منهما اثنتان. وقد قُتلت (قتلت!) وفُصِلت رأس (فصلت رأس!) وأُخرجَت أحشاء (أُخرجت أحشاء!)، بينما كان الخال ستيو وبراين يُراقبانني. من الواضح أنهما كانا يتمنَّيان أن أتراجع أو أن أُحدِثَ فوضى وأُفسد كل شيء.

قال الخال ستيو موجهًا: «اضرِبيها بقوة أولًا. بين العيون.»

قال براين: «اضربيها بمقبض الرافعة.»

قال كودي: «اضربي الراقعة!».

قال براين: «الرافعة، يا أبله. اسمها الرافعة وليس الراقعة. وهي لا تضرب الرافعة، بل تضرب السمكة بالرافعة.»

قال كودي: «اهدأ يا رجل، اهدأ!».

ضربتُ السمكة البائسة التي لا حول لها ولا قوة بمقبض الرافعة.

قال براين: «الفكرة في قتلها بأسرعِ ما يُمكن.»

لقد أزعجَني حقًّا ضربُ تلك السمكة المسكينة. ظللتُ أقول في نفسي إنني كنت أتناول اللحوم والأسماك طوال حياتي ولم أتردَّد في ذلك مطلقًا.

سألت: «أتعتقدُ أنها قد ماتت؟».

أجاب براين: «لا. افصِلي رأسها.»

قال كودي ممازحًا: «اقتُليها! افصليها برأسك!»

قسمتُ السمكة إلى نصفين فاصلةً الرأس وأنا أفكر في نفسي: «حسنًا يا صوفي، حسنًا، لن تشعر بهذا»؛ وما إن بدأتُ العمل في الجزء الآخر من جسمها حتى بدأَت السمكة تتقلَّب وتتخبط.

قال الخال ستيو: «استمرِّي.»

وأضاف براين: «نعم، أسرِعي.»

أدركتُ أن الجزء الأصعب في هذه العملية ليس الضرب، ولا الدم، ولا الأحشاء، ولا شقَّ الحلق. الجزء الأصعب هو كسرُ العمود الفقري. فهذا الجزء يجعل قلبي يضطرب ويخفق ويقفز من صدري. عندما تطوي أصابعي العمودَ الفقري — ذلك الذي يُعد مسارًا للطاقة — وتُدير الرأسَ يَمنة أو يَسرة، أشعر بانطلاقٍ هائل لشيءٍ ما — ضغط،

توتُّر، طاقة، أو ربما مجرد قوة حياة خالصة — خلال الثانيتين أو الثواني الثلاث التي يستغرقها كسرُ العمود الفقري. أين تذهب تلك القوة؟

لقد قضينا وقتًا رائعًا اليوم، ووصلنا إلى فينيارد هافين في جزيرة مارثا فينيارد خلال ثماني ساعات؛ أي نصف الوقت المُتوقَّع.

صِحت عندما رأينا اليابسة قائلةً: «نحن رحَّالة!».

وصاح كودي: «اليابسة! فلنتوقَّف!».

كان السبب الأساسي لتوقُّفنا هنا هو زيارةَ العم جوي صديق الخال دوك، الذي قضى السنوات الخمسة الأخيرة يُعيد بناءَ قاربٍ خشبي قديم كان قد وجده في أحد المستنقعات. كان قاربُ جوي نظيفًا لا تشوبه شائبة، وكان مصنوعًا من الداخل والخارج من خشب الساج، وله تصميمٌ أنيق.

ظللتُ أُمرِّر يديَّ على هذا الخشب الجميل حتى قال الخال دوك: «حسنًا، إنه جميل، لكن يظل ذا وندرر قاربي الأثير.» أعتقد أنه شعَر بشيء من الغيرة بسبب الجلَبة التي كنتُ أثيرها حول قارب جوي.

قلت: «أعتقد أن ذا وندرر جميلٌ أيضًا يا دوك. وإذا اضطُررت إلى اختيارِ واحد منهما لأُبحر به عبر المحيط، فسيكون ذا وندرر هو اختياري.»

قال: «نعم. وأنا أيضًا.»

دعانا جوي إلى كوخه لتناوُل العشاء. شعور غريب أن تكون في منزل. هناك كثير من المساحات المهدَرة! يمكنك وضعُ كثير من الأشياء هناك! على القارب يوجد مكان لكل شيء، وكل شيء متراصٌّ وصغير الحجم، ولا يوجد شيءٌ لا حاجة إليه. ليس هناك مكان للنُّفايات.

بعد العشاء، كنتُ أنا وكودي جالسَين على المرسى عندما جاء براين وقال: «حدث شيءٌ ما.»

سأله كودي: «ماذا تقصد؟».

ضرب براين أرضية المَرسى بقدمه. «كان دوك وجوي في المطبخ يتحدَّثان، ودخلتُ لأشرب بعض الماء، فسكتا فجأة. هل تعتقدان أنهما كانا يتحدثان عني؟»

قال كودي: «لا تغتر بنفسك.»

«حسنًا، ما الذي كانا يتحدَّثان عنه إذن؟ ما السرُّ الخطير الذي بينهما؟»

أجاب كودي: «وكيف لي أن أعرف؟».

قلت: «أحيانًا يحتاج الناس إلى أن يكون لهم أسرارُهم الخاصة.»

قال براين: «يجب أن تعرف.»

كان براين مثل نقار الخشب، يظلُّ ينقر وينقب في الأشياء بلا كلَل. كنتُ سعيدةً بالعودة إلى القارب حاملةً حقيبةَ نومي على ظهره، والجلوس مع مفكرتي.

كان الخال ستيو يأخذ حقيبةَ نومه للخارج على المرسى.

سأله كودي: «ما الخَطب؟ أتشعر بدُوار بحر؟»

صاح الخال ستيو: «أنا لا أصاب بدُوار البحر أبدًا. أنا فقط أحبُّ النوم على المرسى.»

قال كودي: «نعم، هذا صحيح.»

سأتوقَّف عن الكتابة بعد قليل، وبعد ذلك سأخلد إلى النوم على ضوءِ نجوم السماء وصوتِ الحبال وهي ترتطم بالصواري في الميناء. أحبُّ الطريقة التي يُهدهِدُك بها القاربُ حتى تستغرق في النوم مثل طفل رضيع.

الفصل العاشر

أهوي

كودي

أهوي! لقد استطعتُ الإلمام بأمور الإبحار تلك. نحن ننطلق سريعًا! يا إلهي! وليس عليَّ أن أقوم بنوبة الحراسة مع أبي، إذَن هذا رائع. لا يوجد مَن يُزعجني غير براين، ولكن من السهل تجاهلُه مقارنةً بأبي.

إن صوفي لديها هوسٌ بصيد الأسماك. لم أرَ في حياتي أحدًا سعيدًا هكذا بالقيام بشيء بهذه البساطة. لكنني ظننتُ أنها ستتقيَّأ عندما همَّت بقتل السمكة الأولى. فقد ظلت تقول: «إنها ما زالت حية! إنها تتألم! إنها تتوجع!» ثم عندما انتهى أبي من طهي السمك، قالت إنها ليست جائعة.

أبي يُزعجني باستمرار. إنه يحاول ثَنْيي عن تعليمهم الرمي.

قال: «ألا تعرف أي شيء آخر يُمكنك أن تُعلمنا إياه؟»

قلت: «كلا.»

الفصل الحادي عشر

الرمي

صوفي

يوجد المزيدُ من المهامِّ على القارب اليوم. انتهيتُ من صناعة صندوق الماء الآسِن الذي أسمَيناه «بادي»، ذلك المذهل المصنوع من الألياف الزجاجية، وقمتُ بتغطيته بطبقةٍ من الصمغ لسدِّ أي مواضعِ تسريب ولو بسيطة.

قال الخال دوك: «لقد قمتِ بعملٍ رائع في صنع صندوق الماء الآسن، نعم.» كنتُ أتمنى أن يوضِّح ذلك للآخرين، لكنه بدلًا من ذلك قال: «أعتقد أن من الأفضل لنا أن نتحرَّك. يوجد هنا توجهٌ مزعج فيما يتعلق بالقوارب.»

سألت: «كيف؟».

«أشياءُ من قبيل: قاربي أفضلُ من قاربك، وقاربي أكبر من قاربك، وكل هذا الهراء. مقارناتٌ سخيفة بين القوارب.»

أعتقد أنه حسَّاس بعضَ الشيء إزاء حالة قاربنا «ذا وندرر». فلم ألحَظْ مدى غرابة شكل قاربنا حقًّا إلا عندما رأيتُ القوارب الأنيقة الموجودة هنا في الميناء. إنها تتلألأ! والأشخاص الذين يرتدون ملابسَ متشابهةً أنيقة على المرسى يقومون بتلميع كل شيء مرئي. ولا ترى أيَّ شيء ليس في مكانه.

أما قاربنا فكان ملطخًا بآثار المادة المستخدَمة في لحام الشقوق، بما في ذلك آثارُ أقدام بيضاء على امتداد سطح القارب، ممتدَّة من موضعٍ دخل منه أحدُهم، وملابسنا معلَّقة على أملِ أن تجف، والأواني والمقالي مكدَّسة بعضها فوق بعض على القارب؛ لأنني وكودي وضعناها بالأعلى لتنظيفها، ونرتدي سراويلنا القصيرة وقمصاننا القطنية وأوشحة الرأس الرثَّة المعتادة.

صاح دوك مزمجِرًا: «حان وقتُ الرحيل.»

قال كودي: «إذَن، أهوي. أفلِت المرساة!»

كان الخال مو يتجوَّل عبر سطح القارب. قال: «توقَّف عن ذلك يا كودي.»

قال كودي: «اقطع المرساة.»

قال مو: «اذهب وساعدْ براين في الخرائط. افعل شيئًا مفيدًا.»

فقفز كودي في الماء. «على الجميع الاستعداد.»

من الصعب ألا أضحكَ على كودي، لكني أتساءل أحيانًا عمَّا إذا كان برأسه عقلٌ أو إذا كان يُفكر في أي أمور جادَّة، وبدأتُ أرى كيف أنه قد يكون من المزعج أن أظلَّ معه ثلاثةَ أسابيع كاملة على هذه الجزيرة الصغيرة؛ أي القارب.

حاول براين اليوم أن يُعلمنا مُناورات الإبحار. كان مُعظمنا يعرف كلَّ ذلك بالفعل، ولكن حتى إذا لم نكن نعرفه بالفعل، فمن المؤكَّد أننا لم نكن لنتعلمَه من براين. وبدأ في شرحٍ معقَّد للعلاقة بين الرياح من جهة والشراع واتجاه القارب من جهة.

قال براين مُحاضرًا إيَّانا: «إذَن، عندما يكون الإبحار عكس اتجاه الرياح، فهذا يُسمى «الهجوم» ...»

قال كودي: «ماذا؟ هجوم؟ أتقصد هكذا؟» وضرَبه كودي في صدره.

تجاهَله براين. «وعندما يكون اتجاهُ الرياح مقابلَ منتصف جانب القارب، فهذا يُسمى «الوصول» ...»

«الوصول؟ مثل هذا؟» ومدَّ كودي يده نحو السور كأنَّما يحاول الوصولَ إلى شيء.

«توقَّفْ عن ذلك يا كودي. وعندما تأتي الرياح من الكوثل ...»

سأل كودي: «ما معنى الكوثل؟».

صاح براين: «ألا تعرف ذلك حتى؟ الكوثل هو الجزء الخلفي من السفينة؛ مؤخرة السفينة.» ثم قال محذرًا: «إذا كنتَ لا تنوي أَخْذَ هذا على محمل الجِد ...»

«لا أفهم لماذا يتعيَّن علينا معرفةُ كل هذه المصطلحات. أقصد، ماذا سيحدث لو كنا لا نعرف كلماتٍ مثل الهجوم والوصول؟ علينا فقط تعلُّمُ كيفية القيام بهذه الأشياء، أليس كذلك؟ وليس المصطلحات التي نُطلقها عليها.»

قال براين: «وهل تعرف حقًّا كيفية القيام بأيٍّ من هذه؟ هل تعرف من أين تأتي الرياح وماذا تفعل بالأشرعة إذا كانت الرياحُ قادمةً مثلًا من الخلف؟»

قال كودي: «ولماذا عليَّ أن أعرف ذلك؟ يبدو أن الجميع يعرفون، والجميع يُلقي دائمًا بالأوامر؛ لذلك أفعل ما يُمليه عليَّ الآخَرون. يمكنني شدُّ الحبال ببراعةٍ مثل أيِّ شخص آخر.»

قال براين: «هاه.»

لاحقًا، تلقَّينا أولَ دروسِ الرمي من كودي. أعتقد أنه كان مُعلمًا جيدًا حقًّا؛ لأنه بدأ بالأمور البسيطة بإلقاء شيء واحد فقط في الهواء. كنا نتدرَّب باستخدام أكياس الكعك المملَّح.

قال براين: «يا للحماقة!».

كان الخال مو في نوبة الحراسة، لكنه استدار وتمتمَ قائلًا: «رمي. يا إلهي.»

ثم جعلنا كودي نُلقي كيسَين من أكياس الكعك المملح في الهواء، واحد مِن كل يد. كان ذلك سهلًا أيضًا. ولكن عندما قمنا بإضافةِ الكيس الثالث من الكعك المملح، تعثَّرنا جميعًا ولم نستطِع التعامل مع الأمر بإتقان. وتساقطَت أكياسُ الكعك المملح على جانب القارب محدِثةً صوتًا عاليًا.

قال كودي: «السرُّ في حركة اليدَين. فقط حرِّكوها بتوازنٍ إيقاعي.»

قال براين: «هذا شيءٌ غبي حقًّا.»

قال كودي: «قد يُساعدك ذلك على تنسيق الحركة بين يدَيك.»

«وما المشكلة في التناسق بين يدَي؟»
وصار الأمر مُزعِجًا بعد ذلك؛ لذلك أوقَفْنا درس الرمي.

يُراجع براين والخال دوك الخرائطَ ويُحاولان معرفة توقُّعات الطقس من الراديو. سنُغادر غدًا إلى نوفا سكوشا، وهو ما يعني رحلةً في المحيط بدون توقُّف، سوف تستغرق ثلاثةَ أيام أو أربعة، دون يابسةٍ على امتداد البصر. «دون يابسة»! لا أستطيع تخيُّلَ ذلك؛ لا أستطيع أن أتصور إحساسَ عدم رؤية أي شيء إلا المحيط؛ المحيط من كل اتجاه.

قال الخال دوك: «ستكون هذه أولَ رحلة تجريبية كبيرة لنا، نعم.»

نقَر الخال ستيو بأصابعه على الطاولة. «توقُّعات الطقس لا تبدو جيدة.»

قال الخال مو: «أوه، وما الضرر في ذلك؟».

الفصل الثاني عشر

تُرَّهات فارغة

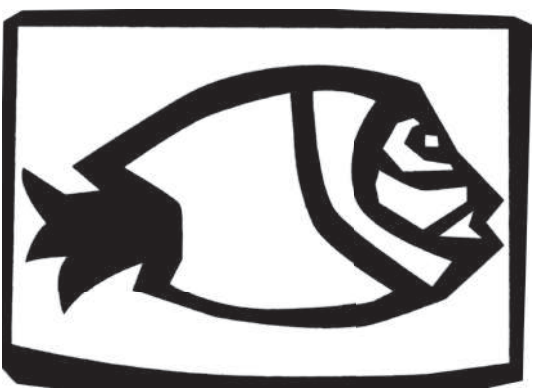

كودي

يوم غبي.

ظلَّ براين الغبي يتفوَّه بتُرَّهاتٍ عن المناورات البحرية، كما لو كان يعرف كلَّ شيء عن كلِّ شيء.

إنه لا يعرف كيف يقذف الأشياء في الهواء، وهذا أمرٌ مؤكَّد.

هذا الصباح، قال لي براين: «أنت تُحب صوفي أكثرَ مني، أليس كذلك؟»

قلت: «هذا صحيح.»

حسنًا. إنها الحقيقة.

غدًا ستقصُّ علينا صوفي أولَ حكاية من حكايات بومبي. أنا متأكدٌ من أن ذلك سيكون ممتعًا.

الفصل الثالث عشر

رحلة تجريبية

صوفي

لم أعد أعرف في أي يوم نحن. فقد أثَّرَت نوباتُ الحراسة هذه على إحساسي بالوقت.

في الأيام القليلة الأولى، كان كلُّ اثنين منا يتولَّيان الحراسة (وكنتُ أتولى الحراسة مع الخال دوك)، وكانت كلُّ مُناوَبة تستمرُّ أربع ساعات، ثم نستريح ثماني ساعات، ثم نعود للحراسة مدةَ أربع ساعات أخرى. إن أربع ساعات وقتٌ طويل، خاصةً في الليل، عندما تكون كلُّ عضلة في جسمك مشدودة، ما بين السمع والمراقبة. الجميع نائمون في هذا الوقت، وأنت تعلم أن مسئوليةَ حمايتهم تقع على عاتقكما أنتما فقط.

لا يوجد هنا نهار ولا ليل ثم يأتي يوم جديد. بل توجد درجات من النهار ودرجات من الليل، تمتزج وتتبدل. يبدو الأمر كسيل طويل من الزمن يتكشف أمامك وحولك.

لا يوجد أمس ولا قبل أمس، وهو شيءٌ غريب؛ لأن في هذه الحالة ما هو الغد؟ وما الأسبوع الماضي أو السنة الماضية؟ وإذا كان لا وجود لأمس أو السنة الماضية — أو عشر سنوات مضَت — فهذا يعني أنه لا يوجد سوى «الآن»، لا يوجد غيرُ لحظةٍ راهنة واحدة ضخمة.

هذا يجعلني أشعر باستغرابٍ شديد، كما لو كان بإمكاني أن أقول: «عمري أربع سنوات الآن»؛ وبذلك أستطيع العودة طفلةً في الرابعة مرةً أخرى. ولكن هذا غيرُ ممكن. غير ممكن حقًّا. هل يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟

ظللنا نُبحر عبر خليج مين باتجاه جزيرة جراند مانان في خليج فندي، غرب نوفا سكوشا مباشرة. يُطلق الخال دوك على الرياح «المرأة المُتقلِّبة المزاج»؛ لأنها تهب بشكلٍ متقطع. أمس (ما زلتُ أستخدم كلمات مثل «أمس»؛ لأنني لا أعرفُ طريقةً أخرى للحديث عن أشياءَ حدثت في الماضي)، عندما عمَّ الضباب الأجواءَ مُدةً، نظَم الخال دوك قصيدةً عن الضباب وهو يزحف على أقدامِ قطط صغيرة، وما إن انتهى، حتى تجلَّى لي ما قاله تمامًا عندما حدَّقتُ في الضباب الرمادي؛ رأيتُ مئاتٍ من أرجُلِ قططٍ صغيرة تمشي على رءوس أصابعها. ولاحقًا، عندما تدفَّق الضباب في كتلٍ أكثر عمقًا وسوادًا، تخيلتُ أرجُلَ نمورٍ كبيرة تثبُ نحونا؛ أرجل نمور رشيقة ناعمة مكسوَّة بالفرو.

أمضيتُ يومًا حزينًا بلا رفيق عندما كنتُ في نوبةِ الحراسة أحدِّق في كل هذا الضَّباب الرمادي، وفجأةً انتابتني رغبةٌ في عدم مغادرة سواحل أمريكا الشمالية، رغبة في الإبحار عبر المحيط، في أن أبتعد تمامًا عن اليابسة. لكن لم يكن عندي متَّسَع من الوقت للحزن؛ إذ هبَّت الرياح بشراسة من الشمال، وهو ما يعني أنه كان علينا القيام بكثير من أعمال توجيه في مواجهة الميَلان والتعرُّج. كانت الأمواج عاتية — من ستِّ أقدام إلى ثمانٍ — أو على الأقل هذا ما رأيته، لكن الخال ستيو أطلَق عليها أمواجًا صغيرة.

سألني الخال ستيو: «هل أنتِ خائفة يا صوفي؟» وشعرتُ كما لو كان يتمنَّى لو «كنت» خائفة؛ لذا أجبتُ قائلةً: «لا، لستُ خائفةً على الإطلاق. ليس لديَّ ولو ذَرة من الخوف.» «كنتُ» خائفة، ولكني لم أُرِد أن يعرف ذلك.

عمَّت الفوضى بالأسفل. فقد كان دوري أنا وكودي في إعداد طعام الغداء، وبعثَرْنا الطعام في جميع أرجاء المكان.

صرَخ كودي بينما كانت محتويات القِدر الساخنة تتبعثر على الجانب: «انتبهي إلى شراع صاري القِدر الخلفي! ارفعي المِغرفة!»

قلت له: «هلا كفَفتَ عن المزاح؟».

ألقى صَدفةً في الحساء مباشرة. ثم قال: «يا إلهي، سيُطالبني الجميع بذلك عاجلًا أو آجلًا.»

أعتقد أنه موضوع حساس.

واجَه القاربُ بعض المشكلات في أول رحلة تجريبيَّة له ما بين تسرُّبات في المقصورة الخلفية ومياه في الحوض المجمَّع. أمضينا كثيرًا من الوقت نتحسَّس طريقنا ببطء بحثًا عن أيِّ مشكلات تحتاج إلى إصلاح، ثم محاولة إصلاح أيِّ خلل. كنا قد تمكَّنا حتى الآن من سدِّ كل مصادر التسريب. لا تشعر بالقلق كثيرًا عندما تعلم أنه يمكنك الوصولُ إلى اليابسة في غضون ساعة أو اثنتين إذا اضطُرِرت إلى ذلك، أو عندما يكون هناك ما يكفي من القوارب من حولك بحيث يمكنك طلبُ المساعدة بسهولة، ولكن بمجرَّد الانطلاق من نوفا سكوشا، ماذا سنفعل إذا حدث تسرُّب كبير؟

لا أريد أن أفكر في ذلك. أفضِّل التفكير في دلالات الفأل الحسن: لقد زارتنا الدلافينُ ثلاثَ مرات! إنها تأتي في مجموعات من أربعة أو خمسة وتسبح بجانب القارب. عادةً ما تأتي عندما نُبحر بسرعة، وتنطلق بجانبنا سريعًا هي الأخرى. يبدو الأمر كما لو كانت تُسابقنا. إنها تظهر أمام مقدمة القارب، منطلقةً إلى الخلف وإلى الأمام تحت الماء، على بُعد بضع بوصات فقط من جسم السفينة.

إنها أروعُ مخلوقات رأيتُها في حياتي، تتحرك في انسيابية في الماء دون أي جهد ظاهر، ثم تتقوَّس على السطح وترفع زعانفها وظهورها خارج الماء.

يَدْعوها كودي «الأعزاء». «هنا، أيتها الدلافين الأعزاء! هنا!»

أشعر دائمًا بقليل من الحزن عندما تسبح بعيدًا في النهاية وينادي كودي: «وداعًا أيتها الدلافين الأعزاء! وداعًا!»

قُمنا بتغيير نظام النوبات لتكونَ على عاتق ثلاثةِ أشخاص خلال عاصفة الضباب (كودي معنا حاليًّا). أنا جالسةٌ الآن متدثِّرة بملابسي الدافئة المناسبة لهذا الطقس السيِّئ، أشاهد شروق الشمس أمامنا والقمر يختفي من الأفق من خلفِنا. أنا متعَبة ومبلَّلة وبحاجةٍ ماسَّة إلى الاستحمام، لكنني في الجنة.

أتعلم الكثير كلَّ يوم، وكلما تعلمتُ أكثر، أدركت أنه ما زال هناك كثير وكثير ممَّا عليَّ معرفتُه عن الإبحار، والمياه، والملاحة، والطقس. اليوم أعطانا الخال ستيو درسًا في قراءات جهاز السدس. إنه أصعبُ مما توقَّعت، واستمرَّ الخال ستيو وبراين يُوبِّخانني أنا وكودي، ويخبراننا أننا لن نقوم بمهامٍّ عملنا ما لم نتعلم كيفيةَ القيام بكل هذا؛ لأن حياتهم قد تتوقَّف علينا نحن الاثنان.

قال كودي مازحًا: «من الأفضل أن «تتمنَّوا» ألا تتوقف حياتكم عليَّ أنا وصوفي.»

حينئذٍ جُنَّ جنون الخال ستيو. «ليس كل شيء قابلًا للمزاح يا كودي، وإذا حدث أيُّ شيء ونحن في وسط المحيط، فستدعو أن يكون جميعُ مَن على القارب بإمكانهم إنقاذُك إذا حدث شيء. على الأقل يُمكنك أن تفعل الشيء نفسَه معنا.»

قال كودي وهو متجه إلى أسفل: «أجل، أجل، أجل، أجل، أسمعك.»

حتى الخال دوك بدا منزعجًا من كودي هذه المرة. قال: «آمُل بالتأكيد أن يكون الصبيُّ جادًّا بشأنِ شيءٍ ما.»

رأيتُ حلمًا الليلة الماضية (أم في العصر؟ أم الظهر؟ أم الصباح؟ أم اليوم السابق؟) أننا انجرفنا في المحيط بلا طعام، وكنا جميعًا نُعاني على سطح القارب بلا طاقة لفعل أيِّ شيء، وكان القارب يتقلَّب ويتمايل، ثم ظهر طائرُ نورس يطير فوقنا، وهبط على عارضةِ الصاري، وقال براين: «اقتلوه! اقتلوه!»

الساعة الآن نحو الثانية بعد الظهر، وبزَغَت الشمس من بينِ السُّحب، ونحن الآن على بُعد نحو ستة وثلاثين ميلًا من جراند ماناو. نأمُل أن نصل إلى هناك قبل الغروب. لقد حانت نوبةُ حراستي الآن؛ لذا من الأفضل أن أَشغَل نفسي بشيء.

الفصل الرابع عشر

بومبي والسيارة

كودي

اليوم سمعتُ براين يسأل العم ستيو عمَّا حدث لوالدَي صوفي الحقيقيَّين.

قال العم ستيو: «لا أعرف.»

سأل براين: «كيف لا تعرف؟».

هز العم ستيو كتفَيه. «لا يخبرني أحدٌ على الإطلاق بشيء.»

لذلك سألت والدي ماذا حدث لوالدَي صوفي الحقيقيَّين، قال: «يومًا ما سأخبرك.»

«أخبرني الآن.»

«لا، لا أعتقد ذلك.»

أتعرَّض للتوبيخ لعدم فهمِ كل التُّرَّهات الخاصة بالمِلاحة. وأتعرَّض للتوبيخ عندما أمزح أكثرَ مما ينبغي. وأتعرَّض للتوبيخ عندما أتنفَّس. حسنًا، يكاد يحدث ذلك.

أخبرَتنا صوفي بقصتِها الأولى من قصص بومبي اليوم. كانت أحداثها على نحوٍ يُشبه ما يأتي:

عندما كان بومبي شابًّا في مقتبل العمر، كان يعيش في مزرعة، وكانت عائلته فقيرةً جدًّا. لم يكن لديهم حتى سيارة أو شاحنة. لكن في يومٍ ما حصَلوا على سيارة مقابل اثنين من البغال. المشكلة الوحيدة كانت في عدم دراية أيٍّ منهم بقيادة السيارات. ولكن بومبي كان يركب السيارات، ولم يرَ أن قيادة سيارة يمكن أن يكون أمرًا عسيرًا. لذا تطوَّع بومبي للذَّهاب إلى المدينة لأخذ السيارة وقيادتها إلى المنزل.

كانت السماء تُمطر، وتُمطر، وتُمطر. يجب أن تسمع صوفي تحكي قصة. كانت تخوض فيها بإسهاب وتَروي كلَّ تفاصيلها. وهذا لدرجة أنك تكاد تستطيع أن تشعر بالمطر يتساقطُ على رأسك عندما تقول ذلك. يمكنك أن تشعر به، وأن تَشَمَّ رائحته. إنه حقًّا شيء رائع.

على أي حال، ذهب بومبي لأخذ السيارة وكانت السماء تُمطر، وتُمطر، وتُمطر. كان يقود سيارته إلى المنزل حتى وصل إلى المكان حيث يجب عليه عبورُ جدول الماء. لا يوجد جسرٌ أو أيُّ شيء يمكن العبور منه. عندما كانوا يرتادون هذا الطريق سيرًا، أو يمتطون البغال، كانوا دائمًا يخوضون فيه فحسب.

لذلك قاد بومبي السيارة في الجدول، لكن الماء كان يندفع بسرعةٍ شديدة، وكان كحاجز كبير يغمره، وكان بومبي يصرخ: «توقَّفي!» لكن السيارة أبَت أن تتوقَّف، فقلب الحاجزُ المائيُّ السيارة، واندفع بومبي خارجًا منها وهو يشاهد السيارة الجديدة تغرق في النهر.

عندما عاد بومبي أخيرًا إلى المنزل، تعرَّض للجَلْد من والده وحَظِي بفطيرةِ تفاح من والدته.

سأل براين صوفي: «لماذا أعطته فطيرة تفاح؟».

قالت صوفي: «لأنها كانت ممتنَّةً لكونه لا يزال على قيد الحياة.»

قال براين: «كيف تعرفين هذه القصة على أي حال؟».

قال العم دوك: «اصمُت يا براين.»

لكن صوفي قالت: «لأن بومبي أخبرني بها، هكذا عرَفتُها.»

يمكنُك أن تُخمن أن براين أراد أن يقول شيئًا آخر، لكنه لم يفعل. ولم يفعل ذلك أحد.

كنتُ جالسًا هناك أفكر في خروج بومبي من تلك السيارة، وفي إعطاء أمِّه له فطيرةَ تفاح.

اليوم ظلَّت صوفي والخال دوك يتقاذفان ثلاثةَ أكياس من الكعك المملَّح بضع دقائق! كانا في غاية الحماسة والسعادة. وغمَرني شعورٌ كبير بالرضا أنا أيضًا. أنا مُعلم!

الجزيرة

الفصل الخامس عشر

جراند مانان

صوفي

وصلنا إلى سيل كوف على جزيرة جراند مانان عند غروب الشمس — أكان هذا أمس؟ — بينما اصطبَغَت السماء بخيوط من اللونَين الوردي والأرجواني الفاتح. يا لها من جنة!

أحسب أن للخال دوك مَعارفَ في كل مكان. ففي طريقنا إلى سيل كوف، تواصل الخال دوك مع القائم على الساحل عن طريق الراديو، الذي تواصل بدوره مع صديق لدوك، يُدْعى فرانك، وعندما بلَغْنا بوابة الميناء، كان فرانك في انتظارنا للمساعدة في إرشادنا للدخول إلى الميناء. كانت الميناء بالداخل عبارةً عن حاجزٍ ضخم، مثل حِصن، وكان قاربنا هو القاربَ الشِّراعي الوحيد الذي ينطلق إلى داخل الميناء المكتظ بقواربِ الصيد المتراصَّة في ثلاثة صفوف وأربعة كما لو كان الميناء مرأبًا للسيارات داخل إحدى المدن الكبيرة. حملَنا فرانك في شاحنته الصغيرة مصطحبًا إيانا إلى بيته الذي يقع على بُعد بضعة أبنية من

الميناء، والتقينا بأسرته وأخذنا نترنَّح مثل مُهرِّجين مصابين بالدُّوار على أقدامنا المتمايلة التي اعتادت البحر.

بدأتُ الاهتمام فعليًّا هنا بالأسماك والصيد. فهذا شيء لا يُمكن مقاومته؛ فالجميع هنا له علاقة بطريقة أو بأخرى بالأسماك. البعض يصطاد سرطان البحر أو سمكَ البولوك أو الرنجة، والبعض الآخر يعمل في مصانع تعليب السردين والرنجة. أسماك، أسماك، أسماك في كل مكان!

ذهبنا جميعًا اليوم بصحبة فرانك لنصطاد سرطان البحر على متن قاربِ الصيد الخاصِّ به، «فرانكس فورت.» كان فرانك قد اشترى هيكل القارب وقام ببنائه بنفسه. يروقني قيامُ الأشخاص بأشياء مِثل هذه؛ حين يُحولون أشياءَ قديمةً متداعية إلى شيءٍ رائع!

لا يروق ذلك لبراين. فقد قال لي: «لا تُبالغي يا صوفي. إنه مجرد قارب.»

مجرد قارب! إن الأمر قد يستغرق منك أشهُرًا كي تنتهيَ من تفقُّد هذه القوارب. سوف تجد أوعيةً تحتوي على طعوم الصيد، وحاوياتٍ مليئةً بسرطان البحر، وعُصابات لوضعها على مَخالب سرطان البحر، وخراطيم ومِشباكًا وأشياء أخرى تُغطيها إفرازاتُ الأسماك اللزجة والأعشاب البحرية. ربما أعمل في صيد سرطان البحر يومًا ما؛ من يعلم؟

قال كودي: «كيف تُحبين كلَّ هذه الأشياء يا صوفي؟»

قلت: «حسنًا، ألا تُحبها؟». وأضفت: «ألا تحب أن تتخيَّل كيف ستكون حياتك إذا أصبحتَ مثلًا صيادًا؟ حينئذٍ سوف تشمُّ رائحة البحر طوال اليوم ...»

قال: «ورائحة السمك أيضًا. قد تُصيبك رائحة السمك بالغثيان.»

«أو ربما ترى أنها أزكى رائحةٍ شممتها على الإطلاق. قد تُحب الإحساس بالهواء طوال اليوم والتعامل مع الأسماك و...»

قال «لا بأس يا صوفي. بإمكانك أن تُحبي هذه الأشياء كما تشائين.»

وجدنا بعض المصائد التي أخرَجناها من البحر فارغة، ولم يتبقَّ من الطُّعم سوى هيكلٍ عظمي لسمكة رنجة بيضاء ثلجية لم يمَسَّه أحد.

سألت: «أين الطُّعم؟».

قال فرانك: «براغيث البحر. إنها توجد في كل مكان، وهي صغيرةُ الحجم إلى أقصى درجة، وتكاد تكون غيرَ مرئيَّة. إنها تحب الطُّعم الذي نضعه. إذا سقطتَ من القارب ولم

نُخرجك من الماء حتى اليوم التالي، فسوف تلتهمُك هذه البراغيث، وسوف يغوص هيكلك العظمي في القاع!»

رفعَني كودي، وجعلني أتدلَّى من جانب القارب. قال: «أتحبين أن تُجربي؟».

قلت: «هذا ليس مضحكًا يا كودي.» لم أُحبَّ فكرة أن تقوم براغيث البحر بالتهامي حتى لا يتبقى مني سوى العظام.

كانت إحدى إناثِ سرطان البحر تحمل بيضًا، كان عبارةً عن ملايين من حبوبٍ برتقالية (أسماها فرانك بَطارخ) مجتمِعة في شكلِ عناقيد على الجانب السفلي من ذيلها وحتى رأسها.

قذفها فرانك في المياه وقال: «يجب أن تعود هذه الجميلة إلى المياه حتى تستكمل الدورة.»

وانتابني شعورٌ غريب، بينما أفكر كيف أنَّ أنثى سرطان البحر قد نجَت بحياتها بإلقائها في المحيط، في حين أنه كانت ستُصبح تلك هي النهاية بالنسبة إليَّ لو أنا مَن أُلقيتُ في المحيط.

اتصلتُ بالمنزل الليلةَ الماضية. سألَتني أمي نحو مليونَي سؤال: «ما شعورك؟ هل شعَرتِ بدُوار البحر؟ هل تشعرين بالدفء؟ هل أنتِ في أمان؟ هل أنتِ خائفة؟ هل تشعرين بالوحدة؟» وأخيرًا، أخذ أبي الهاتف وقال: «يا لها من مغامرة! يا لها من مغامرة مذهلة!»

كنتُ أشعر أنني بخير حتى تحدَّثت معهما. فقد بثَّت أمي في نفسي شعورًا بالقلق وعدم الارتياح، كما لو كانت تتوقَّع حدوثَ شيء مريع. ظلِلتُ أخبرها أن كل شيء يسير على ما يُرام، وأنه لا داعيَ للقلق، ولكن عندما حان الوقتُ لأقول وداعًا، استطعتُ بالكاد أن أتفوَّه بها. فهي تحمل إيحاءً بالنهاية. لذلك كان عليَّ أن أقول: «وداعًا الآن»، وظلِلتُ أردِّد «الآن» حتى قامت هي بترديدها، فاطمأنَّ قلبي.

قالت والدتي أيضًا إنها اتصلَت ببومبي لتُخبره بقدومنا، وقد «بدا من صوته أنه مُشوَّش تمامًا.»

سألتها: «ماذا يعني هذا؟».

«يبدو أنه لم يعرف هُوية المتصل في البداية، وجعل يدعوني مارجريت.»

«مارجريت؟ من تكون مارجريت؟»

«جدتك. أمي. زوجته. لقد جعلني قلقةً عليه، ولكنه بعد ذلك عاد إلى طبيعته وقال إنه بخير، وإنه كان يمزح فقط، وكان متحمسًا جدًّا لزيارتكم.»

قلت: «حسنًا، إذن. هذا جيد، أليس كذلك؟»

قالت مؤيدةً إياها: «نعم، هذا جيد.»

الفصل السادس عشر

عالقون

كودي

نحن نتوقف أكثرَ ممَّا نُبحر خلال هذه الرحلة. يبدو الأمرُ وكأن العم دوك لا يريد أصلًا أن يُبحر إلى إنجلترا. أعتقد أن ثَمة شيئًا غريبًا وراء كلِّ هذا التوقُّف المتكرر. لعلَّ هناك مشكلةً كبيرة خطيرة في هذا القارب لا يعلمها سوى العمِّ دوك.

سألت العم دوك اليوم إن كان على دراية بما حدث لوالدَي صوفي.

أجاب: «لا شيء. لقد عادا إلى كنتاكي ...»

قلت: «لا أتحدث عن هذين الوالدين. أنا أتحدث عن والديها الحقيقيَّين.»
قال: «آه.»
«هل تعرف ماذا حدَث لهما؟»
أجاب: «نعم.»
سألته: «وهل ستُخبرني؟».
قال: «لا.»
«وما السبب؟»
قال: «ليست قصةً لطيفة.»

الفصل السابع عشر

العادات

صوفي

قالت لي زوجة فرانك بالأمس: «أنتِ فتاةٌ شجاعة لأنكِ تركبين البحر!» و«أنتِ فتاةٌ شجاعة لأنك وسط كلِّ هؤلاء الرجال!» وسألتني عمَّا إذا كانوا يسمحون لي بالقيام بأيٍّ من مهام الإبحار.

قلت: «إنه صراع. فهم في الحقيقة لا يريدون ...»

«اعتقدت أنكِ تقومين فقط بمهام الطهي والتنظيف.»

قلت: «مطلقًا! هذه مهمة كودي!».

في الحقيقة إنها ليست مهمةَ كودي. فمن المفترض أننا نتناوب القيام بها، إلا أن براين عادةً ما يتهرب منها، وكودي يُحب القيام بها أكثرَ من الآخرين. وعندما قام فرانك

وزوجته بزيارتنا في قاربنا ورأيا كودي يُنظف الأطباق ويمسح الأرضية، قال له فرانك: «ستكونين زوجةً عظيمة»، وأخذ يُنادي كودي «السيد ماما.»

لم يُبدِ كودي انزعاجًا من هذا. بل إنه حوَّله إلى مزحة. فقال: «السيد ماما في خدمتك!» وهو يُحضِر لهم بعض الجبن والمقرمشات، و«انتبِه، السيد ماما يريد أن يمسح الأرضية تحت قدمَيك!»

أتمنَّى لو كنت أمتلك حسَّ كودي الفكاهيَّ التلقائي في أوقات كهذه. فأنا أنزعج جدًّا عندما يُظهر أحدٌ الدهشة من كوني أستطيع استخدام أداة كهربية أو الصعود أعلى صارية أو استخدامَ الألياف الزجاجية، أو عندما يتوقَّع أحدٌ أنني مَن يقوم بمهمة الطهي. عادةً ما يكون ردي فظًّا ومتعاليًا، لكن عليَّ أن أكون مثل كودي. إذا حولت الأمر إلى مزحة واكتفيتُ بالضحك، فسينتهي الموقف.

أمس، بعد أن ذهبنا لجمع المحار، التفتَ لي فرانك وقال: «لديك أعمالٌ كثيرة مع المقلاة!»

قلت: «لا، لن أقوم بذلك! لست الشخص الوحيد هنا الذي يُمكنه الطهي.»

قال: «حسنًا.»

أظن أنني جرحتُ مشاعره بهذا الرد الحاد، وانتابني شعورٌ سيئ لأنه كان لطيفًا معنا للغاية. عليَّ أن أتعلم أن أُغلق فمي في بعض الأحيان.

سوف أتحدث الآن عن جمع المحار. وأتمنى ألا أكون مملَّة، لكني أريد أن أكتب عن هذه التجرِبة، وأن أتذكر كلَّ تفاصيلها. فمن الممكن أن تنسى أشياء، وربما تنسى تفاصيلَ كثيرة من حياتك، ثم إذا أراد أحدُ الأشخاص معرفةَ ما كنت تُفكر فيه أو تشعر به، فقد لا تتذكر، أو قد تكون مريضًا، أو رحلتَ عن الحياة ولا تستطيع أن تُجيب، ولن يعرف الآخرون هذه التفاصيلَ أبدًا. سيصير الأمر كما لو كانت براغيثُ البحر الصغيرة تلك قد التهمَت كل تفاصيل حياتك.

سألتُ أمي يومًا كيف يتذكَّر بومبي كلَّ حكاياته تلك، فأجابت: «إنها مثلُ صورةٍ مطبوعة في رأسه.»

قلت: «ولكن ماذا لو مُحيت هذه الصورة؟».

أجابت: «وكيف لذلك أن يحدث؟».

عند انحسار المد، ذهبنا جميعًا لجمع المحار بصحبة والد فرانك الذي يبلغ من العمر ٧٩ عامًا. كنا نبحث عن فقاعات الهواء في الرمال ثم نبدأ الحفر، ولكن كان يوجد كثير من

الأعشاب البحرية تغطِّي الحُفرَ وكثير من الماء، فلم نتمكَّن من رؤيةِ ما بداخل الحُفرة بمجرد البدء في الحَفْر. هذا بالإضافة إلى أن الأرض تتكوَّن في الغالب من صخور، والمحار يعيش في العمق، وهو ما جعل عمليةَ الحفر أمرًا عسيرًا.

إنه لَأمرٌ عجيبٌ أن ترى هذه الفقاعات الهوائية وتُدرك أن كائنًا ينبض بالحياة يعيش بالأسفل، تحت الرمال. انتابني شعورٌ غريب، كما لو كنتُ أنقِّب عن شخص وليس عن محار.

رأى براين والخالُ ستيو بعد انقضاء الدقائق العشرين الأولى أن التنقيبَ عن المحار ليس شيئًا ممتعًا. وعبَّرا عن استيائهما من اتِّساخ سراويلهما الجينز بالطين وعدم حبهما للانحناء. قال الخال ستيو: «أكلُّ هذا الحُفر من أجل الحصول على محارٍ واحد تافه؟».

كان والد فرانك يُثرثر أثناء العمل. «لقد وُلدت على هذه الجزيرة، تمامًا مثل والديَّ، وعشتُ هنا طيلة حياتي، مع اثني عشر أخًا وأختًا، وأطفالنا جميعًا. أقوم بجمع المحار كلَّ يوم تقريبًا، وأحب أن أتسكع بلا هدف في الحديقة أيضًا، وأصطاد الغزلان عندما تسنح الفرصة. الحياة جميلة. جميلة حقًّا.»

واستطعتُ أن أدرك كيف يمكن أن تكون الحياة جميلة، وكيف يمكنك العيشُ وسط أسرتك الكبيرة، ويعرف الجميع بعضُهم بعضًا ويعتني بعضُهم ببعض.

أشعر كما لو كنتُ لا أستطيع أن أشبع من الحياة على جراند مانان، وفي وسط كلِّ الأشياء التي عرَفتُها عن هذه الجزيرة، عرَفتُ أشياءَ عن أخوالي أيضًا. من المدهش ما يمكنك معرفتُه بينما تقوم بجمع المحار أو تشد مصائدَ سرطان البحر.

اكتشفتُ أنه لطالما أراد مو ودوك وستيو الإبحارَ في المحيط مذ كانوا أطفالًا. فلطالما تحدَّثوا عن ركوب البحر وخطَّطوا له وحلموا به.

سألتُ: «هل كنتم تعتقدون أنكم ستُحققون حلمكم بركوب البحر؟».

أجاب الخال مو: «لا.»

قال الخال ستيو: «عمَّ تتحدث؟». وأردف: «بالطبع كنتَ تعتقد أننا سنفعلها. كنا جميعًا مؤمنين بأننا سنفعلها.»

قال مو: «لم أكن مؤمنًا بذلك.»

«لكنك قلتَ — بل ظللتَ تقول — إنك جعَلتَنا نُفكر في أسماءَ للقارب، وظللتَ تُرينا الأطلس، و...»

قال مو: «كانت مجرد لعبة. أليس كذلك؟»

تمتم ستيو: «لعبة؟ لعبة؟».

قال الخال دوك بهدوء: «كنت واثقًا أننا سنفعلها. بل كنتُ «أعلم» أننا سنفعلها.»

سألتُهم إن كانت أمي قد شارَكَتهم تلك الخططَ عندما كانوا صغارًا. «هل أرادت ركوبَ البحر هي الأخرى؟»

قال الخال ستيو: «مَن؟ كلير؟ أتتحدَّثين عن كلير؟».

قال دوك: «بالتأكيد تتحدث عن كلير. إنها تريد أن تعرف كيف كانت كلير في صِغَرها.»

قال ستيو: «حسنًا. لا، لم تكن كلير تريد مشاركتَنا أيَّ شيء. كانت ترانا وَقِحين ومنفِّرين.»

قال دوك: «تحدَّثْ عن نفسك. لقد كانت العلاقةُ بيني وبين كلير جيدةً طَوال الوقت.»

اكتشفت أيضًا أن اسم مو هو اختصارٌ لاسم موسى، لكنه تعرَّض للتنمُّر والنقد كثيرًا بسبب اسمه، عندما كان صغيرًا (قال: «فكِّر في الأمر. هل تُحب أن يكون اسمك موسى؟») لذلك قام باختصاره إلى مو، الذي أعطى انطباعًا بـ «الفحولة»، ولازمَه هذا الاسمُ منذ ذلك اليوم.

واسمُ الخال دوك الحقيقي هو يونس!

سألته: «وكيف تغيَّر اسمك من يونس إلى دوك؟».

قال: «لقد أحببتُ القوارب مذ كنتُ طفلًا، ولكن في يومٍ قال لي بحَّارٌ طاعنٌ في السن: إن اسم يونس ليس اسمًا مناسبًا لبحَّار؛ لأن يونس في الكتاب المقدَّس قد جلَب الحظَّ العاثر على صُحبته في البحر. تعرفين هذه القصة، أليس كذلك؟ وكيف أن يونس قد أغضب الرب، فأرسل الربُّ ريحًا عاتية ...»

أضاف براين: «وحينها التقَم الحوتُ يونس.»

«نعم، نعم، نعم. لذا قال البحار العجوز إن اسم يونس غيرُ مناسب لي، وبدأ يَدْعوني دوك؛ لأنني كنتُ دائمَ التسكع في الموانئ طوال اليوم؛ ودوك (dock) كلمة إنجليزية تعني رصيفَ الميناء.»

مالَ براين عليَّ وقال: «ولكن لا يزال اسمه الحقيقي يونس، فهل تعتقدين أنه سيجلب لنا سوءَ الحظ؟»

قلت له: «براين، يُمكنك في بعض الأحيان أن تحتفظ بأفكارك لنفسك.»

حينئذٍ بدأ ينتابني القلق من أن يُغضب أحدٌ منا الربَّ فيُرسل علينا ريحًا عاصفة، وبدا ذلك حقًّا أمرًا مقلقًا لي بشكلٍ مُبالَغ فيه؛ لذا استعضتُ عن ذلك بالتفكير في الأسماء. تساءلتُ عمَّا إذا كان لكلِّ شخص من اسمه نصيب حقًّا، وكيف أن الأسماء المختلفة توحي بأشياء مختلفة، مثل كيف أن براين يليق باسمه، وكودي يليق باسمه، وأنا أليقُ باسمي، صوفي، وما معنى صوفي بالتحديد على أيِّ حال؟

ثم بدأتُ أفكر في بومبي، وعلى الرغم من أنني أعلم أن اسم بومبي ما هو إلا اسمٌ مستعار، فقد أدركتُ أنني لا أعرف اسمَه الحقيقي. سوف أذهب لسؤال أحدهم الآن.

الفصل الثامن عشر

بومبي والقطار

كودي

اليوم بينما كنتُ متذمرًا من كوننا عالقين في جراند ماناان، قالت صوفي: «لقد قال لي بومبي شيئًا. قال لي لا يهمُّ أين نذهب، ما يهم هو كيف نذهب إلى هناك.»

قلت لها: «حسنًا، نحن لسنا ذاهبين إلى أيِّ مكان، أليس كذلك؟»

قالت: «بالتأكيد نحن في مكانٍ ما!». وأضافت: «نحن الآن هنا على هذه الجزيرة الرائعة. لقد قمنا بصيدِ سرطان البحر، وسوف نذهب لجمع المحار. كلُّ هذا جزءٌ من الرحلة! نحن رحَّالة!»

لا أستطيع فَهْم صوفي. فبإمكانها أخذُ أصغرِ الأشياء، مثل مصيدة سرطان البحر، والاقتراب منها وطرحُ ملايين الأسئلة عنها، ثم تريد أن ترسمها وتلمسها وتشمَّها، حتى إنك قد تعتقد أنها كانت حبيسةَ قفصٍ طيلة حياتها وأُخرِجَت منه للتو، وتكتشف كل هذه الأشياء الرائعة من حولها.

وأصدُقُكم القول، لم أكن أرى سرطانات البحر ولا مصائدها أشياء مدهشة إلى هذا الحد، إلا عندما تحمَّسَت صوفي لها هكذا. لقد استمرَّت في إخبارنا كيف أنها قد تُصبح صيادةً لسرطان البحر، أو ربما ستعملُ في تشييد القوارب. عندما تستمع لحديثها تبدأ في التفكير في أنَّ مثل هذه الحياة قد تكون رائعةً وبسيطة.

ثم تستمع إلى براين، الذي يقول إن مثل هذه الحياة ستكون بشعةً في فصل الشتاء، وماذا لو لم تنجح في اصطيادِ أي شيء، وماذا لو قمت ببناءِ قارب ثم غرق؟

عندما أستمع إليهما، أشعر بالحيرة.

لقد بدأتُ أشعر بشيءٍ آخَر أيضًا. أظن أن صوفي تخشى الماء. لكنه مجردُ إحساس.

لا يزال براين يُثير ضيقَ صوفي. فبينما كنا نجمع المحار، قالت صوفي إنها عندما كانت تقوم بجمع المحار مع بومبي مرةً، وجدا المحار باستخدام أصابع أقدامهما وليس باستخدام مدمة جمع الأعشاب. فقال براين: «هذا كذب. فأنتِ لم تذهبي لجمع المحار مع بومبي قط من قبل.»

قالت صوفي: «بل قد فعلنا.»

قال براين: «لم تفعلا.»

قالت صوفي: «بل فعلنا.»

استخدمنا الهاتف ليلةَ أمس. وكان هذا غريبًا. اتصلَ أبي بأمي ووبَّخها قليلًا قبل أن يُعطيني الهاتف. قالت بصوتها الخفيض: «كودي؟ حبيبي كودي؟ يمكنُك تغييرُ رأيِك إذا شئت. يمكنك العودة إلى الديار.»

قلت: «ولماذا سأرغب في العودة؟». لم أقصد أن أتكلم بهذا الأسلوب الجاف، لكني أعتقد أنها اعتبرَته كذلك؛ إذ أجهَشَت بالبكاء. قلتُ لها: «اسمعي يا أمي. كل شيء على ما يُرام. نحن جميعًا بخير. أبي ينام كثيرًا؛ لذا فهو لم يعُدْ يُزعجني كثيرًا مؤخرًا.»

لم تكن هذه هي الحقيقةَ بالضبط، لكن أمي لا تُحب سماعَ الحقيقة. ما زلتُ أتساءل لماذا دعاني أبي لهذه الرحلة من الأساس. كان بإمكانه الذَّهابُ بمفرده، وحينها كان سيقضي شهرًا كاملًا أو أكثرَ بعيدًا عني. بلا مضايقات على الإطلاق!

من فوائد أن نكون عالقين على اليابسة الآن هو عدمُ تلقِّينا دروسَ براين المليئة بالتُّرَّهات.

لكن صوفي قصَّت علينا حكايةً أخرى من حكايات بومبي عندما كنا نجمع المحار. كانت القصة كالآتي:

عندما كان بومبي في نفس عمري تقريبًا، كان يعيش بالقرب من نهر أوهايو، في مكانٍ كان فيه النهر عميقًا جدًّا، وكان عرضه يبلغ ميلًا. كان يقطع النهرَ خطٌّ للسكك الحديدية، وكان مُخصصًا للقطارات فقط، وكان المكان يعجُّ باللافتات التحذيرية من السير على هذا المسار؛ حيث لا يوجد منفذٌ للهرب حالَ مرور أحدِ القطارات.

وفي يومٍ من الأيام أراد بومبي عبورَ هذا النهر. كانت لديه رغبة شديدة في الذَّهاب إلى الجهة الأخرى. كان الجوُّ عاصفًا وممطرًا، ولم يشأ أن يسير مسافة ميلين حتى يبلغ جسر المشاة. لذا بدأ بالسير على خط السكك الحديدية.

يجب أن تسمع صوفي وهي تروي هذه الحكاية. تشعر وكأنك هناك مع بومبي، تنظر للأسفل إلى ذلك النهر وتهبُّ الرياح في وجهك، وتتساقط قطرات المطر على عنقِك وداخل قميصك.

ظلَّ بومبي يسير عبر الجسر حتى وصل إلى منتصفه، تخيَّل ماذا سمع؟ حسنًا، لقد توقَّعت ما سيسمع في اللحظة التي قالت فيها صوفي إنه سيسير على خطِّ السكك الحديدية. لقد سمع صوت القطار. وصفَت صوفي القطار وهو قادم بصوته الهادر مِن بعيد، وكان بإمكانك الشعورُ بالاهتزازات على القضبان، ورؤيةُ بومبي ينظر إلى الخلف وهو يعلم أن القطار على وشك الظهور في الأفق، واجتياز المنحنى في أي لحظة.

كان بومبي في منتصف الجسر. بدأ في الركض تجاه نهاية الجسر، وهو يقول لنفسه: «أسرع، أسرع!»، لكن الصخور الموجودة على جانب القضبان كانت زَلِقة، ووجد صعوبةً في الاحتفاظ بتوازنه، ولم يستطِع أن يُسرع. اقترب القطار، وتعالى صوته الهادر أكثرَ وأكثر، وشعر بومبي بتلك الاهتزازات حتى وصل القطارُ الكبير الأسود، مندفعًا بقوة إلى المنحنى، وكان في طريقه إلى الجسر ذي الحوامل.

أدرك بومبي أنه لن يستطيع أن يصل إلى الجانب الآخر في الوقت المناسب. فتسلَّق حافَةَ الجسر، وضغط جسده بين الدعامات الصُّلبة حتى خرَج وتدلَّى بجسده من جانب الجسر. كانت المياهُ موحِلةً وبُنِّية اللون، وكانت بعيدةً جدًّا وتدور في دوَّامات.

وجاء القطار بصوته الهادر المرتفع مندفعًا في اتجاه بومبي، ثم قفز وسقط عميقًا في المياه ذات الدوامات.

حينئذٍ توقَّفَت صوفي عن الكلام ونظرت إلى كلٍّ منَّا.

تساءلنا جميعًا: «حسنًا؟». وأردفنا: «حسنًا؟ وماذا حدث بعد ذلك؟»

قالت صوفي: «تكبَّد بومبي مشقةً بشعة. فقد غاص في ذلك النهر العميق الموحِل. وأدرك أنه هالك لا محالة.»

سألنا: «حسنًا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟».

روَت كيف أن بومبي صعد أخيرًا إلى سطح المياه، وكان مسرورًا جدًّا لرؤية السماء حتى إنه استلقى طافيًا على ظهره على سطح المياه وهو يبكي ويضحكُ في آنٍ واحد، وكان التيار يدفعه عبر النهر، فطَفا وشاهد القطار وهو يمر، وأخيرًا انقلب وبدأ في السباحة كالمجنون، وأخذ يسبح ويسبح حتى وصل إلى الشاطئ.

وعندما عاد إلى المنزل، جلَده والدُه لابتلال ملابسه واتِّساخها بالطين، بينما أعطته والدتُه فطيرة تفاح.

عندما انتهت من سردِ هذه القصة، قال براين: «أظن أنك قلت إن براين تَرعرع في إنجلترا.»

قالت صوفي: «لم أقل ذلك. قلتُ إنه وُلِد في إنجلترا. لكنه غادرها عندها كان صغيرًا جدًّا. في سن الخامسة على ما أظن.»

قال براين: «هاه!».

قالت صوفي: «ألا تعرف أي شيء عن جدك؟».

الفصل التاسع عشر

وود آيلاند

صوفي

لم أعُد أعرف في أيِّ يوم نحن.

يا إلهي الرحيم! إن اسم بومبي الحقيقي هو يوليسيس! على الرغم من أن جميع أفراد العائلة يَدْعونه بومبي، يبدو أن بعضًا من أصدقائه يَدْعونه باسمه الحقيقي. من الصعب عليَّ تخيُّلُ ذلك. يوليسيس؟

ما زلنا على جزيرة جراند ماناان، وأحيانًا أتوق بشدة إلى الإبحار مجددًا، ولرؤية بومبي (يوليسيس!)، ولكن في أحيان أخرى، تسحرني هذه الجزيرة والحياة هنا، وأنسى أن الوقت يمرُّ أو أنني عشتُ يومًا ما في مكان آخر، أو أن لديَّ مكانًا آخر لأذهب إليه.

أمس، قابلتُ أنا وكودي سيدةً طويلة ونحيلة كانت بصحبة كلبها الجيرمان شيبرد. أخذَتْنا لنرى كوخَها الذي يقع في وسط مجموعة من الأشجار الخفيضة. كان كوخًا صغيرَ الحجم به غرفةٌ واحدة بلا ماء أو كهرباء.

قالت: «لقد بنيتُه بنفسي.»

سألتُها: «أتقصدين كلَّ شيء؟». وأردفتُ: «أتقصدين أنك وضعتِ الأساس وقمتِ بتثبيت الألواح بالمِطرقة، كيف فعلتِ ذلك؟ وسقف الكوخ؟ والنوافذ؟»

قالت: «تمهَّلي. إنك تسألين كثيرًا من الأسئلة.»

أردتُ أن أكون مِثل هذه المرأة. تخيَّلت نفسي أعيش في هذا الكوخ مع كلبي. بالنهار، أصطاد سرطان البحر وأجمع المحار.

سألتُها: «ألا تشعرين بالوحدة هنا؟».

«الوحدة؟ ها! الوحدة؟ لا أشعر بها مطلقًا. لديَّ كلبي، وعندما أريد رؤية الناس ما عليَّ إلا أن أذهب إلى الميناء. وعندما أريد هدوءًا حقيقيًّا، أذهب إلى وود آيلاند.»

أخبرَتنا أن وود آيلاند تبعد نحو عشرين دقيقةً من سيل كوف بالزورق. قالت: «المنازل القليلة الموجودة هناك مهجورة، ولا يوجد الآن سوى بضعةِ رُهبان، وأشباح ...»

قال كودي: «أشباح؟». وأردف: «أتقصدين أشباحًا حقيقيين؟» وبدا عليه الاهتمامُ الشديد بما قالته.

قالت: «إممم. وما الأشباح الحقيقيون بالضبط؟»

قالت إن أحد الأشباح يتجسَّد في رجلٍ عجوز يجوب الجزيرةَ مرتديًا مِعطفًا أسود للمطر وقبعةً سوداء، والشبح الآخَر يتمثل في سيدةٍ تحمل رضيعها، تجوب الجزيرة وتُغني أغانيَ مخيفة.

سألتها: «لماذا هم هناك؟».

أجابت المرأة: «ماذا تقصدين؟».

«أقصد لماذا توجد هذه الأشباحُ هناك وليس هنا مثلًا؟»

قالت: «لديكِ بالتأكيد كثيرٌ من الأسئلة يا عزيزتي!». لكنها بدَت مستغرِقةً في التفكير؛ لأنها كانت تومئ برأسها وتحنيه. وأخيرًا قالت: «تعود هذه الأشباح إلى المكان الذي كانت تعيش فيه في السابق. ربما نسيَت شيئًا في هذا المكان.»

أعجبتني فكرةُ أن الأشباح قد تعود لتطمئنَّ على شيء تركَته خلفها.

ركبتُ أنا وكودي الزورقَ اليوم بحثًا عن الأشباح والرهبان. كان الضباب كثيفًا مثل الدُّخان، وما إن صِرنا على بُعد أربعمائة قدم عن الحاجز حتى حجَب الضباب رؤيتَنا لليابسة تمامًا. أخَذْنا معنا بعضَ مستلزمات الطوارئ؛ بوصلة وكشَّاف وثلاث عُلَب من المشروبات الغازية ونصف كيس من الحلوى. شربنا المياه الغازية ونحن في الطريق، وأكلنا الحلوى خلال الدقائق الخمس الأولى من رُسوِّنا على جزيرة وود آيلاند.

لا توجد طرُق في وود آيلاند، فقط مسارات بين المنازل المهجورة. غير أننا وجدنا كنيسة، تم كنسُها وتنظيفها جيدًا، ويوجد على المذبح زهورٌ برِّية نضرة وشموع.

قال كودي: «ربما تأتي الأشباح إلى هنا وتُنظف المكان.»

جثَوتُ على رُكبتيَّ، وأخذتُ أُردد صلاةً قصيرة من أجل بومبي ووالديَّ وأسرة القارب، ورحلتنا عبر المحيط.

قال كودي: «لأجل ماذا تُصلين؟» وعندما أخبرته جثا على رُكبتَيه وأغمض عينَيه، وأعتقد أنه ردَّد صلاةً قصيرةً هو الآخَر.

في أحد المنازل المهجورة عثر كودي على عِقدٍ من الخرَز مُتشابِك ومكسور.

قال كودي وهو يُهدي لي الخيط المتشابك والخرَز المفكوك بكل احترام: «هذا لكِ. ربما يكون بإمكانك أن تُعيدي نَظْم الخرَز؟»

عندما وضع الخرز في يدي وجدتُه دافئًا، وشعَرتُ كما لو كان هناك أشخاص آخَرون معنا في المنزل، ربما كانوا أشباحًا، وتساءلت عمَّا حدث لهم، وإذا كان هذا العِقدُ هو كلَّ ما تبقَّى منهم؟

مضينا على أمَل العثور على أحد الأشباح أو الرُّهبان، ولكن الأشخاص الوحيدين الذين رأيناهم كانا رجُلَين يُشيِّدان منزلًا في الجهة المقابلة للكنيسة. نادانا واحدٌ منهما. قال: «أعتقد أن ملابسكما لن تجفَّ في هذا الطقس، أليس كذلك؟»

قال كودي: «نعم؟ ماذا تقصد؟».

قال: «على قاربكما، في الميناء هناك، ملابسُكما مُعلَّقة على حبال الأمان. سوف يَحول هذا الضبابُ الكثيف دون جفاف الملابس، أليس كذلك؟»

سأله كودي: «وكيف عرَفت أن ذلك القارب هو قاربُنا وتلك الملابس ملابسنا؟».

ضحك الرجلان. «لا يوجد كثير من الغرباء في هذه الأنحاء.»

اعتبر كودي أنهما يدسَّان أنفَيهما فيما لا يَعنيهما، أما أنا فقد راق لي أنهما لاحَظا أننا كنا هناك. فهذا يعني أننا كنا مرئيَّين.

توجَّهنا إلى وسط الجزيرة، بين الطحالب والأوراق والأشجار المتعفِّنة. كان الأمر أشبهَ بالسير وسط الجليد. انغمسَت أقدامنا في الأرض الرَّطبة، وبين الحين والآخَر تخترق أقدامُنا مستنقَعاتٍ موحِلة.

كان الهدوء والسكون يُخيمان على المكان. كانت السماء مفتوحة، لا توجد أسلاك كهرباء ولا أسلاك هواتف ولا مصابيح فلورسنت في الشوارع. لم نسمع سوى تغريد الطيور، ولا وجود لأصوات سيارات ولا ضجيج جزازات العُشب. بدأتُ أتخيل نفسي أعيش على الجزيرة. يمكنني إصلاحُ أحد هذه الأكواخ والعيشُ هناك بصحبة كلبي، وربما يعود كلُّ الأشخاص الذين عاشوا هنا من قبل، واحدًا تِلو الآخَر، لِشَغل منازلهم وإثراء حياتهم من جديد.

قبل غروب الشمس بقليل، غادَرْنا وود آيلاند. كان الضباب أكثرَ كثافةً، ولا يكاد يُمكننا رؤية مسافة عشرين قدمًا أمام مقدمة الزورق. لم أستطِع أن أتخيل كيف سنجد طريق العودة، وانتابني شعورٌ مفاجئ بالذعر وكأنَّ الضباب يخنقني.

قال لي كودي: «تنفَّسي بعمق!». وأردف: «لا تقلقي، لديَّ البوصلة! القائد بوصلة في خدمتك!» وقام بتبديل الأماكن معي. ثم قال: «قومي أنتِ بالتجذيف، وأنا سأوجِّهك. انعطفي يسارًا قليلًا، لا، ليس في هذا الاتجاه؛ فاليمين بالنسبة إليكِ هو اليسار بالنسبة إليَّ، حسنًا الآن إلى الأمام، أسرعي، توقَّفي، القارب ينحرف، حسنًا انعطفي يمينًا قليلًا، لا، اليسار بالنسبة إليكِ هو اليمين بالنسبة إليَّ ...»

لم أرَ سوى ضباب، ضباب، ضباب. الضباب يجعل المحيط يبدو أصغر. تشعر كما لو كنتَ في دائرةٍ صغيرة من السديم والماء.

قال كودي: «اهدئي، نحن بخير، نحن في المسار الصحيح. إلى الأمام!»

أخذتُ أجدف على نحوٍ أقوى وأسرع حتى لا نختفي. وأخذنا نتقدَّم ونمضي وسط الضباب، حتى صاح كودي أخيرًا: «أهوي! حصن!»

وها نحن عُدنا إلى مدخل الحاجز. عُدنا سالِمَين. إن كودي على دراية ببعض الأشياء رغم كل شيء.

عندما وصلنا إلى المَرسى، كان الخال مو وبراين والخال ستيو بصحبة أحد الصيادين على قاربه، يستعدُّون للذَّهاب للبحث عنا.

سأل الخال مو: «أين كنتما بحقِّ الجحيم أيها الأحمقان؟».

أجاب كودي: «في وود آيلاند، حيثما قلنا إننا سنكون بالضبط.»

«هذا الرجل يقول إنه كان هناك، ولم يرَ أيَّ أثرٍ لكما. أليس هذا صحيحًا؟»

أومأ الرجل برأسه. «نعم، هذا صحيح. كنتُ هناك طَوال النهار ولم تكونا هناك.»

قال كودي: «بل كنا هناك. كنا نستكشف المكان.»

يبدو أن الصياد قد أخبر الخال مو عن ذلك التيار الذي سُرعته أربعُ عُقد، الممتد بين وود آيلاند وجراند مانان، وأطلعَه على خريطة، وأوضح له كيف أننا سننجرفُ بعيدًا عن جراند مانان في خليج فندي، متجمِّدَين وجائعَين، وعلى وشك أن تدهسنا إحدى سفن الشحن.

قال كودي: «حسنًا، لم يكن الأمر كذلك. لم نضلَّ الطريق، ولم ننجرف أو نتجمَّد أو نتضوَّر جوعًا أو تدهسنا سفينةُ شحن.»

قال الخال مو: «كان من الممكن أن يحدث ذلك.»

قال كودي: «لكنه لم يحدث.»

ظلِلتُ جالسةً هنا أفكر. أتساءل كيف كان من الممكن بسهولة ألا تسير الأمورُ على ما يُرام، وماذا لو كنا انجرفنا إلى خليج فندي، وماذا لو، وماذا لو، وماذا لو ...؟

وأتساءل لماذا لم أقلق بشأن هذه الأشياء مسبقًا. ربما كان ذلك لأنني لم أكن أعرفُ شيئًا عن التيار الذي تبلغ سرعتُه أربعَ عُقد، ولم أكن أعرف الأشياء السيئة التي كان يمكن أن تحدث. تساءلت عمَّا إذا كان من الأفضل معرفةُ الأشياء السيئة مقدمًا والقلق منها، أو ما إذا كان من الأفضل عدمُ معرفتها حتى يمكنَك الاستمتاعُ بها.

كان عقلي يموج بهذه الأفكار ويُثير قلقي. سوف أتوقَّف عن التفكير في هذه الأشياء.

الفصل العشرون

الطفل الصغير

كودي

تهوى صوفي الاستكشاف؛ لذا كنا نجوب المكانَ من حولنا، حتى إننا تخلَّصنا من براين مدةً كافية حتى يتسنَّى لنا ركوبُ الزورق إلى وود آيلاند. عندما كنا في أحد المنازل المهجورة، أرادت صوفي أن تلتقط كلَّ شيء تراه ولو كان صغيرًا، كما لو كانت كلُّ قطعة صغيرة من القُمامة كنزًا أو مِفتاحًا لحلِّ لغزٍ ما. «مَن تظنُّه امتلك هذا؟ وما سببُ رحيلهم في اعتقادك؟»

ثم غرزَت أصابعها في الجدران وقالت: «بإمكاني العيشُ هنا. إذا اضطُررت إلى ذلك.»

لاحقًا، بينما كنا نستكشفُ وسط الجزيرة، شعرتُ كأنَّ الأشباح تحوم حولنا. كان شبح السيدة التي تحمل طفلها يتتبَّعُنا عبر الغابات، وظللتُ أسأل صوفي إن كانت تراهم، لكنها نفَت ذلك.

قالت: «أنا لا أومن بالأشباح. أعتقد أن كلَّ هذا في ذهنك.»

مضَينا عبر المسار المليء بالطحالب. استجمعتُ شجاعتي. وقلتُ لصوفي: «هل لي أن أسألك عن شيءٍ يتعلق بوالدَيكِ؟»

أجابت: «بكل تأكيد.»

«ماذا حدث لهما؟»

لم تتوقَّف، ولم تتردَّد، ولم ترتبك حتى. بدا الأمر كأنها قد تدرَّبَت على الإجابة نفسِها مع العم دوك. قالت: «لم يحدث لهما أيُّ شيء. لقد عادا إلى كنتاكي ...»

قلت: «لا أقصد هذَين الأبوَين. أقصد أبوَيك الآخرَين ...»

قالت: «لقد عاد والدايَ إلى كنتاكي. أتريد أن نتسابقَ حتى تلك الصخرة بالأعلى؟» وانطلقَت راكضة.

ماذا حلَّ بها؟

عندما وصلنا إلى الجانب الآخر من الصخرة، بدأَت في الحديث عن ذلك الطفل الصغير الذي تعرفه. قالت إن هذا الطفل الصغير قد عاش في أماكنَ كثيرة.

سألت: «كم عددُها؟».

«كثيرة إلى أقصى حد. بعضُ هذه الأماكن لم يكن جيدًا.»

«وأين والدا الطفل الصغير؟»

«في مكانٍ آخر. لذا كان على الطفل الصغير العيشُ مع أشخاصٍ آخَرين. في الواقع لم يكن هؤلاء الأشخاصُ يريدون هذا الطفلَ الصغير. فقد كان الطفل الصغير دائمًا عقَبةً في طريقهم. أتريد أن نتسابق حتى الطريق الذي هناك؟ حتى تلك الشجرة الصغيرة؟»

عندما عُدنا، كان أبي مستغرِقًا في نوبة من الغضب العارم، وأخذ يصف كيف أننا لسنا مسئولين، وأنه كان من الممكن أن تسحبَنا المياه في المحيط وكل هذا الهُراء. من المستحيل ألا يوبِّخني ويصرخ في وجهي. بدأتُ أشعر بالغضب فعليًّا، إلا أن صوفي جذبَتْني من ذراعي، وهمسَت لي قائلةً: «على الأقل كان قلقًا عليك.»

قلت: «إن لديه طريقةً غريبة لإظهار هذا القلق. كل هذا الصُّراخ وما شابه.»

وأمطرَني براين بوابل من الأسئلة. أراد أن يعرف أين كنَّا، وكيف ذهبنا إلى هناك، وماذا رأينا هناك، ولماذا لم نُخبره أننا ذاهبان، وهل كنا نشعر بالخوف هناك، وماذا لو كنَّا ضللنا الطريق، ونحو ألفِ سؤالٍ آخر على هذه الشاكلة.

شعَرتُ بالاستياء لأننا لم نَدْعُه ليأتيَ معنا، لكنه بعد ذلك قال إنه سيضعُ قوائمَ بما يفعله كلُّ واحد منَّا يوميًّا؛ حتى يتسنَّى لأحدنا أن يعرف مكانَ الآخرين.

سألتُه: «ولماذا سنريد أن نعرف ذلك؟».

قال: «لماذا! لأننا يجب أن نعرف أين الآخَرون، ألا تعتقد ذلك؟ حالَ ضلَّ أحدٌ الطريق أو أصابه مكروه أو شيء من هذا القبيل. إذا لم يَعُد، فسيعرف أحدٌ أنه مفقود، وسيعرف المكانَ المُفترَض وجودُه فيه ...»

قلت: «أنت شخصٌ قَلِق.»

قالت صوفي: «لكنه مُحقٌّ.» والتفتَت إلى براين. «إنها فكرة جيدة يا براين.»

احمرَّ وجهُ براين بشدة، وسار في تهدُّج وقد بدا مسرورًا بنفسه كثيرًا.

قلت: «يا إلهي. أتعتقدين أن هذا الأحمقَ لديه أفكارٌ جيدة يا صوفي؟»

«إذا كان يريد أن يعرف مكانَ الجميع، فهو إذن مهتمٌّ بما يحدث لنا. نحن مهمُّون لديه.» ثم استدارت وتوجَّهَت إلى السور وحدَّقَت في الماء، وانتابني شعورٌ بالحزن لم أشعر به في حياتي قط.

الفصل الحادي والعشرون

المعمودية

صوفي

البحر، البحر، البحر. إن أمواجه تتلاحق وتُناديني. إنه يقول «اقترِبي مني، اقتربي مني».

يتوقَّع الخالُ دوك أن يكون غدٌ أو اليومُ التالي هو يومَ الرحيل. إنه يقول: «لم يتبقَّ إلا إصلاحُ أشياءَ قليلة.» أشعر بأنني ممزَّقة، كما لو كان هناك شيء يدفعني ويجذبني. أنا على استعدادٍ أن أبقى للأبد في جراند مانان، ولكن البحر يُناديني.

ذهبتُ هذا الصباحَ بصحبة كودي وبراين إلى مكانٍ تُبنى فيه القوارب، حيث سمح لنا الرجلُ الذي يمتلك المكانَ بالتجوُّل فيه واستكشافه. إنه يعتمد في عمله على الزجاج الليفي

في الغالب، ويستخدم يدَيه لوضع كلِّ شيء، حتى طبقة الهلام. بل إنه يصنع زوارقه بنفسه، وهي رائعةٌ جيدة. اعتقدتُ أنني أعرف شيئًا عن الزجاج الليفي بسبب تصنيعي لصندوق الماء الآسِن الذي أسمَيناه بادي، لكني أكاد لا أعرف شيئًا.

«انظري إلى هذا»، شعر براين أنَّ عليه ذِكرَ ذلك. «لا توجد أيُّ فقاعات على الإطلاق.»

قلت: «حسنًا، إنه يعمل في هذا المجال منذ مدةٍ أطولَ مني.»

علَّمَني الرجل بعضَ الحِيَل، مثل كيفية استخدام أسطوانات الفرد لوضع الصمغ وطبقة الهلام، وكيفية استخدام البلاستيك المستخدَم في التغليف على المساحات الصغيرة حتى تظلَّ الطبقاتُ بالأسفل ناعمة.

قال براين: «هذا هو ما كان حريًّا بك أن تفعَليه مع صندوق الماء الآسن.»

قلت: «أنا لم أكن أعرفُ ذلك وقتَها، هل تظنُّني كنتُ أعرف؟». ها قد بدأ براين في إزعاجي.

سألني براين: «أنتِ لا تُحبينني، أليس كذلك؟»

انتابني شعورٌ سيئ للغاية. قلت: «لم أقل ذلك قط.»

«لا بأس إن كنتِ لا تُحبينني. فلا أحد يحبُّني.» ووقف هناك مثل الدُّمية، هزيلَ الأطراف.

كان كودي يشاهد هذا الموقف مستمعًا فحسب، دون أن يقول أيَّ شيء.

قال براين: «لا أعرف لماذا لا يُحبني أحد.»

كنتُ أتمنى في قرارة نفسي ألَّا يسألني عن الأسباب، عندما تحدَّث كودي فجأةً.

قال كودي: «ربما يتعلق الأمر بالقوائم التي تُعدُّها، وكيف أنك دائمًا ما تُملي على الآخرين ما عليهم أن يفعلوه، ودائمًا ما تتصرف كأنَّ لدَيك حلولًا لكل شيء مهما صغر، و...»

عقد براين ذِراعَيه حول صدره بقوَّة. وقال: «لم أُوجِّه لك حديثًا. لا يَعنيني ما تعتقده»، واستدار وغادر المبنى، سائرًا بخطواتٍ واسعة بطريقته المهتزَّة المتعثِّرة.

قال كودي: «حسنًا، لقد استحق ذلك.»

جعلَنا الخال دوك جميعًا نذهب إلى احتفالِ معموديَّة حفيد فرانك في وقتٍ لاحق من اليوم. بقي براين بعيدًا عني أنا وكودي قَدْر المستطاع. لم أكن راغبةً في الذَّهاب على الإطلاق؛

لم أكن متحمسةً تمامًا، لكنني لم أذهب إلى احتفالِ تعميدٍ قَط، وعندما انتهى الاحتفال، كانت عينايَ جاحظتَين من فرطِ الذهول.

خاض الناس في المياه حتى خُصورِهم وهم يرتدون عباءاتٍ تُشبه إلى حدٍّ ما عباءاتِ التخرج بصحبة قَس. غمرهم القسُّ بالكامل على ظهورهم في المياه الشديدة البرودة، فأحدثَت أجسامُهم صوتَ ارتطام بالمياه. بدا كما لو أن القسُّ يحتجزهم أسفلَ المياه، فماذا لو عجزوا عن التنفُّس، وماذا لو أبقاهم أسفلَ المياه أطول مما ينبغي؟

بينما كان القسُّ يغمر الناسَ في المياه، كان المُشاهدون يُردِّدون ترنيمةَ «نعمة مدهشة» (أمازينج جريس)، وقد جعلَتني هذه الترنيمةُ في حالةٍ من التجمُّد التام. أين سمعتُ هذه الأغنية من قبل؟ في جنازة؟ كان حَلْقي مسدودًا تمامًا، وكأنَّ شيئًا عالقٌ به، مثل جورب كبير. أصبحَت الرؤية باهتةً ومشوَّشة، فقال لي الخالُ دوك: «صوفي؟ صوفي؟ من الأفضل أن تجلسي. أريحي رأسَكِ ...»

في الطريق إلى منزل فرانك للاحتفال بالتعميد، خرج براين عن صمته ليُعرفنا أنَّ غَمْر الناس في الماء يتمُّ من أجل تطهيرهم من جميع خَطاياهم لكي يبدَءوا حياةً جديدة كأشخاصٍ جُدد أطهار تمامًا. أخذتُ أفكر وأفكر في ذلك، وتخيَّلت شخصًا شديدَ القذارة يُغمَر في المياه، وإذا به في لمح البصر يخرج منها كالملاك من شدةِ بياضه ونقائه. دارت هذه الصورةُ في رأسي مِرارًا حتى بدأتُ أشعر بالدُّوار والوهن مجدَّدًا.

قال الخال دوك: «تفضلي. تناولي بعضًا من هذا. ربما لم تتناولي ما يكفي من الطعام اليوم»، وقدَّم لي بعضًا من حساءِ فواكه البحر والمحار المقلي وشطائر سَلطة سرطان البحر وسلطة البطاطس، ونوعَين من كعك الجبن وكعكة الجزر وخبز الموز. أكلتُ قَدْر ما استطعتُ إلا أنني تقيَّأتُ كلَّ هذا.

قال الخال دوك: «ربما تكونين مصابةً بالإنفلونزا»، وأعادني إلى القارب.

نمتُ قليلًا ثم استيقظتُ عندما دخل براين وكودي.

قال براين: «أتمنَّى ألا يكون هذا هو العشاءَ الأخير.»

صاح كودي: «اسكت!». وأكمل: «أنت دائمًا ما تفسد مُتعتَنا. لماذا تتوقع الأسوأ دائمًا؟ ما الذي تُحاول فِعله؛ جَلْبَ النحسِ على رحلتنا؟»

قال براين هازئًا: «لو كان أفرادُ هذا الطاقم يعرفون حقًّا ماذا يفعلون لشَعرتُ بارتياحٍ شديد.»

«أنت أحدُ أفراد هذا الطاقم أيها الأحمق ...»
«أنا لستُ أحمق، بل أنت الأحمق!»

أصبحت أسرةُ قاربنا حسَّاسةً وعصبية. كلُّنا على استعداد للانطلاق، ولكننا بدأنا أيضًا في التفكير في المشاكل التي قد نُواجهها. الإفراط في التفكير ليس أمرًا جيدًا. علينا فقط أن نبدأ!

الفصل الثاني والعشرون

بومبي والقس

كودي

بدأتُ أفقد عقلي. ما زلنا هنا، ما زلنا في جراند ماناان، وعليها الآن إصلاحُ أشياءَ أخرى في القارب. هل هذا القارب صالحٌ للإبحار أم لا؟

صادفتُ أمس العمَّ دوك وصديقه فرانك يجلسان معًا على الشاطئ ويتحدَّثان. وبمجرد أن رأياني قال العمُّ دوك لفرانك: «الزَم الصمت. هذا يكفي.» وقام بالتلويح بيده في الهواء كما لو كان يهشُّ الذباب. قال لي: «ما الأمر يا كودي؟» أيًّا كان ما يتحدثان عنه، فهما لم يُريداني أن أسمعَه.

ثَمة شيءٌ آخرُ غريب؛ عندما عُدت إلى القارب الليلة ونزلتُ إلى أسفل، وجدتُ أبي راقدًا على سريره وهو يبكي. لقد كان أبي يبكي! كانت الدموع تنهمرُ على وجنتَيه.

سألتُه: «هل حدث شيءٌ ما؟».

لم يعبأ حتى بتجفيفِ وجهه. لم يقُل سوى: «لا. لم يحدث شيء. كلُّ شيء كالمعتاد.» هذا كلُّ ما قاله.

لم أرَ أبي يبكي مطلقًا طيلة حياتي. وفي مرة عندما كنتُ في الثامنة تقريبًا، عدتُ إلى البيت باكيًا لأني سقطتُ من على درَّاجتي، فقال لي أبي: «كُفَّ عن البكاء! لا يجب أن تبكيَ بسبب ذلك!» وعندما لم أتوقف عن البكاء، جُنَّ جنونه. صرخ في وجهي: «قلتُ لك توقَّف! توقف! توقف!» وخلع حزامه ولوَّح به في وجهي. «أتريد شيئًا لِتَبكي بسببه؟ سوف أعطيك سببًا ...»

تسلَّلَت أمي من الباب الخلفي على أطراف أصابعها، وعندما لمحَت الحزام حاولَت انتزاعَه، لكنَّ أبي كان رجلًا قويَّ البِنية، فانتزعه منها مرةً أخرى، وضرَبها به على ذراعها العارية مباشرةً. وبعد ذلك ألقى الحزامَ على الأرض وخرج غاضبًا.

ولم أبكِ أمامه منذ ذلك الحين.

قصَّت علينا صوفي حكايةَ تعميد بومبي. وكانت كالآتي:

كان بومبي في سنِّ المراهقة، ولم يكن قد عُمِّد، ورأت أمُّه ضرورةً مُلحَّة في تعميده؛ لذا اتفقتُ مع القس المحلي لتعميده في نهر أوهايو.

لم يكن بومبي والقسُّ على وِفاق؛ لأن بومبي كان يُواعد ابنةَ القس، وقد أوصلَها إلى المنزل في وقتٍ متأخر من الليل مراتٍ عديدة. لم يكن بومبي متحمسًا لفكرةِ أن يقوم هذا القسُّ بغمرِه في النهر.

وجاء اليوم الموعود، ونزل بومبي إلى النهر مع أسرته، وها هو القس يبتسمُ ابتسامةً عريضة مصطنَعة لبومبي، وجاءت لحظةُ غمرِ بومبي في المياه، فقام القس بغمر بومبي في النهر الموحِل ذي الدوَّامات، واحتجَزه أسفلَ المياه. وظل يحتجزه أسفلَ المياه. وظل هناك مدةً من الوقت. فبدأ بومبي يعجز عن التنفُّس، وشرَع يركل القس، ثم عضَّه في يده التي كان يضعُها على فم بومبي.

فأطلق القسُّ صرخة، وصعد بومبي إلى السطح.
سألها براين: «وبعد؟». وأردف: «ماذا فعل والد بومبي؟»
أجابَت صوفي: «قام بجلدِ بومبي لأنه عضَّ القس.»
سألتها: «وأمه؟». وأردفت: «هل أعطت بومبي فطيرةَ تفاح؟»
أجابت صوفي: «أعتقد ذلك.»

بكى أبي مجددًا اليوم.
سألتُه: «هل حدث شيء؟».
أجاب: «لا. لم يحدث شيء. كل شيء كالمعتاد.»

تذكَّرتُ للتو شيئًا آخرَ بخصوص قصة تعميد بومبي التي قصَّتها علينا صوفي أمس. عندما انتهت صوفي من سردِ القصة، قال براين: «هل سمعتَ تلك القصةَ من قبلُ يا أبي؟»
قال العم ستيو: «لا، لا يمكنني القول إنني سمعتُ بها من قبل.»
بدا براين فخورًا بشدة بنفسه، وبدا منتفخًا كأنما ابتلَع بِطِّيخة لتوِّه. قال العم دوك: «أنا أيضًا لم أسمع بها من قبل ...»
قال براين: «ما رأيك؟»
قاطَعه العمُّ دوك. «ولكن قصة القطار والنهر تبدو مألوفةً بالنسبة إليَّ، نعم. أعتقد أنني سمعتُها من قبل.»
أظن أن براين لم يَرُق له سماعُ ذلك، وكاد يختنقُ من الخجل.
قال العم ستيو: «حسنًا، أنا لم أسمع بها من قبل. لم أسمع بأيٍّ من هذه الحكايات من قبل ...»
قال العم دوك: «ربما تكون قد نسيت.»
«أنا لا أنسى أيَّ شيء!»
قال العم دوك: «ربما لم يُخبرك بومبي بها قَط.»
قال العم ستيو: «ولماذا سيخبرك أنت دوني؟» وبدأ وجهُ العم ستيو يحمرُّ بشدة. وأردف: «مو؟ هل سمعتَ بهذه القصة من قبل؟».
أجاب أبي: «لا.»
قال العمُّ ستيو: «أرأيت؟».

قال أبي: «ولكن قصة السيارة والنهر بدَت مألوفة.»
قال العم ستيو: «لا يخبرني أحدٌ بأي شيء أبدًا!».
وفي خِضمِّ كل هذا السجال، جلسَت صوفي بعيدًا تقذف عبوات الكعك المملَّح.

الإبحار

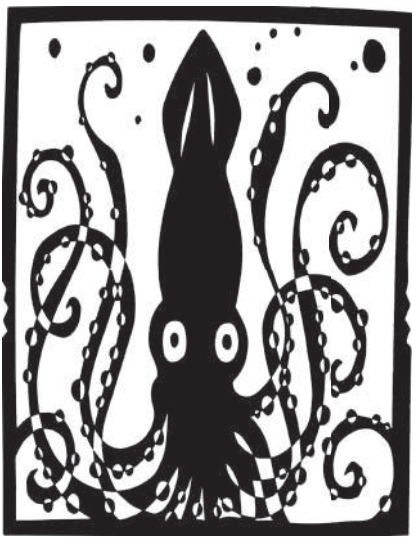

الفصل الثالث والعشرون

الانطلاق

صوفي

البحر، البحر، البحر!

جاء كودي ظُهرَ أمس من أقصى المَرسى راكضًا، وقال: «العم دوك يقول إنها ساعةُ الصفر. أعِدُّوا أغراضَكم. سنتحرَّك.»

قلت له: «أتقصد الآن؟ في هذه اللحظة؟».

قال وهو يبتسم ابتسامته العريضة: «نعم! سنتحرَّك الآن يا صوفي!».

أخذتُ أجهِّز أغراضي في عُجالة، ولم يكن لديَّ متَّسَع من الوقت لأفكر فيما كان يحدث أو في شعوري تجاهَه، لكن ها نحن ذا، ها نحن في الطريق! نحن ننطلق، لقد بدأت الرحلة!

ساد التوتُّر المكان في الساعات القليلة الأولى؛ إذ كان الجميع يتحقَّق بدقة من أغراضه، ويتشاجر بشأن الأماكن التي سنضعُها فيها، والخال ستيو وبراين يوزِّعان

المهامَّ والجداولَ الزمنية، ويبذلان أقصى جهدِهما ليجعَلاني أشعر بأنني فتاةٌ كَسولة بلا فائدة، لكني لم أعبأ بذلك، واحتفظتُ بهدوئي، ولم أحاول حتى أن أثيرَ ضيقهما.

بينما كنا نُغادر خليج فندي، سمعنا صوتَ شيء يتحرك في الماء، ثم تَكرَّر هذا الصوتُ مرارًا! كنا مُحاطين بعشرات الفُقمات، تُخرج رءوسها الجميلة من الماء لتُلقيَ نظرةً على ما حولها.

قال كودي: «مرحبًا يا عزيزاتي ...» بينما كانت الفقماتُ تُحرك شواربَها تجاهنا. حتى براين بدا منبهِرًا بها، لأول مرة لم يكن لديه تعليقٌ متسلِّط. فقد جلس على ظهر القارب يُشاهد الفُقمات مسنِدًا ذقنَه إلى يدَيه.

جلس الخال مو بالخلف يرسم. أُحبُّ رسوماته. لقد شرح لي كيف أن الفُقماتِ البعيدةَ يجب أن تظهر صغيرةَ الحجم في الرسم مقارنةً بالفقمات الأقرب. حاولتُ أن أرسمها أنا أيضًا، لكنَّ رسمي لم يكن بجمال رسم الخال مو.

سألته: «هل أنت رسَّام؟».

أجاب: «أنا؟». وأردف: «لا، لستُ رسَّامًا.»

قلت: «لكنك تبدو لي رسَّامًا. فأنت ترسم رسومات رائعةً حقًّا.»

قال: «لا. هذا الرسم ليس جيدًا بما يكفي. لقد صدئت موهبتي.»

سألتُه عن مهنته، عن عمله الذي يقتاتُ منه. فقطَّب جبينَه. وقال: «أنا محاسب. أجلس على الكمبيوتر طَوال اليوم وأعبث بالأرقام.»

سألته: «لكن هل أردتَ أن تكون رسَّامًا؟ أقصد قبل أن تُصبح محاسبًا؟».

أجاب: «بالتأكيد.»

«ولماذا لم تفعل ذلك إذن؟»

قال مو: «لماذا لم أفعل ماذا؟». كان يضع الشواربَ للفُقمات في رسمته.

«تُصبح رسَّامًا. لماذا لم تُصبح رسَّامًا بدلًا من أن تصبح محاسبًا؟»

استخدم إصبعه ليُلطخ خطَّ الماء في رسمته، جاعلًا إياه يبدو ناعمًا وضبابيًّا وأقربَ إلى شكل الماء. أظن أنه ربما لم يسمَعْني، لكنه قال لي أخيرًا: «لا أعرف. لماذا يصبح المرءُ أيَّ شيء؟»

سألت: «أليس لأنه يريد ذلك؟ ألا يصبح المرءُ ما يريد أن يصبح عليه؟».

نظر لي الخال مو. كان فمُه نصفَ مفتوح، وبدا أن على لسانه كلماتٍ يريد أن ينطق بها، لكنها أبَت أن تخرج من فمه. فأغلق فمَه وحاول مجددًا. قال: «ليس هذا ما يحدث دائمًا يا صوفي. ليس هكذا تسير الأمور في الغالب.»

«ولكن لماذا؟ لماذا لا يفعل الشخص ما يُجيده وما يرغب فيه؟»

كان الخال مو في هذه الحظة يرسم موجاتٍ صغيرةً حول الفقمات. قال: «لأن الشخص أحيانًا لا يحتاج إلا إلى وظيفة يا صوفي. وأحيانًا تكون الوظيفة التي يُمكنه الحصول عليها ليست هي التي يَصبو إليها.»

قلت: «حسنًا، أتمنى ألا يحدث ذلك معي. أتمنى ألا أعمل بوظيفة لا أحبُّها. يبدو الأمر لي خَسارةً كبيرة.»

قال الخال مو وهو يضع رسمته جانبًا: «آه. شباب.»

في الليلة الأولى، كان القمر يتوارى وراء السُّحب، وكان المشهد مخيفًا، فقد غشي الظلامُ الدامس كلَّ الأرجاء، وكانت السماء والبحر كدِثارٍ أسودَ ضخم يلفُّنا. لمحتُ بريقًا ووميضًا في الماء، ثم توالى ظهورُهما بكثرة، كانت كخيوطٍ واهية من الضوء تسير بجانب القارب، كما لو كانت هذه الأضواءُ إشاراتِ استغاثةٍ خاطفةً من شخص قد ضلَّ الطريق بالأسفل.

قال الخال دوك: «العوالق الفسفورية! إنها بديعة!».

على مدار الليل ظلَّت بُقَع صغيرة حول القارب من كل جانب تُصدر وميضًا كيَراعاتٍ تحت الماء. بدا الأمر سحريًّا وغامضًا، كما لو كانت يُرسلون لي رسالة مُشفَّرة. تملَّكَتني رغبةٌ شديدة في فكِّ شفرةِ رسالتها تلك، لكنني لم أستطِع، وتعرَّضتُ للتوبيخ لانشغالي الشديد بمشاهدةِ وميض العوالق، ولم أكن منتبِهةً إلى الأشرِعة.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، بينما كنا نخوض بالقارب في المحيط المفتوح، سمِعْنا اندفاعًا صاخبًا للمياه، وراحت تفيض وتُحدِث صوتًا عاليًا. إنها حِيتان! كان الظلامُ حالكًا فلم نتمكَّنْ من رؤيتها، إلا أنَّ أحدَها اندفع نحوَنا حتى أصبح على مَقربةٍ شديدة، حتى إنني تسلَّقتُ الصاريَ تقريبًا. كان يبدو من صوته أنه حوتٌ ضخم عملاق!

أحيانًا عندما أفكر فيما يحدث، تسري قُشَعريرةٌ باردة في جسدي. نحن نعبر المحيط! ولن نتمكَّن الآن من مغادرة القارب والتسكُّع. لا أشخاصَ جُددًا لمقابلتهم، لا أطعمةَ جديدةً لِتَجربتها، لا وقتَ أقضيه بمفردي، لا يابسة، لا ماءَ عذبًا، لا أشجار، لا تمارينَ رياضية باستثناء المهامِّ المَنوطين بها في القارب. وكيف سننسجمُ جميعًا معًا ونحن محتجَزون بهذا الشكل دون أيِّ فرصة ليبتعد أحدُنا عن الآخر؟

يُساورني القلق بشأن أن أكون محتجَزةً بصحبة الخال مو؛ لأنه غالبًا ما يكون صاخبًا جدًّا، ودائمًا ما يبدو هو وكودي على وشك أن يضرب أحدُهما الآخَر. ثم هناك

الخال ستيو وبراين، وهما دائمًا ما يوجِّهان الآخَرين، ويُثيران ضجةً بشأن كلِّ شيء، ويجعلاني أشعر بالدُّونية. الخال دوك هو الأهدأ، وهو أكثرُ شخص أشعرُ بالارتياح في وجوده، لكنه في بعض الأحيان يبدو غيرَ منظَّم وقلقًا للغاية بشأن ما قد يحدث، حتى إنني أتساءل عمَّا إذا كان سيسمح لنا حقًّا باستكمال الرحلة، أو أنه سيجعلنا نعودُ أدراجَنا عندما يجد أول تسرُّب للماء في القارب أو أيِّ كسرٍ بسيط.

لكن كلَّ هذه المخاوف تتبدَّد أمام هذا الشعور القوي الدافع، كما لو أن البحر يُنادينا والريح تدفعنا، وها نحن ذا ننطلق في طريقنا! وتشعر كما لو أن هذا هو المكان الذي يجب أن تكون فيه، وتتساءل إلى أين أنت ذاهب ولا يُمكنك حتى التفكير؛ لأنك قد أصبحتَ على الطريق!

بوووم! إنه هزيمُ الرعد! يوجد رعدٌ الآن! يُظهِر تقريرُ الطقس وجودَ برودة ورياح قوية، رائع! هذا سوف يُضفي بعض الحياة على القارب بالتأكيد.

الفصل الرابع والعشرون

برتقال وبيتزا

كودي

شيء لا يُصدَّق! نحن حقًّا في الطريق!

السماء تُمطر، ولكن ما الضَّير في ذلك؟ فالرياح مُواتِية، والإبحار مُيسَّر! كنتُ أقف على متن القارب تاركًا الرياحَ تُداعِب وجهي، وكنتُ أنظر إلى الأشرعة، وشعَرتُ أنه أروعُ منظر رأيتُه في حياتي. تشعر أنك تتنفَّس نسيمَ الحرية!

ضبَطت أبي اليوم وهو يتدرَّب على رميِ البرتقال! عندما أدرك أنني أشاهده، أسقَط البرتقال، وقال: «هذه لعبةٌ غبية.»

كنتُ أجلس هنا أفكر في الليلة اللي سبَقَت رحيلَنا عن جراند مانان، عندما اتصلتُ أنا وأبي بأمي لنودِّعَها (مرةً أخرى). وقد بدا في صوته بهجةٌ شديدة. لعلها اعتادَت المكوثَ بمفردها دون مضايقة من أحد.

كان ختامُ أبي للمحادثة غريبًا، لم يكن ذلك الشخص الذي اعتَدْنا صُراخه. أخَذ يقول لها: «أعرف»، و«سأفعل»، و«لا بأس»، وجُملًا أخرى قصيرةً مكوَّنة من كلمتين من هذا القبيل. وفي النهاية، اختنق صوته بعضَ الشيء (أهذا هو أبي؟) وقال لها إنه يُحبها.

يا إلهي!

وعندما أغلق الخط، قال لي: «أتريد بيتزا؟»

الفصل الخامس والعشرون

الفصل من العمل

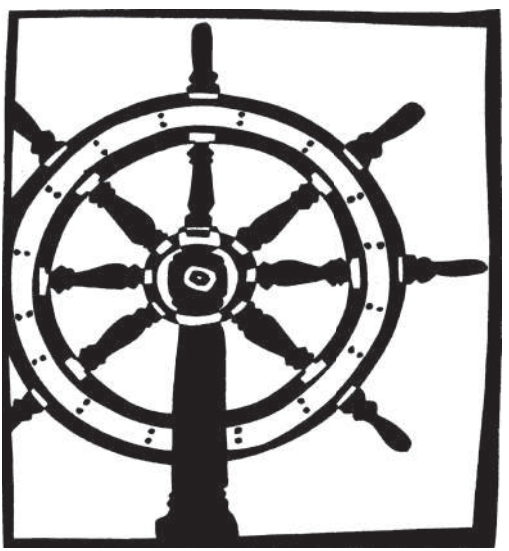

صوفي

البحر!

نقوم الآن بنوباتِ حراسة مُكوَّنة من فردَين، ونوبةُ حراستي مع الخال دوك مجددًا، وهو شيء جيد، إلا أنه لا يُحب تسيير القارب عند هطول الأمطار، والأمطار لم تتوقَّف منذ أن غادرنا. إنه يريد أن يستخدمَ جهاز التوجيه الآلي، ولكني أُفضل أن أقوم بنفسي بتوجيه القارب طَوال الوقت عن استخدام هذا الشيء. أشعر كأننا نتحكم أكثرَ في اتجاه القارب إذا كان شخصٌ ما هو مَن يُوجِّهه.

كانت الرياح مُواتيةً وهادئة، ونحن نستمتع حتى الآن بوقتنا. سيكون أمرًا جيدًا إذا توقفَت الأمطار، لكني عندما أشعر بالبرد والبؤس أتذكر شيئًا قاله لي بومبي مرةً: «الشدائدُ تَبني الشخصية.» قال إنك إذا عشتَ دائمًا مُنعَّمًا ومُدلَّلًا وغارقًا حتى أُذنَيك في رغد الحياة، فستتحوَّل إلى شخصٍ ضعيف الشخصية؛ أما إذا تعرَّضتَ للمعاناة، فسوف تتعلَّم مواجهة التحديات وتُصبح أقوى. تبدو أقربَ إلى نصيحةِ جَد، أليس كذلك؟

هذا الصباح، بينما كنتُ أرتدي ملابسي في الكابينة الأمامية، سمعتُ الخال دوك والخال ستيو يتحدَّثان في المطبخ. لم يكن الخال ستيو ذلك الشخصَ المتسلِّط الذي عهدناه. كان صوتُه مبحوحًا، وكانت الكلمات تخرج من فمه متلعثِمة.

«لا أعرف السبب ... لم يكن لديَّ فكرة ... لقد حدث ذلك بشكلٍ مفاجئ ... كنتُ جيدًا في هذا العمل ...»

قال الخال دوك: «ستجد عملًا آخر.»

قال الخال ستيو: «وماذا لو لم أجد؟ لم يكن ينبغي أن آتي. كان ينبغي أن أبقى هناك وأبحثَ عن عمل ...»

قال الخال دوك: «هذا أفضل شيء بالنسبة إليك. ثِق في كلامي.»

شعرتُ بالصدمة. لقد فُصِل الخال ستيو من عمله؟ هذا ما فهمتُه على أي حال. عندما خرجتُ من الكابينة، أشاح الخالُ ستيو بوجهه عني، مُخفيًا إياه.

قال الخال دوك: «هاي، صوفي. كان براين يبحث عنكِ ...»

قلتُ: «لماذا؟ هل يحتاج الحمَّامُ إلى التنظيف؟». كانت مجردَ دعابة، لكني شعرتُ بالندم لقولها؛ لأن الخال ستيو على الأرجح لم يكن يحتاج إلى سَماعي أتحدَّث بهذه الطريقة عن براين، بينما هو جالس هناك مبتئس بسبب فقدِ وظيفته.

الفصل السادس والعشرون

الشفرة

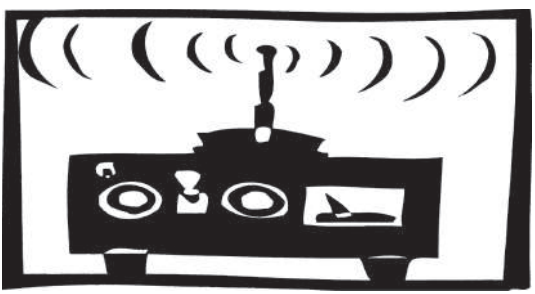

كودي

حدَث شيءٌ غريب. أعطانا أبي أولَ دروسه في شفرات الراديو. اعتقدتُ أن هذه الدروس ستكون مملَّةً للغاية، وأنه سيكون مُعلمًا ضَجِرًا متذمِّرًا، لكن كان حبُّه لهذه الأشياء جَليًّا، وكان الدرس مُمتعًا حقًّا. إنها أشبهُ بشفرةٍ سرية. شيء لا يعرفه بعدُ براين وأبوه اللذان يعرفان كلَّ شيء؛ لذا كنا جميعًا نتعلَّمه للمرة الأولى. سوف أتعلمها أسرعَ من براين، وسأتفوَّق عليه فيها. ها أنا ذا أيها السيد العبقري، يا من تعرف كل شيء!

كانت شفرة الراديو تلك شيئًا رائعًا. فكلُّ حرف من الحروف الأبجدية يُقابله كلمة، على النحو الآتي:

A: ألفا

B: برافو

C: تشارلي

D: دلتا

E: إكو

وهكذا دوالَيك. إذَن، إذا قلت كلمة (dad)، على سبيل المثال، وأردت التأكُّد من أن الطرَف الآخر قد سمع الكلمة بشكلٍ صحيح، فإنك تقول: «دلتا-ألفا-دلتا.» أليس هذا رائعًا؟

الفصل السابع والعشرون

التأمين

صوفي

البحر، البحر، البحر. إن أمواجه تتلاحق ويُناديني! إن لونه يتغيَّر طوال اليوم، من الأزرق إلى الأسود إلى الرمادي وجميع الدرجات فيما بينها، وأنا أحبُّ البحر، أحب البحر!

كان القارب يسير بسرعةٍ جيدة حتى الآن، ونحن الآن نَمضي إلى الأمام مباشرةً بشكلٍ جيد عبر الرياح! نقضي القِسط الأكبر من نوبة الحراسة في تعديل الأشرعة في الأوضاع الملائمة وتثبيت مَسارنا، بينما نقوم بأعمال التنظيف والطهي وترتيب الأغراض في غير أوقات الحراسة (الأمر الذي يُسعد براين والخال ستيو).

في الليلة الماضية، تواصَلْنا مع قاربٍ آخَر عن طريق الراديو؛ كان بحَّارًا يُبحر بمفرده، وكانت لديه مشكلة في الكهرباء، وأراد أن يعرف أين هو. لم يحتَجْ إلى أيِّ مساعدةٍ أخرى، لكني قضيتُ الليلة بأكملها أفكِّر في وجوده بمفرده. هل كان سعيدًا لكونه بمفرده، أم كان خائفًا؟

عندما انتهَت نوبةُ حراستي كان الخال ستيو يتحدَّث مع البحَّار عبر الراديو مجددًا. سألت الخال ستيو: «ألم تخلُد للنوم؟».

«لا، كنتُ أحاول فقط معرفةَ كيف يعمل هذا الراديو، هذا كل شيء.»

لم ينجح في خِداعي. لقد كان قلقًا على البحَّار هو الآخَر.

قلت له: «إذا كنتَ ترى هذا تطفُّلًا شديدًا مني، فلستَ مضطرًّا إلى أن تُجيبني، لكني كنتُ أتساءل. ماذا تعمل ... ما وظيفتُك ... أعني في الأوقات التي تعمل بها؟»

لم يرفع رأسه لينظر إليَّ. «في أوقات العمل، أقوم ببيع عقودِ تأمين.»

«أتقصد عقودَ التأمين على الحياة وعلى السيارة ومثل هذه الأشياء؟»

قال: «نعم. نحن بحاجة إلى عقودِ تأمين على كل شيء.»

قلت: «لا أفهم أبدًا معنى التأمين على الحياة. تقوم بدفع المال للتأمين على ماذا ... على البقاء على قيد الحياة؟ وكيف يمكن لدفع المال أن يُساعد في إبقائك على قيد الحياة؟ وماذا لو لم تبقَ على قيد الحياة؛ بماذا يفيد التأمين؟»

فرَك الخال ستيو جبهتَه. ربما كنتُ أتسبَّب له في صداع. قال: «الأمر معقَّد نوعًا ما. إن التأمين يُسعد ذَوي المتوفَّى.»

سألتُه: «وهل تحب القيام بذلك؟».

«القيام بماذا؟»

«ببيعِ عقود التأمين.»

«ليس تمامًا. وقد فُصِلتُ على أي حال.»

قلت له: «حسنًا، ربما يكون هذا أمرًا جيدًا. فبإمكانك الآن القيامُ بما تُحبه حقًّا.»

قال مُتهكمًا: «هاه.»

سألته: «ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟ ما الذي تحب فِعلَه حقًّا؟».

قال الخال ستيو: «أتعرفين يا صوفي؟ أنا لا أعرف. ليس لديَّ أدنى فكرة على الإطلاق. أليس هذا مثيرًا للشفقة؟».

قلت: «نعم.» لقد كان هذا صحيحًا. فقد بدا لي الأمرُ مثيرًا للشفقة فعلًا.

كانت الأمواج ترتفع شيئًا فشيئًا، وكانت الكابينة الأمامية تهتزُّ صعودًا وهبوطًا مثل الأفعوانية. عندما كنتُ نائمةً هناك، حلمتُ أنني لم أُولَد بعدُ، وأن أمي كانت تُشارك في ماراثون للجري. تُشعرني هذه الحركةُ الاهتزازية بالنُّعاس الشديد، وقضاء الوقت الذي لا أكون فيه في نوبة الحراسة مستلقيةً في استكانة على سريري الضيِّق فكرةٌ مُغْرية، لكني سأقعُ في مشكلة لو فعلت ذلك. فسوف يلكُمني براين والخال ستيو ويُخبراننني بمهامِّي.

كان كودي يتعلَّم استخدام راديو الهُواة، وفاجَأني الخالُ دوك حين قال إن أبي كان يُحاول توصيلَ هوائيٍّ أحاديِّ الحُزمة الجانبية، ولو كان استطاع فعل ذلك، لَتمكَّنَّا من التواصل معه عبر راديو الهُواة. أحببتُ هذه الفكرة نوعًا ما، وفكرتُ أنني كنتُ سأبقى على تواصُل مع أبي وأمي، لكنني شعرتُ أيضًا بإحباط؛ إذ بدا ذلك كما لو كان غشًّا، وكأنني سأحصل على مساعدةٍ إضافية أو شيءٍ من هذا القبيل.

ظللتُ أُفكر في بومبي، وأنسجُ في رأسي أحاديثَ معه. «ها نحن قادمون يا بومبي! نُبحر عبر البحار العاتية إلى تلالِ إنجلترا الخضراء المتموِّجة. ها نحن قادمون!»

الفصل الثامن والعشرون

تشارلي – أوسكار – دلتا – يانكي

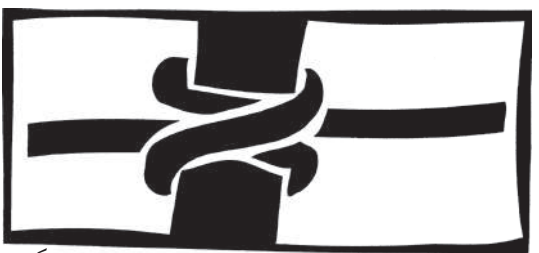

كودي

واو! نحن نمضي قُدمًا! لا منعطفات ولا منحنيات! لكن الضباب المخيف الذي يُحيط بنا يجعل المشهدَ كأنه فيلم رعب. تتوقَّع ظهورَ وحشٍ عملاق من أعماق المحيط يبتلعُك.

لقد تعلَّمت المزيد من شفرات الراديو. ها هي جميع الحروف الأبجدية:

A: ألفا

B: برافو

C: تشارلي

D: دلتا

E: إكو

F: فوكستروت

G: جولف

H: هوتيل

I: إنديا

J: جولييت

K: كيلو
L: ليما
M: مايك
N: نوفمبر
O: أوسكار
P: بابا
Q: كيبيك
R: روميو
S: سييرا
T: تانجو
U: يونيفورم
V: فيكتور
W: ويسكي
X: إكس-راي
Y: يانكي
Z: زولو

إذن، ها هو اسمي بشفرة الراديو، كودي: تشارلي-أوسكار-دلتا-يانكي. أليس هذا رائعًا؟

واسم أبي مو سيُصبح: مايك-أوسكار.

واسم صوفيا سيُصبح: سييرا-أوسكار-بابا-هوتيل-إنديا-إكو.

ظل كلٌّ منَّا يُنادي الآخَر تشارلي-أوسكار ومايك-أوسكار وسييرا-أوسكار على سبيل التدريب.

«هل رأيت مايك-أوسكار؟»

«أعتقد أنه على سطح القارب مع سييرا-أوسكار.»

وأشياء من هذا القبيل.

أصبح اسمُ براين بالشفرة: برافو-روميو-إنديا-ألفا-نوفمبر. لذا ظللنا نُناديه برافو-روميو. «روميو! برافو-روميو!» وقد ضحك. براين «ضحك».

تعلَّمت عُقدةً رائعة من سييرا-أوسكار-بابا-هوتيل-إنديا-إكو (صوفي). إنها تُسمى العقدة الوتدية.

تدرَّبتُ للتو على هذه العقدة مستخدِمًا رِباطَ حذائي. فقمتُ بربطه في عمودٍ أسفلَ القارب. فتعرَّضتُ للتوبيخ. فقد صاح العم ستيو في وجهي قائلًا: «لماذا بحقِّ الجحيم تربط رِباطَ حذائك في عمود وأنت ما زلت ترتدي الحذاء؟». وأضاف: «ماذا لو كنتَ في عجالة واضطُررتَ إلى الصعود إلى أعلى؟»

قلت: «كنتُ سألقي الحذاء عن قدمي سريعًا.»

الفصل التاسع والعشرون

إشارات ضوئية

صوفي

ها نحن نُبحر إلى إنجلترا وسط المحيط الأزرق الواسع المتلاحقة أمواجُه. أشعر هنا كما لو كان المحيط كائنًا حيًّا يتنفَّس، متقلِّب المزاج، بل متقلب جدًّا! فتارةً تجده هادئًا ولطيفًا كما لو كان نائمًا، وتارةً أخرى يكون مرحًا، يتناثر ماؤه وتتلاحقُ أمواجه، وتارةً يغضب وتتقاذفُنا أمواجُه. يبدو الأمرُ كما لو كان للمحيط عدةُ شخصيات، مثلي.

قضينا يومَ أمس في عملٍ مُضنٍ نظرًا إلى انخلاع حلقتَي تثبيت من موضعَيهما في الشراع الرئيسي. بحث الخال ستيو وبراين عن شخص لإلقاء اللوم عليه. يبدو أيضًا أن مَن بسَط الشِّراع (يقول الخال ستيو إنه كودي، ويقول كودي إنه براين) قد نسي أن يُرخِيَ حبل

الصاري، فصار أحدُ جوانب الشراع مشدودًا أكثرَ مما ينبغي، وانخلعَت حلقاتُ التثبيت في الشراع.

حلقات التثبيت. الشرائح. حبل الصاري. كنتُ أعرف بالفعل ما تعنيه هذه الكلمات، لكن كودي يأبى أن يتذكَّرها، وإذا استطاع تذكُّرَها يأبى استخدامَ الكلمات في موضعها الصحيح. فهو يُطلق على حلقات التثبيت «الأشياء ذات الثَّقب»، وعلى شرائح تثبيت الحلقات «الأشياء المعدنية»، وعلى حبل الصاري «الرباط». وأمس نشب شجارٌ كبير بينه وبين الخال ستيو عندما قال له كودي إن «الأشياء ذات الثقوب» تنخلعُ من موضعها وتخرج من «الأشياء المَعدِنية».

صاح الخال ستيو في كودي قائلًا: «ما الذي تتحدَّث عنه بحقِّ الجحيم؟». وأردف: «تبدو كالحمقى. إذا كنت لا تستطيع أن تتعلم الأسماء الصحيحة للأشياء، فأنت لا تنتمي لهذا القارب.»

قال كودي: «أنا أعرف ما أفعله، حتى لو كنتُ لا أُسمي الأشياء بأسمائها المنمَّقة.»

قال الخال ستيو في إصرار: «يوجد سببٌ لتسمية كلِّ شيء باسم.» كان يلكز كتفَ كودي بإصبعه. وأردف: «ماذا ستقول عند حدوث حالة طوارئ؟ النجدة! الشيء ذو الثَّقب غير مُحكَم؟!»

قال كودي: «توقفْ عن لكزي.»

تسبَّب جدالهما في نهوض الخال مو من سريره بالأسفل والصعود إليهما. سأله الخال ستيو: «هل تنعتُ ابني بالأحمق؟»

التفتَ الخال ستيو إلى الخال مو. وقال له: «قلت إنه «يبدو» كالحمقى في بعض الأوقات ...»

«إذن، فأنت تنعت ابني بالأحمق؟ وتعتقد أن ابنك الأبلهَ أذكى من ابني؟ هل هذا ما ترمي إليه؟» ثم بدأ الخال مو في لكز الخال ستيو بإصبعه.

قام الخال ستيو بدفع الخال مو. وقال: «إن إصبع قدم براين الصغير أذكى من جسدِ كودي الأحمق برُمَّته!»

أعتقد أنهما كانا بصددِ تبادُلِ بعض اللَّكمات عندما تدخَّل الخال دوك.

قال الخال دوك: «توقفا. هذا القارب لا يتَّسع لرجلَين يتصرفان كطفلين مدلَّلَين.»

صاح الخال مو: «هل تنعتني بالطفل المدلَّل؟»

أجاب الخال دوك: «نعم.»

استنشق الخال مو دفعة من الهواء ثم نفثه، والتفت إلى كودي وقال له: «لماذا يجب دائمًا أن تتسبَّب في نشوب شِجار؟»

قال كودي: «أنا؟».

قال الخال مو: «نعم، أنت. والآن اذهب إلى أسفل وابدأ في تحضير طعام الغداء!»

لم يكن من كودي إلا أن هزَّ رأسه ونزل إلى الأسفل، وتبعه الخال مو. سمعتُهما يتبادلان الصُّراخ بعضَ الوقت، ثم ساد الهدوء، وسرعان ما أحضرا طعام الغداء لبقيَّتنا بالأعلى، وجلس الجميع حول الطعام دون أن ينظر أحدٌ للآخر، فقط تناولنا الطعامَ وحاولنا نِسيانَ المشاجرة.

رأينا الشمس للمرة الأولى هذا الصباح منذ أن غادرنا جراند مانان، وكان مشهدًا مُحبَّبًا بلا شك. الشمس، الشمس، الشمس! الشمس الساطعة البديعة! أراد الجميعُ البقاء على سطح القارب لعبادة الشمس. لقد لفَّتنا جميعًا بأشعَّتِها الشديدة السطوع، ودفأتْ وجوهَنا وعِظامَنا، وجفَّفَت ملابسَنا، وألقَت بوميضها على الأمواج.

كانت أعمالُ الإصلاح التي لزم القيامُ بها أيسَر، والشمس ساطعة من فوقنا. أنزلنا الشراع الرئيسي، وقمنا بإصلاح ثقوب حلقات التثبيت المخلوعة، ووضعنا قطعًا من شريطٍ لاصق خاصة بالأشرعة حول جوانب الشراع لتغطية الثقوب. لكن الشريط لم يكن لاصقًا بما يكفي؛ لذلك قمتُ بخياطة الجوانب لإبقاء الحلقات ثابتة.

لم يستطِع براين المقاومةَ وقال: «إنه لَشيءٌ جيد أن تكون معنا فتاةٌ على القارب حتى تقوم بأعمال الخياطة.»

أثار براين غضبي. فخياطة الأشرعة عملٌ شاق! فالقماش قاسٍ وسميك، ويجب استخدامُ إبرٍ خاصة وكُشْتبان لإدخال الإبرة.

بعد أن انتهيتُ من خياطة الأشرعة، قمتُ أنا وكودي بثقبِ ثقوب جديدة في قماش الشراع، ووضَعْنا حلقاتِ تثبيتٍ نُحاسيةً جديدة. ربَط كودي حبلًا رفيعًا عبر ثقوب حلقات التثبيت الجديدة بالشرائح، وانتهت المهمَّة.

قال كودي على مَسمعٍ تامٍّ من الخال ستيو: «انظري يا سيرا-أوسكار. لقد انتهينا من إصلاح الأشياء ذات الثقوب، وهي الآن ستعمل مع الأشياء المَعدِنية بسهولة.» وابتسم للخال ستيو، وقبل أن ينفجر الخال ستيو غضبًا، قال كودي: «وإذا أردتِ يا سيرا-أوسكار استخدامَ كلماتٍ منمَّقة، فيُمكنك أن تُسمِّي الأشياء ذاتَ الثقوب حلقاتِ تثبيت، والأشياءَ المعدنية شرائح.»

قبل أن نرفع الشراع مرةً أخرى، لاحظ كودي أنَّ حبل الصاري (قال كودي: «الرباط، لكن إذا أردت استخدام مسمَّاه المنمَّق فيجب أن تُطلق عليه حبل الصاري») الذي بجانبِ عارضة الصاري كان يحتكُّ به؛ لذا جئت بالسقَّالة المتحركة وحزام الأمان، وربطتُ نفسي بحبل الراية، وأمسك بي كودي. أحاول عادةً أن أثبِّت نفسي بنفسي، ولكن عندما تكون الأمواج مرتفعة، أريد التركيز فقط على عدم الارتطام بالصاري.

بمجرد أن صعدتُ بضع بوصات فوق سطح القارب، وجَدتُني أطير فوق الأمواج متأرجحةً في كرسي السقالة بينما كان القارب يتمايل مثلَ أرجوحةِ توازُنٍ جامحة. تخيَّل نفسك تتمايلُ فوق الأمواج المتمايلة، والقارب يتمايل، والأمواج تتمايل، بينما أنت مُعلَّق في الهواء تُحلق عاليًا وسط الرياح!

ربطتُ الحبل بالشريط اللاصق بأكبرِ قدرٍ ممكن من البُطء حتى يتسنَّى لي قضاءُ أطولِ وقتٍ ممكن بالأعلى.

ناداني الخال ستيو قائلًا: «ما الخَطب يا صوفي؟». وأردف: «أتُواجهين مشكلة؟ لا تستطيعين فِعلَ ذلك؟»

قلت له: «كل شيء على ما يُرام يا سيبرا-تانجو-إكو-ويسكي». كنتُ على وشك إضافة «أيها الأحمق»، لكني نظرت إليه بالأسفل وقد بدا ضئيلًا جدًّا ومجعدًا، ومثيرًا للشفقة بعضَ الشيء؛ لذا ابتلعتُ هذه الإضافةَ ولم أنطق بها.

لا نستطيع صيد أي أسماك. لا أعرف ما الخطأ الذي نرتكبه. لكني أشعر بالارتياح. فأنا أكرهُ قتل الأسماك.

لكنَّنا رأينا طيورًا (تُرى مِن أين تأتي؟) وهي «تحبُّ» الطُّعوم التي نضعُها. اليوم حاول أحدُ طيور النورس أن يخطف الطُّعم، لكنه اشتبك مع الحبل. قام كودي بإنقاذه بطريقةٍ درامية بجذب الطائر إلى القارب وفكِّ الحبل المتشابك حول جَناحه وإعادته إلى الماء برِفق.

نادى كودي على الطائر بينما كان يسبح بعيدًا: «مع السلامة أيها الصغير.»

رأينا أيضًا دلافينَ الليلةَ الماضية، ومرةً أخرى هذا الصباح، وكان ثلاثةٌ منها تقفز وتغوص مستمتعةً بوقتها.

قال لها كودي: «مرحبًا يا أعزائي.»

أحبُّ رؤية الدلافين. أشعر وكأنهم رُسل. قادمون لي.

لم تَدُم شمسُ هذا الصباح طويلًا، وها هي الأمطار تهطل الآن بغزارة. كان هناك أيضًا ضبابٌ كثيف في الليل، لكن الرياح كانت مُواتية.

في الليلة الماضية، عندما كنتُ أنا وبراين نفحص جهاز الرادار وسط الضباب، رصَدْنا إشارتَين ضوئيتَين تتحرَّكان معًا على بُعد نحو خمسة أميال شمال شرق قاربنا. اعتقدنا أنه زورق قطر يسحب صندلًا. ثم رصَدْنا إشارةً أخرى على بُعد نحو ثلاثة أميال جنوب شرق قاربنا، وكانت تتحرَّك بسرعة في اتجاهنا مباشرة، فصعدتُ على سطح القارب ونفختُ في البوق الهوائي، وحاول كودي الاتصال بالمركبة عبر الراديو. لكن لا مُجيب.

كان وقتًا عصيبًا. شيءٌ مخيف عندما لا تتمكَّن من رؤيةِ أيِّ شيء، ولكن الرادار يُخبرك أن ثَمة شيئًا قريبًا منك. حينها تظلُّ متوقِّعًا الاصطدام بسفينةٍ ضخمة تخرج دون إنذار من وسط الضباب. كانت دقَّات قلبي تتسارع، متوقِّعةً ظهورَ هذا الشيء الضخم في أي لحظة.

شغَّلنا المحرك، وتأهَّبنا لتغيير مَسارنا حالَ اقترب هذا الشيء أقلَّ من ميلَين من قاربنا، ولكن حينئذٍ ظهرَت الإشارة الضوئية أمامنا مباشرة. وبعد قليل، ظهرت خمسُ إشارات أخرى، ولا أحد يُجيب على الراديو حتى الآن. كان الأمر مفزعًا؛ إذ خشينا أن يدهسَنا صندلٌ عملاق ويَمضيَ في مساره دون حتى أن يعلم مَن به أنهم قد اصطدَموا بنا.

قضى الخال ستيو كثيرًا من الوقت في تفحُّص الكُتيبات، وخَلَص إلى أنه نظرًا إلى وجود عواصفَ طوال الليل، فإن الرادار على الأرجح كان يلتقطُ السحبَ الممطِرة! شعَرنا بالغباء عندما أدركنا أننا كنا ننفخ في البوق الهوائي لسُحبٍ ممطرة، ونُحاول الاتصال بها عبر الراديو.

تبدو الرُّوح المعنوية بخير بين أسرة القارب اليوم، لكننا لا نحصل على قسطٍ كافٍ من النوم. أظن أن السبب الذي يجعلنا نبدو متعَبين للغاية هكذا — بخلاف أوقات نومنا المتقطِّعة — أن كلَّ شيء نقوم به، حتى أبسط الأشياء، يتطلَّبُ مجهودًا كبيرًا. فمجرد المشي بضع خطوات أمرٌ شاق. إنه يُشبه تسلُّق الصخور، حيث يتعيَّن عليك تحديدُ المكان الذي ستستقرُّ فيه كلُّ يد وكل قدم قبل البدء فعليًّا في التحرك.

لقد أصبحتُ أسير بسرعةِ امرأة عجوز في التسعين أو كشخصٍ مكسور الساقَين. عليك أن تتمالك نفسَك مع كل موجة، وأن تستعدَّ لصدمة الارتطام بأحد الجدران. لا يمكنك الوقوفُ بحُريةٍ أكثرَ من بِضع دقائق دون أن تفقد توازُنَك بسبب حركة القارب.

الطهي مهمَّة صعبة؛ إذ إنه برغم وجود الموقد على حاملِ تثبيتٍ ذي مِحورَين يتحرك مع حركة القارب لإبقاء سطح الموقد مُستويًا، فإن كل شيء آخرَ يطير من حولنا، وينسكبُ ويسقط من على الأرفف، ويتسبَّب في فوضى بشكلٍ عام.

عليك أثناء الأكل ألَّا تترك طبقَك أبدًا، ولا يمكنك أن تشرب وأنت تأكل؛ لأنك ستُضطرُّ حينها إلى أن تترك الطبقَ من أجل كوب الماء، وأنت لا تملك سوى يدَين اثنتين فقط.

أما النوم، فهذا تَحدٍّ آخَر. إن ساعات نومنا ليست ثابتة؛ فهناك دائمًا كثير من الضجيج (رنينُ أشياء، اصطدامُ أشخاص بالأشياء، رفرفةُ الأشرعة، أناسٌ يتحدَّثون)، إلى جانب النوم في سريرٍ مختلف (حسب المتاح) في كل مرة، وهناك دائمًا خطرُ السقوط من سريرك وتطاير الأشياء من الأرفف على رأسك، أو ظهور تسربٍ فوق حقيبة نومك.

لكنني أحبُّ العيش على متن قارب على الرغم من كل ذلك. أحبُّ كوني وحدةً كاملة مستقلَّة تدفعها الرياحُ عبر المحيط.

في الليلة الماضية، أثناء نومي المتقطع، حلمتُ بحُلمي المتكرِّر مع الموجة العاتية. لقد ارتفعَت المياه عاليًا، عاليًا، عاليًا، مثل جبلٍ أسودَ شاهق، ثم التفتُّ بالأعلى، وكنتُ كبقعةٍ صغيرة تحتها، وأخذَت تقترب، واستيقظتُ وفمي مفتوحٌ على مِصراعَيه، وعلى أُهبة الاستعداد للصراخ.

أكره هذا الحلم.

الفصل الثلاثون

العُقَد

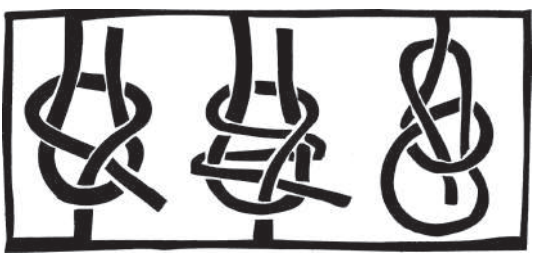

كودي

تعلَّمتُ اليوم كيفية ربط العُقدة السدَّادة من سييرا-أوسكار (صوفي). إنها سهلة! تقوم بربطِ عقدٍ صغيرة في أطراف الحبال؛ حتى لا تُفلِتَ من الأشياء ذات الثقوب وتتدلَّى في الماء.

عندما سألتُ صوفي أين تعلَّمَت ربْطَ كلِّ هذه العُقَد، ارتسمَت على وجهها تلك النظرةُ التي أحيانًا ما تلوح في عينَيها عندما يسألها أحد سؤالًا. حدَّقَت بناظرَيها عبر الماء، كما لو كانت الإجابة قد تظهر في الأفق. ثم قالت: «لا أعرف.» ونظرتُ إلى الحبل الذي تُمسك به بين أصابعها. «ربما علَّمَني أحدُهم ذلك قبل وقتٍ طويل.»

حفظت شفرات الراديو. لقد تفوَّقت على الخبير العالِم بكل شيء. أنا فخور بنفسي.

انضمَّت إلينا اليوم الشمسُ والدلافين؛ لذلك كان اليوم جميلًا. لا يُمكنك مقاومة الشمس ولا الدلافين. حتى أبي صعد إلى سطح القارب لمشاهدة الدلافين. قال: «إنها تجعلك تتمنى لو كنتَ سمكة، أليس كذلك؟»

لأول مرة نتفق على شيء منذ مدةٍ طويلة جدًّا. حين تنظر إلى تلك الدلافين تبدو لك خليَّةَ البال. فلا أحدَ يوبِّخها لأنها فعَلَت شيئًا بطريقةٍ خاطئة. لا تفعل شيئًا سوى الاستمتاعِ بالمياه وبقفزاتها في الهواء.

بينما كان أبي على سطح القارب، رأى الرسوماتِ التي رسمتُها للعقدة الوتدية والعقدة السدادة. قال لي: «هاي، متى تعلمت الرسم؟»

يمكنني أن أعتبر هذا السؤالَ إهانة، وكأنه يقول لي «أنا لم أُلاحظ وجودَك، لدرجةِ أني لم ألاحظ أنك كنتَ ترسم على مدار العامَين الماضيَين»، أو إطراءً وكأنه يقول لي مَرحى! إنَّ رسمك جيدٌ جدًّا!

أتساءل؛ أهو إهانة أم إطراء؟

الفصل الحادي والثلاثون

روزالي

صوفي

مر أسبوعٌ على ركوبنا البحر، ولم يُخنَق أحدٌ أو يُلقى في الماء حتى الآن.

لم تكن الرياح قويةً خلال الأيام القليلة الماضية، وحالَ الضبابُ والسحبُ دون رؤيتنا للشمس والقمر والنجوم أغلبَ الرحلة. لم يُخيَّل لي قَط أنني سأفتقدُ تلك الأشياءَ إلى هذا الحد. لقد ظننتُ أنني سأقفُ على ظهر القارب في وسط المحيط أُحملِق في أعماق السماء، لكن أغلب ما أراه هو سَديمٌ رمادي.

من الصعب تجفيفُ أيِّ شيء في غياب الشمس؛ لذا فإن غالبية ملابسنا رَطبة. كلٌّ منا لديه مخزون سري من القمصان القطنية الجافة محشورة في حقيبة ظهره، نحرسها بعناية، ولكن لا نأخذ منها شيئًا إلا عندما نعجز عن تحمُّل رطوبة ثيابنا ولو دقيقة أخرى. يا إلهي! إنه إحساسٌ رائع أن ترتديَ قميصًا جافًّا!

زارتنا بعضُ الحيوانات خلال الأيام القليلة الفائتة، وأندهشُ من مدى تشوُّقي لرؤيتها. أحبُّ الصحبة! أمس هبَط على قُمْرة القيادة طائرٌ أسود صغيرٌ بدا موحلًا وفي حالةٍ يُرثى لها. استدعيتُ كودي من الكابينة ليراه. قال له وهو يربِّت برفق على قدمه المُكفَّفة ويمسح على مِنقاره: «مرحبًا يا صغيري. من أين أتَت هذه الكتلة على مِنقارك؟ من أين أتيت؟ لماذا تبلَّلتَ بهذا الشكل؟»

قام كودي بتدفئته بين يدَيه، وجفَّف جسده المبلَّل في قميصه. وقال: «إنه طيطوي صغير ولطيف، أليس كذلك؟». لذا أسميناه طيطوي الصغير.

عندما استيقظتُ من أجل نوبة حراستي التالية، كان طيطوي الصغير قد شقَّ طريقه إلى أسفل، ودخل الخِزانة الموجودة بجانب طاولة الخريطة البحرية. كان الخال مو جالسًا هناك يرسُم له لوحةً، وعلَّمَني كيفية رسم الريش الخفيف. ظلَّ طيطوي الصغير في الخِزانة بِضعَ ساعات، كما لو كان يحبُّ الوقوف في وضعية التصوير.

تتبَّع طائرٌ آخر يُشبه طيطوي الصغير القارب طوال الليل وحتى اليوم التالي. ظننا أنه ربما يكون رفيقَ طيطوي الصغير، لكنه لم يهبط على القارب، ولم يَبدُ طيطوي الصغير منتبِهًا لوجوده.

حاول كودي وضْع طيطوي الصغير داخل قميصه لتدفئته، لكني أعتقد أن ذلك كان يُخيفه؛ إذ بدأ يُرفرف بجَناحَيه. طار طيطوي الصغيرُ مرتجفًا إلى حبل الأمان وحطَّ عليه، ثم طار مرةً أخرى، وظل يُحلق فوق القارب ببطء وبحركة واهنة قبل أن يُحلق فوق الأمواج.

قال كودي: «مع السلامة يا طيطوي الصغير.»

لم أكُن أريده أن يذهب؛ فلم أكن أتحمَّل رؤيته يطير بمفرده بعيدًا.

قال براين لكودي مقلِّدًا إياه: «تبدو كالأبله؛ طيطوي الصغير! طيطوي الصغير!» ورفع ذراعَيه في الهواء كما لو كان يبعث برسالة إلى السماء. قال: «نحن مجردُ مأوًى عائم للأرواح التائهة.»

فنظر كودي لبراين بإمعانٍ من رأسه إلى قدمه. ثم قال له: «أليست هذه هي الحقيقة؟».

رأينا أيضًا أمس بعضَ الحيتان الطيَّارة الصغيرة التي تُشبه الدلافين، إلَّا أن رءوسَها مستديرة، وليست مدبَّبةً يمتدُّ منها أنفٌ طويل.

صاح كودي: «حيتان، مَرحى!».

انبطحنا على بطوننا على سطح القارب نُشاهد الحيتان. اقتربَت الحيتانُ من القارب، ولكنها لم تقترب مِثلما فعَلَت الدلافين، وبقيَت عند مؤخرة القارب. وبعد مرور بعض الوقت، استطعنا التعرُّف على بعض منها؛ كانت أمًّا وطفلَها يَسبحان جنبًا إلى جنب، وحوتًا آخرَ ضخمًا للغاية على الجانب الأيمن من القارب.

كنتُ مُتيَّمة بهذا الثلاثي. أدركتُ أن الحوت الضخم الذي يسبح على جانب القارب هو الأب، وكان يحوم حوله لحماية الأم والطفل. أما الحوت الطفل، فبقيَ غالبيةَ الوقت بجانب أمِّه، ملاصقًا لها حتى إنه كان يصطدم بها، ولكنه من حين إلى آخَر كان يبتعدُ عنها ويترنَّح في سذاجة، ثم يعود إلى أمِّه ويصطدم بها مجددًا. بدا بقاءُ هذا الثلاثي معًا مُهمًّا جدًّا بالنسبة إليَّ، وشعرتُ بالتوتر والتأثر عندما لم أرَ الثلاثة معًا.

انضمَّ الخال دوك إلينا. قال: «بديع جدًّا!». وبينما كنَّا نُشاهد الحيتان، قصَّ علينا الخال دوك قصة امرأة كان يعرفها. كانت تُدعى روزالي، وكانت تحبُّ الحيتانَ حبًّا جمًّا. قرأتُ كلَّ شيء عن الحيتان، وشاهدتُ كلَّ الأفلام التي يظهر فيها حيتان، وعلَّقتُ صورًا للحيتان على الجدران، وكانت تحتفظ دُمًى محشوَّة صغيرة على شكل حيتانٍ وتماثيلَ صغيرة على هيئة حيتان.

قال الخال دوك: «لكنها لم ترَ قَط حيتانًا حقيقية، لم ترَها في الحقيقة. وفي يوم من الأيام استأجرتُ قاربًا، واصطحبتُها في رحلةٍ عبر المحيط، وظللنا نبحث طَوال اليوم عن الحيتان، وظلَّت طوال اليوم تُصلي من أجل رؤية الحيتان. كان يومًا جميلًا.»

سألته: «وهل رأيتما حيتانًا؟».

«ليس في ذلك اليوم.»

«هل ذهبتما مرةً أخرى؟»

«نعم. أعطيتُ صاحبَ القارب أفضلَ قصبةِ صيدٍ عندي؛ إذ كنتُ فقيرًا للغاية، وذهبنا مرةً أخرى. وظللنا طوال اليوم نبحث عن الحيتان ...»

«وظلَّت هي طَوال اليوم تُصلي من أجل رؤية الحيتان ...»

قال الخال دوك: «صحيح. وبينما كنا عائدين إلى الشاطئ لمحناه من بعيد ... أوه، لقد كان رائعًا! حوت رمادي برَّاق يخرج ببطء من الماء، ويا لسعادة روزالي ... أوه روزالي! فغَرَت فاها في انبهارٍ شديد، ولمعَت عيناها، واتَّسعتا بشدة، وشاهَدْنا ذلك الحوتَ الجميل بينما كان يسبح بانسيابية، ثم عاد إلى قاع البحر مرةً أخرى واختفى.»

تنهَّد الخال دوك بعمق.

سألتُه: «وروزالي؟ ماذا حدث لها؟».

قام دوك ونفَض التراب عن بنطاله، كما لو كان ينفض الذكريات. قال: «لقد تزوَّجَت شخصًا آخر.»

وقف كودي وفتَح ذِراعَيه عن آخرِهما، وأخذ يَصيح عبر الماء: «روزالي! أوه، روزالي!»

ابتسم دوك وانضمَّ له. «روزالي! أوه، روزالي!»

ثم هزَّ دوك رأسَه، وانصرف بخُطًا وئيدة متَّجِهًا إلى أسفل القارب.

كان براين يُراقبني وأنا أشاهد الحيتان. فقال: «صوفي فتاةُ الحيتان.»

سألته: «ألا تهتمُّ أبدًا بأي شيء؟ ألا ترى أنها مذهلة؟».

قال: «نعم.»

سألتُه: «ألا تعتقد أن مُشاهدتها أمتعُ من الكتب والخرائط؟».

فكرَّر: «نعم»، لكنه جاء ووقف بجانبي، حتى إنه ضحك مرةً عندما اصطدم الحوتُ الصغير بأمِّه، لكنه بدا حينها محرَجًا من أن يراه أحد مستمتعًا بوقته، وانسحب عائدًا إلى خرائطه.

اليوم جاء المزيدُ من الدلافين، وأخذَت تلهو في الأمواج التي تكوَّنَت أمام القارب. وقفز أحدُها خارجَ الماء بوضوح أمام القارب مباشرةً وكأنه يقول: «انظروا إليَّ! واو!»

استقرَّ نظري على أمٍّ وطفلِها يسبحان في تزامُنٍ مثالي وكأنهما كِيانٌ واحد.

قال براين: «إن الطفل نسخةٌ طبق الأصل من أمِّه، نسخةٌ مصغَّرة، لكنه بنفس سرعة أمه ورشاقتها ...»

قلت: «براين، هل بدأتَ تهتمُّ حقًّا بهذه الأشياء؟»

قال: «انظري. يبدو كأنها تُعلِّمه اللعب»، ثم قال مُردِفًا: «ما سببُ وثوقهم بنا إلى هذا الحد في اعتقادك؟»

وكان هذا بالضبط هو الشعورَ الذي انتابني، إنهما يَثِقان بنا بالفطرة، وهو ما جعَلني أرغبُ في البكاء. كان ينبغي أن يجعلني ذلك أرغبُ في الضحك؛ إذ بدا كأنَّهما يدعُوانِنا للانضمام إليهما واللعب معهما. كانا يبدُوان في غاية السعادة؛ يلعبان ويستكشفان ويَسبَحان ويقفزان ويتَمايلان. لا أعلم لماذا انتابَتني رغبةٌ في البكاء. ظللتُ فقط أفكِّر فيما

هما فيه، وفيما أنا فيه. لم يكن شيءٌ يُثقِلهما، وأرادا أن يكونا معنا؛ أما أنا فقد كنتُ بعيدةً على متن القارب، وشعرتُ كما لو كنتُ أَزِنُ طنًّا.

أخرج الخال مو دفترَ الرسم الخاصَّ به، ورسَم بسرعة وبراعةٍ الدلافينَ وهي تقفز في الهواء. قال: «إنها تُذكرك بأيام الطفولة بكلِّ ما فيها من فضول وحيوية. إنها تُذكِّرك بأنَّ هذا ما يُمكن أن تَكونه، وليس ما ينبغي أن تتوقَّف عنه.» نظر حوله إليَّ أنا وكودي وبراين، وكأنه قد أدرك وجودَنا للتو، ثم عاد إلى الرسم وهو يُتمتم: «أو ما شابه.»

الفصل الثاني والثلاثون

بومبي وحفرة السباحة

الضباب، الضباب، الضباب، الضباب، الضباب.

أتحدَّث باستخدام شفرة الراديو أثناء نومي. هوتيل-إكو-ليما-بابا! (HELP! أو النجدة)

شاهدنا الحيتانَ والدلافين وطائرًا صغيرًا أسودَ اللون. أريد أن أُصبح سمكةً أو طائرًا. أريد أسبح في الماء أو أحلِّق في الهواء.

تعلَّقَت صوفي بشدة بالطائر، وشعَرَت بالقلق والخوف عليه. قلت لها إنَّ من الأفضل لها أن تأخذ حذرَها؛ لأنها كانت في طريقها لأن تُصبح مثل العم ستيو.

قالت: «لستُ كذلك!».

في كل مرة تأتي الدلافين أو الحيتان لتلعبَ بجانب القارب، تصعد صوفي لمشاهدتها. لا يمكنها أن تُشيح بنظرها عنها، ثم تبدأ في التساؤل من أين أتت، وأين هي ذاهبة، ولماذا هي هنا، وما إذا كانت جزءًا من عائلة، إن كانت هناك صلةُ قرابة بينها.

كان على براين أن يُدلِيَ بدلوِه فيما يتعلَّق بالأيتام مرةً أخرى. ففي البداية، ظل يُطلق على طيطوي الصغير «الطائر اليتيم»، ثم بعد ذلك عندما كنا نشاهد الدلافين، كان براين يتحدَّث عن كيف أن الدولفين الصغير كان يُقلِّد أمه. قال: «لا أعرف ماذا يحدث للدلافين اليتيمة.» وأردف: «كيف لها أن تتعلَّم أي شيء؟»

قالت صوفي: «أعتقد أنها ذكية بما يكفي لتعتمد على نفسها في ذلك. فهي على الأرجح ليس لديها خيارٌ آخَر.»

وقال براين: «وهل هذا ما فعلتِه، الاعتماد على نفسك؟»

فقالت صوفي: «انظر! انظر إلى هذا! هل رأيتَها وهي تقفز؟» ثم نزلَت إلى الأسفل. عندما نزلتُ إلى الأسفل بعد بضع دقائق، كانت ترمي عبواتِ الكعك المملَّح. إنها تزداد مهارةً في الرمي.

قالت لي: «علِّمْني كيف أرمي أربعةَ أشياء. بعد ذلك علِّمني كيف أضربُ شخصًا على رأسه عمدًا دون أن يبدوَ الأمرُ كذلك وأُلقيَه في الماء.»

أعرف أنها كانت تقصد السيد الخبير بكلِّ شيء، برافو-روميو، براين.

قصَّت علينا صوفي في وقتٍ لاحق حكايةً أخرى من حكايات بومبي. كانت كالآتي:

بالقرب من منزل بومبي الريفي كانت هناك حفرةُ سباحة. كانت عند منعطَف في جدولٍ مائي، وكانت شديدةَ العمق. برَزَت على جانبها صخورٌ وأغصانُ أشجار كبيرة، وكان يمكنك تسلُّقُ هذه الصخور والأغصان والقفزُ في الماء، يا إلهي! لقد كان مكانًا خطرًا؛ نظرًا إلى وجود صخور وأغصان تحت الماء أيضًا، كانت تَحول دون رؤيتك للمكان الذي قد تستقرُّ فيه عند القفز. ولأنه كان مكانًا خطيرًا، كان محظورًا على بومبي السباحةُ هناك.

لكن في يومٍ صيفيٍّ حار، حار، حار، انتابت بومبي رغبةٌ شديدة في السباحة. أراد أن يقفز في ذلك الماء البارد ويسبَح فيه حتى يتجعَّد جلدُه. لذلك ذهب إلى حفرة السباحة، وتسلَّق إحدى الصخور، ووقف هناك ينظر إلى الماء البارد بالأسفل. كان الطقس حارًّا، حارًّا، حارًّا. وبدَت المياه شديدةَ البرودة. لذلك قفز بومبي في الماء.

قفز بومبي في هذا الماء البارد، البارد، وشعر بمتعةٍ شديدة، وظلَّ يسبح إلى أسفل، ثم كان هذا الصوت الهائل! لقد اصطدم بشيءٍ آخر، أكانت صخرة؟ أم تُراها شجرة؟ ثم سُمع صوتٌ آخر! لقد اصطدم بشيء آخَر. وشعر بالدُّوار تحت الماء البارد، ثم صدَر صوتٌ عنيف! لقد اصطدم رأسُه بشيء صُلب.

كان يستدير ويلتوي في ارتباكٍ شديد في الماء الشديد البرودة الدوَّامة، لكنه أخيرًا صعد إلى سطح الماء وتسلق الصخور حتى خرج منه، واستلقى على الضفة الموحلة، حتى توقَّف الألم في رأسه، ثم عاد إلى المنزل.

قال براين: «وتعرَّض للجَلْد! أليس كذلك؟ أراهن أن والده قد جلَده بشدة!».

قالت صوفي: «هذا صحيح. وبعدها ...»

قال براين: «انتظري. لا تُخبريني. فطيرة التفاح، أليس كذلك؟ لقد أعطته والدتُه فطيرة تفاح، أليس هذا صحيحًا؟»

أجابت صوفي: «كلَّا.»

قال براين: «ماذا؟ لا توجد فطيرة تفاح؟ ألم تُرِد أن تُعطيه فطيرةَ تفاح لأنه عاد سالمًا وبخير؟ لا توجد فطيرة تفاح؟»

قالت صوفي: «لا توجد فطيرة تفاح. لقد أعطته هذه المرةَ فطيرةَ توت أزرق. لم يكن في المنزل تفاح.»

عندما انتهت صوفي من سردِ قصتها، قال براين: «لماذا يستمرُّ بومبي في الخوض في الماء؟»

قالت صوفي: «ماذا؟ ماذا تقصد؟».

«إذا كان دائمًا ما يتعرَّض للمشاكل في الماء، فلماذا يستمرُّ بومبي في الخوض فيه؟ من البديهي أن يبقى أبعدَ ما يكون عنه.»

ضغطَت صوفي على شفتَيها بقوة، وفجأةً بدَت لي هشَّةً للغاية.

قلت: «ربما كان هذا هو السببَ الذي يجعل بومبي يستمرُّ في الخوض في الماء ...»

نظرَت صوفي إليَّ. كانت عيناها لامعتَين ورطبتَين.

قلت: «ربما يكون خائفًا من الماء، ولكنه يظلُّ يعود إليه لأن عليه فِعلَ ذلك؛ ثمة شيءٌ يحتاج إلى إثباته ...»

قال براين: «مثل ماذا؟».

قلت: «لا أعلم. لكن إذا فكَّرت في الأمر، أعتقد أنك إذا استطعتَ التغلُّبَ على أكثرِ ما يُخيفك، فربما ستشعر ... لا أعلم ... ستشعر بالحرية أو بشيء من هذا القبيل. أتعتقد ذلك؟»

قال براين: «هذا غباء. إذا كنت تخاف من شيء، فهناك على الأرجح سببٌ منطقي لذلك، وهذا يعني أن عليك تعلُّمَ الابتعاد عن هذا الشيء. هذا ما أعتقده.»

لم تَنبِس صوفي ببنتِ شَفة. ذهبَت إلى السور، ووقفَت بعيدًا كما تفعل دائمًا تُحملق في الماء.

الفصل الثالث والثلاثون

الحياة

عندما استيقظتُ هذا الصباح، كانت هناك فكرةٌ تُراودني: أنا أمقت البحرَ والبحرُ يمقتني. كانت فكرةً غريبة. فأنا لا أمقت البحر.

عندما دخلتُ مطبخ القارب لأتناولَ بعض الطعام، كان الخال ستيو بالداخل. لا أراه كثيرًا. فعادةً ما يكون نائمًا في وقتِ استيقاظي وأكون نائمةً في وقتِ استيقاظه. وكان هذا أمرًا جيدًا بالنسبة إليَّ حتى الآن.

كان الوجودُ معه في المطبخ معه بمفردي أمرًا مربكًا. فأنا لا أجد أبدًا ما أقوله له. لذا قرَّرتُ أن أسأله عن روزالي.

سألتُه: «هل سبَق وقابلتَ روزالي من قبل؟». وأردفتُ: «أقصد روزالي التي أخبرنا عنها الخالُ دوك؟»

أجاب: «بالتأكيد.»

«لقد أحبَّها الخال دوك كثيرًا، أليس كذلك؟»

قال الخال ستيو: «هذا أقلُّ ما يُقال.» كان يعبث بمجموعة من القوائم؛ يحذف بعض العناصر ويُضيف عناصرَ أخرى.

«إذن لا بدَّ أن الخال دوك قد انزعج عندما تزوَّجَت روزالي شخصًا آخَر، أليس كذلك؟ لا بدَّ أن قلبه قد تحطَّم، صحيح؟»

قال الخال ستيو: «شيء من هذا القبيل.»

سألته: «وماذا فعَل إذن؟ هل نسِيَها وانتهى الأمر أم ماذا؟».

نظر إليَّ الخال ستيو. «نسي روزالي؟ هل تمزَحين؟ وما سببُ توقُّفنا في كلٍّ هذه الأماكن في اعتقادك، بلوك آيلاند، مارثا فينيارد، جراند مانان؟»

«ماذا؟ لماذا؟ ألم يُرِد الخال دوك زيارةَ أصدقائه ليس إلا؟ ألم نكن نُصلح القاربَ فحسب؟»

قال: «بالتأكيد. بالتأكيد.» وخلَط أوراقه معًا، ثم أعاد ترتيبَها ووضعها بعضَها فوق بعض بنظام. قال: «اسمعي. لا تُخبري دوك بما سأخبرك به. فهو حسَّاس بعضَ الشيء بشأن موضوع روزالي.»

قلت له: «لن أخبره.»

«بلوك آيلاند هو المكان الذي قابل فيه دوك روزالي لأول مرة.»

قلتُ: «حقًّا؟».

«ومارثا فينيارد؟ أتذكرين جوي؟ حسنًا، جوي هو شقيقُ روزالي.»

«شقيقها؟ حقًّا؟»

«وقد عرَف دوك من جوي أنه بعد وفاة زوج روزالي ...»

قلتُ: «وفاة زوجها؟ إذن هي ليست متزوجةً الآن؟».

قال الخال ستيو: «هذا صحيح. عرَف دوك أن روزالي ذهبَت إلى جراند مانان لزيارة فرانك ورؤية الحيتان ...»

«أتقصد فرانك الذي نعرفه ... فرانك الذي قابلناه في جراند مانان؟ أتقصد هذا الرجل؟»

«هو بعينه.»

«وروزالي؟ أين كانت روزالي عندما كنَّا هناك؟»

«غادرَت جراند مانان.»

«حسنًا، وأين هي؟»

قال الخال ستيو: «خَمِّني.»

ولكني لم أستطِع التخمين وقتها؛ فقد نزل الخال دوك، وانهمكَ الخال ستيو في أوراقه، وكان واضحًا من ذلك أن الحديث قد انتهى.

حاولتُ أن أسأل الخال ستيو في وقتٍ لاحق، لكنه قال لي: «لقد أخبرتُك بالكثير. من الأفضل أن ندَع الأمر جانبًا الآن.»

قلت: «لا شك أنك تعرف كثيرًا عن روزالي. ظننت أن لا أحد يُخبرك بأي شيء.»

قهقه الخال ستيو. وقال: «ما زلت لا أعرف سوى أشياء قليلة.»

وهكذا ظللتُ أتساءل عن مكان روزالي، ربما لا نكون ذاهبين إلى بومبي حقًّا. ربما يكون الخال دوك ذاهبًا بنا إلى مكانٍ آخَر بحثًا عن روزالي. ربما تكون في جرينلاند، أعتقد أنها في طريقنا. أو ربما تكون عادت إلى الولايات المتحدة، وسوف يُقرر الخال دوك العودة بنا إلى هناك والبحثَ عنها.

تسبَّب الخال دوك في قلقي الليلةَ الماضية بينما كنَّا في نوبة الحراسة معًا. كنتُ أُوجِّه القارب، وكان هو واقفًا يُحملق في البحر في مقدمة القارب. فاستدار ونظر إليَّ، وأخذ يتفرَّس وجهي دقيقةً، ثم قال: «ما الغرض منها يا صوفي؟»

«ماذا تقصد؟ الغرض من ماذا؟»

فتنهَّد بعمق. وقال: «أتحدث عنها. الحياة.»

قلت: «أحقًّا تسألني أنا؟».

أطبَقَت شَفتُه العليا على شَفته السفلى. ظننتُه على وشك البكاء، وكان هذا سيكون شيئًا صادمًا لي؛ لأن الخال دوك دائمًا ما كان مثالًا للشخص الرزين الهادئ. فلا تتوقَّع أن يكون قلقًا بشأنِ معنى الحياة، ولا شك أنك لا تتوقَّع بُكاءه في منتصف الليل على قاربٍ شراعي.

لكنه عاد بعد ذلك إلى مؤخرة القارب، وبدأ يعبث ببعض الحبال، وكان هذا كلَّ ما قاله عن الحياة. نظرتُ إلى الماء ثم إلى السماء، واجتاحَتني حَفنةٌ من أغرب المشاعر. في البداية، كنت أشعر بالسكينة التامة كما لو كان هذا المكانُ هو أهدأَ مكان على الأرض، ثم فجأةً تحوَّلَت هذه السكينة إلى شعورٍ عميق جدًّا بالوحدة.

وبدأتُ أفكر في التأمين على الحياة، وكم سيكون رائعًا أن تتمكَّن من الحصول على ضمان بأن حياتك ستكون سعيدة، وأن يكون كلٌّ من تعرفهم سُعداءَ، ويُمكنهم جميعًا القيامُ بما يرغبون به حقًّا، وأن يعثروا جميعًا على مَن يرغبون في العثور عليهم.

الفصل الرابع والثلاثون

كوابيس الطفل الصغير

كودي

لم أحظَ بالقدر الكافي من النوم؛ لأن أبي كان يضايقني، والعم ستيو وبراين كانا يتشاجران، والعم دوك كان يصيح في وجهي لأني تركتُ حبلًا مُلقًى على سطح القارب، وكان الطقس ممطرًا وضبابيًّا، والبحر مضطربًا، وظلَّت الأشياء تتساقط على رأسي.

عندما أخلُد أخيرًا إلى النوم، يوقِظني صراخُ صوفي؛ إذ تنتابها كوابيسُ أثناء النوم، لكنها لن تقول ماذا كانت هذه الكوابيس. أخبرَتني مرةً عن ذلك الطفل الصغير الذي تعرفه.

ذهب الطفل الصغير إلى المحيط عندما كان عمره نحو ثلاث سنوات. ربما كانت أم الطفل الصغير بصحبته أيضًا، لكن صوفي لم تكن متأكدة من هذه المعلومة. استلقى الطفل الصغير على بطانية (قالت صوفي إنها كانت زرقاء) واستغرق في النوم.

بعد ذلك كانت هناك مياهٌ كثيرة تنهمر على الطفل الصغير، وبدَت كأنها جبلٌ أسود شاهق. جذَبَت الأم يدَ الطفل الصغير، لكن المياه أرادَت أن تأخذه، وكانت تجذبه وتجذبه، وعجز الطفل الصغير عن الرؤية والتنفس.

وفجأةً جذبت الأمُّ الطفلَ الصغير بقوة لتجعله في وضع مستقيم.

قالت صوفي: «أتعلم؟». وأردفَت: «لا يزال ذاك الطفل الصغير يحلم بموجةٍ قادمة.»

«أتقصدين أنه لا يزال يخاف من الماء؟»

قالت صوفي: «لم أقُل ذلك. إن الطفل الصغير يحبُّ الماء، يحبُّ المحيط ...»

«ولكن لماذا يُراود الطفلَ الصغيرَ هذا الحلمُ مرارًا؟»

قالت صوفي: «لا أعلم. ربما يكون الأمر متعلقًا بعنصر المفاجأة، أن يكون مستغرقًا في النوم في أمان ودفء وسعادة، ثم تزحف تلك الموجةُ ناحيتَه وتُحاول أخْذَه بعيدًا ...»

قلتُ: «كما لو كانت الموجةُ تُطارد الطفلَ الصغير، وكأنَّ الطفل الصغير خائف من عودة الموجة ...»

قالت صوفي: «ربما يكون هذا صحيحًا. أو ربما لا ...»

كانت صوفي تتصرَّف بغرابةٍ طَوال اليوم. فقد كانت تُحملق في المياه، ثم تُهرَع إلى الأسفل، ثم تُهرَع مرةً أخرى إلى الأعلى، كما لو كانت تختنق بالأسفل، وظلَّت تنزل وتصعد، وتنزل وتصعد. ربما كانت قلقةً بشأن الطفل الصغير.

الفصل الخامس والثلاثون

ذا بلو بوبر

صوفي

مرَّ أسبوع ونِصف ونحن على وجودنا في البحر حتى الآن، وقد أبحرَ قاربُنا مسافة ١٣٠٠ ميل. لقد قطَعْنا نصف الطريق، نصف الطريق إلى بومبي! لقد اجتزنا منطقتَين زمنيَّتين؛ لذا صارت ساعاتُنا الآن متقدمةً ساعتين عمَّا كانت عندما بدأنا الرحلة. وبقي أمامنا ثلاثُ مناطق زمنيةٍ أخرى. وفي كلِّ مرة نضبطُ الساعات، يقول كودي: «وداعًا أيتها الساعة!» أين تذهب تلك الساعات؟

نحن على بُعد نحو ٥٠٠ ميل شرق نيوفاوندلاند، و٩٠٠ ميل جنوب جرينلاند. أتوقَّع دائمًا أن يقول الخال دوك: «هاي، لنتوقَّفْ في جرينلاند» أو «لنتوقَّف في نيوفاوندلاند!» ثم نتوقف ويذهب هو للبحث عن روزالي. لكنه لم يذكر حتى الآن أيَّ شيء عن التوقُّف.

كان الطقس شديدَ البرودة خلال الأيام القليلة الماضية، ولكنه يُصبح أكثرَ دفئًا كلما اقتربنا من تيَّار الخليج. يقول الخال ستيو إن التقاء تيار لابرادور (التيار الأبرد في المحيط

الأطلنطي، القادم من الشمال) مع تيار الخليج (التيار الأدفأ القادم من الجنوب) يؤدِّي إلى حدوث «أنماط جوِّية مثيرة.»

سألته: «وماذا يعني ذلك؟».

«يعني عواصفَ مفاجئة، عواصف جامحة ...»

لا أستطيع أن أجزم إذا كان إبلاغي بمِثل هذه الأشياء هو اختبارًا لي من قِبَل الخال ستيو — يُحاول أن يرى إن كنتُ سأخاف وأبكي — أم يريد أن يُهيِّئني لما قد يحدث.

لن أُظهِر خوفي، ولن أبكي.

أمس عندما كنا على وشك هبوب عاصفة رعدية، دخَل الخال ستيو في نوبةٍ حادَّة من إصدار الأوامر. «افصلوا الأجهزة!»

سألتُه أنا وكودي: «لماذا؟».

«هل تُريدان أن نصبح مانعةَ صواعقَ عملاقة؟»

ظهرَت سُحبٌ داكنة عملاقة في الأفق، وجاءت عصفةُ ريح ضرَبَت قاربنا بقوة.

أخذ الخال ستيو يُثرثر بقائمة من الأشياء: «الرادار!»

أطفأه كودي. «تم.»

«نظام تحديد المواقع!»

«تم!»

«نظام لوران الملاحي!»

«تم!»

صاح الخال ستيو في كودي. قال له: «ما الذي تقوله بحقِّ الجحيم؟ هل أطفأتها أم لا؟»

قال كودي: «تم!»

لم أبقَ لأسمعَ نهاية الحديث؛ إذ كنتُ في نوبة حراستي. كنا نُسابق الزمن، وبدا الأمرُ رائعًا للغاية، أن تشهد كلَّ تلك الرياح! كان لدينا العتاد المناسب للجوِّ العاصف، فلم نُبالِ بسيول الأمطار المنهمِرة علينا، بينما كنَّا نوغل في البحر. شعرتُ كما لو كان ينبغي أن يُصاحب هذا المشهدَ موسيقى دراميةٌ صاخبة في الخلفية. تشعر كأن كل ذرة في جسدك تنبض بالحياة، وأنك تسعى جاهدًا للبقاء على قيد الحياة، وأن القارب يُساعدك وأنت تُساعدها، وجميع مَن فيه يتعاون في ذلك، وتنطلقون!

كنا نتواصلُ مع أهل الأرض كلَّ ليلة تقريبًا، وفاجَأ كودي الجميعَ بمهارته التي اكتسَبها في استخدام راديو الهُواة. فثَمة كثير من المصطلحات الخاصة به، وعليك الانتباه طيلة الوقت لمعرفةِ ما يحدث. رقم الاتصال الخاصُّ بنا هو إن وان آي كيو بي ماريتيم موبايل، وباستخدام مصطلحات راديو الهواة، يُصبح الرقم هكذا: نوفمبر وان إنديا كيبيك برافو ماريتيم موبايل. من الرائع حقًّا سَماعُ كودي وهو يتحدث بما يبدو كأنه لغةٌ أجنبية:

«هنا إن وان آي كيو بي ماريتيم موبايل ... نوفمبر وان إنديا كيبيك برافو ماريتيم موبايل ... حوِّل.»

علَّمَنا الخالُ مو معلوماتٍ بسيطةً اليوم. كانت أغلبُها شفرات:

QSL: هل تسمعني؟

٨٨: أحضان وقبلات.

وهذا ما يقوله كودي عبر الراديو:

كودي: «عُلِم، هنا إن وان آي كيو بي ماريتيم
موبايل يحاول الاتصال بدبليو بي تو واي بي زي
ماريتيم موبايل، ويسكي برافو تو يانكي
بابا زولو، حوِّل.»

شبكة الراديو: «عُلِم، إن وان آي كيو بي، أرسِل الإشارة، حوِّل.»

لم نتمكن حتى الآن من التحدُّث مع أي شخص نعرفه؛ لذا كان علينا أن نسأل على الشبكة عن شخصٍ ما في كونتيكت يُمكننا تركُ رسالة معه، أو إجراءُ مكالمة هاتفية من خلاله. يقول كودي إن غالبيةَ مُستخدِمي راديو الهواة على اليابسة يمكنهم توصيلُ هواتفهم بالراديو الخاص بهم، والاتصال بالرقم بمكالمةٍ مدفوعة، وبعد ذلك يمكنك التحدثُ مع مَن تريد عبر الهاتف.

الأصوات مشوَّشة وغيرُ واضحة، لكنها تُشبه المعجزة عندما ننجح في استخدام الراديو، الأمر الذي لا يحدث كثيرًا. فقد حاوَلنا الاتصالَ بأبي، ولكن لم يُحالفنا الحظ.

أشعر بحماسة شديدة عندما يستخدم كودي الراديو. فأنت بحاجة حقًّا إلى سماعِ صوتٍ مألوف! ولكن عندما يمرُّ الوقت ولا تنجح في الاتصال أو لا تسمع جيدًا، أشعر بالضيق، لدرجة أنني أتمنى لو أننا لم نُحاول أصلًا. وما زِلتُ أشعر بأن التواصل مع أشخاص آخَرين يُعتبر غشًّا.

قلتُ ذلك للخال دوك، فقال: «ماذا؟ أتريدين أن ننعزل تمامًا عن الآخرين؟ عن العالم؟»

«لم أقُل ذلك. كلُّ ما في الأمر أن من المفترض بنا أن نقوم بهذا بمفردنا.»

قال الخال دوك: «لا بأس من أن نعتمد على الآخَرين يا صوفي.»

ظللتُ أفكر في ذلك طوال اليوم. لا أعلم لماذا يبدو مُهمًّا بالنسبة إليَّ أن أتمكن من القيام بكل شيء بنفسي، وألَّا أعتمد على أحد. لطالما رأيتُ هذا أمرًا جيدًا، ولكن الخال دوك جعل ذلك يبدو سلوكًا أنانيًّا. أنا لا أفهم ذلك.

بينما كنا نتناول طعام الغداء اليوم، وهو أحدُ تلك الأوقات النادرة التي نكون فيها جميعًا مستيقظين في وقتٍ واحد، قال الخال دوك: «أتذكرون تلك المرةَ التي عثَرنا فيها على زورقٍ مطَّاطي؟ عندما كنا صغارًا ...»

قال الخال مو: «نعم! الزورق الأزرق؟»

تدخَّل الخال ستيو وقال: «نعم، أتذكره! لقد جرَفَته الأمواج على الشاطئ، أليس كذلك؟ واعتبرناه ملكًا لنا ...»

قال الخال دوك: «وأطلقنا عليه اسمًا ... أتذكرون ماذا أطلَقْنا عليه؟».

فكَّر مو وستيو في الاسم بُرهة. ثم ابتسَم ستيو ابتسامةً عريضة، ربما تكون المرةَ الأولى التي أراه يبتسمُ فيها، وقال: «أنا أعرف! ذا بلو بوبر! ذا بلو بوبر، أليس كذلك؟»

ضحك مو. قال: «نعم! ذا بلو بوبر!»

قال ستيو: «وتذكُر كيف كنا مُتحمِّسين لركوب الزورق ودفعناه وسط الأمواج، وكنا نضحك بشكل هستيري ...»

«وكنا نضحك بشدة لدرجة أننا لم نلاحظ ...»

«أننا كنا ننجرف بعيدًا وبعيدًا ...»

كان ستيو يختنق من شدة الضحك. قال: «و... أدرَكْنا بعد ذلك ...»

«أن الزورق ليس به مَجاذيف!»

كانوا جميعًا يضحكون في تلك اللحظة. في البداية، كنتُ أضحك أنا أيضًا؛ لأنهم كانوا يضحكون؛ فقد كان من المضحك جدًّا أن تراهم جميعًا يتصرَّفون بهذا البَلَه. لكني بعد ذلك لم أفهم ما المُضحك في كونهم في زورق بلا مجاذيف، وانتابَتني القُشَعريرة كلما تخيَّلتُهم يعومون ويعومون وسط البحر بلا حول ولا قوة.

سأل كودي: «وماذا حدث بعد ذلك؟ كيف عُدتم؟».

قال الخال مو: «همم. لا أستطيعُ تذكُّرَ هذا الجزء.»

قال الخال ستيو: «لكننا عُدنا بطريقةٍ ما.»

أعلم بالطبع أنهم قد عادوا جميعًا سالِمين؛ إذ إنهم هنا يُخبروننا بقِصَّتهم، لكني بطريقةٍ ما لم أشعر بذلك الارتياح الشديد إلا عندما قال الخال ستيو إنهم عادوا.

قال الخال دوك: «ثم جاء بومبي، يا إلهي!»

سأل كودي: «ماذا حدث؟ هل قام بجَلْدكم؟».

قال الخال ستيو: «بومبي؟». وأردف: «لم يضربنا بومبي قَط طيلةَ حياته.»

وافقه الخال دوك: «هذا صحيح.»

سأل كودي: «إذن ماذا فعل بومبي عند عودتكم؟».

قال الخال ستيو: «أخذَنا إلى السقيفة وقال: «أترون هذه الأشياء الخشبية؟ هذه الأشياء الخشبية تُسمى مجاذيف. ربما تحتاجون إلى بعض منها في المرة القادمة التي تُبحرون فيها عبر المحيط.».»

كانت الطريقة التي أخبرَنا بها الخال ستيو بذلك مضحكةً جدًّا، وجلس الجميع على ظهر القارب يضحكون مدةً طويلة. كان عليَّ أن أنزل إلى الأسفل إذ لم أستطِع إخراجَ هذه الصورة من رأسي، وهم وسط المحيط في زورق بلا مجاذيف.

تسلَّقتُ الصاريَ مرةً أخرى أمس، وهذه المرة إلى القمة! فقد انفكَّ حبلُ الراية وعَلِق في الجزء العُلوي من الصاري؛ لذلك ربطتُ حبلًا جديدًا بحزام الأمان، وسحبني كودي إلى أعلى. انخفض القارب وتمايل وعصفَت به الريح، ولم يكن في استطاعتي سوى التشبُّث بكل قوتي. كان الأمر بمنزلة اختبار بيني وبين الرِّيح، وكأنها كانت تقول لي: «هل يمكنُكِ فِعلُها يا صوفي؟ أراهن أنكِ لا تستطيعين!» وكما لو كنتُ أقول لها: «يمكنني أن أفعل هذا! شاهدي بنفسك!» الأشياء الصعبة أحيانًا تجعلك تشعر بأنك الأفضل.

لاحظنا كذلك تشقُّقات في نهاياتِ عارضات الصاري في موضع التقائها. وهذه مشكلةٌ كبيرة. يقول الخال دوك إننا سوف نقوم بربطِ حبالٍ حولها؛ على أملِ ألَّا تزداد الشقوق.

يأتي على قائمة المشاكل الكبيرة أيضًا وحدةُ تحليةِ المياه، التي كُسِرَت هي الأخرى. لا أحد يعرف المشكلةَ بالتحديد، ولكن براين عازمٌ على أخذِ حمَّام ساخن الليلة؛ لذا سنُحاول جاهدين إصلاحَها. وبمناسبة الحديث عن الاستحمام، إن رائحتنا جميعًا كريهة! كل شيء على القارب رائحته كريهة أيضًا.

الخال ستيو يَصيح في وجهي لمساعدته في إصلاح شيء ما؛ لذا أعتقد أن هذا ما كان عند صوفي: سييرا-وان-بابا-هوتيل-إنديا-إكو.

QSL?

.٨٨

الرياح والأمواج

الفصل السادس والثلاثون

ارتجاج

كودي

جسَدي يترنَّح ويرتدُّ من جانب إلى آخَر، ولديَّ رغبةٌ في التقيُّؤ.

لاحقًا:

أتقيَّأ.

لاحقًا:

لا أتقيَّأ.

الفصل السابع والثلاثون

الرياح

صوفي

البحر. البحر. البحر. إنه يمور وأمواجه تتلاحقُ ويُدمدم لي بصوته الهادر.

كانت الرياحُ تعوي من الليلة الماضية منذ غروب الشمس، وكِدنا نَهلِك تمامًا ونحن نسعى للتأقلم مع هذه الرياح. عندما بدأت الرياح في الهبوب، قُمنا بطيِّ الشراع الرئيسي بسحبه إلى الأسفل وربط الجزء السفلي بنفسه لجعل الشراعِ أصغرَ حجمًا، وكنا على وشك طيِّ شراع الصاري الخلفي عندما كُسِرَت ذراع الصاري الرئيسية. كنا نخشى حدوث ذلك.

قام الخال دوك والخال مو بربطِ الأطراف معًا بواسطة حبل، وقاما بتطويقها بأنبوب من الصُّلب، ثم ربَطا الأنبوب بذراع الصاري. نتمنَّى أن تثبت.

الرياح تعوي حول الأشرعة، وتندفع ناحيَتَنا من جهة ثم تُميل القاربَ من الجهة الأخرى، مما يجعلنا نفقد اتِّزاننا ونترنَّح. الأمواج ترتفع وتتزايد مُحدِثةً خطوطًا رغويَّة. لا أستطيع تقدير ارتفاعها، تبدو كأنها على ارتفاع طابَقَين، ولا يمكنك أن تُصدق أن الذي يقف أمامك بهذا الشكل ما هو مياهٌ تُشكل قوسًا فوقك.

الشراعان الآن مطويَّان، والخال دوك يُلقي الأوامر بلهجةِ قُبطان حقيقية. أنا سعيدةٌ لأنني على دراية بمعنى غالبية المصطلحات. فليس لديك وقتٌ للتفكير في مكانِ مَيمنة القارب أو مكان الخِزانة أو الفرق بين حبل رفع الراية وحبل رفع الشراع؛ يجب أَن تكون على دراية بكل هذا. وأنا سعيدة أنني قد استخدمتُ كلَّ الحبال والبكرات على القارب، وأعرف كيف تعمل الأشياء؛ فذلك يُشعِرني بأنني ذاتُ فائدة حقًّا، ولا يهمُّ الآن إن كان مَن يقوم بالمهمة صبيًّا أم فتاة، ما دام هناك شخصٌ يقوم بها.

الخال دوك يُنادي …

الفصل الثامن والثلاثون

عواء الرياح

كودي

الرياح تعصف بنا وتتقاذفنا الأمواج العاتية من كلِّ اتجاه. ليس حولنا سوى رياح مُدوِّية وبحرٍ يتحرَّك في اضطرابٍ عنيف.

أعتقد أننا هالكون لا محالة.

الفصل التاسع والثلاثون

تمايُل

صوفي

ربطنا جميعَ الأشياء غير المُحكَمة، وواصلنا العملَ نحو ستِّ ساعات، لكن الرياح ما زالت تشتدُّ وتهبُّ باستمرار من الجنوب الشرقي. في وقتٍ سابق، كان الأمر يبدو كأننا نمتطي أفعوانية، وفي بعض الأحيان يكاد يكون الأمر ممتعًا؛ إذ كنا نُسارع الوقت محاوِلين إبقاءَ القارب في وضعٍ عمودي مع الأمواج حتى لا ننقلب. نرتفع مع الموجة ونهبط، نرتفع ونهبط!

الأمواج الآن تزداد شراسةً، ترتفع وتنقلب مثل وحوشٍ تنظر شَزرًا واللُّعاب يسيل منها، وهي تنفث من فمها خُيوطًا سَميكة من الزَّبَد في الهواء. في بعض الأحيان عندما تكون الأمواجُ الكبيرة خلفك، يمكنك رؤيةُ أسماكٍ ضخمة عالقة فيها.

الرؤية متعذِّرة، والتفكير متعذِّر، والبقاء في وضع مستقيم متعذر. كنت جاثيةً على رُكبتيَّ على ظهر القارب أُثبت حبلًا، وعندما التفتُّ إلى الخلف لم أستطِع رؤية أيِّ شخص

آخَر على القارب، على الرغم من أنني رأيتُ دوك وكودي والخال مو هناك قبل دقيقةٍ واحدة فقط، وعندما ناديتهم بصوت عالٍ أعادت الرياحُ صوتي إلى فمي. سمعتُ صوتَ أنينٍ خفيف داخل رأسي.

صاح الخال دوك وهو يَبرُز من وسط الضباب: «توتُّر الأشرعة شديد». كان يُحدق في الأشرعة، حيث كانت الحلقات في الجزء العُلوي من كلا الشِّراعَين تُفلت من مواضعها، مُحدِثةً أصواتَ طقطقة وأزيز! كان الشراع الرئيسي يتمزَّق من الأعلى.

أنزلنا الشراعَ وحاولنا رفْعَ شِراع العواصف الخاص بالمهامِّ الشاقَّة، ولكن قبل أن نرفعه لأعلى، كان نصفُ الحلقات قد انخلع. هبَّت عصفةُ ريح قوية دفَعَت الخال مو ناحيتي، فانبطحتُ أرضًا على حبلِ تثبيت الصاري.

صاح كودي: «انفكَّ حبلُ الراية على الشراع الخلفي!».

قال الخال مو وهو يُحاول الوقوف: «أترى؟». وأردف: «إن الولد ليس أحمق. إنه يعرف بعضَ الأشياء.»

بدأ الشراع الخلفيُّ يتمزَّق أيضًا؛ لذلك أنزلناه هو الآخَر، ولكن بينما كنا نقوم بإنزاله، اهتزَّ حبل الراية وانفكَّ، وظل عالقًا في قمة الصاري.

تشبَّث الخالُ دوك بالسور، وصاح باتجاه الماء: «أوه، روزالي!»

وها نحن بلا صَوارٍ وسطَ رياحٍ عاتية وبحرٍ مُتلاطم، نتمايل مِثل قِطَع الفلِّين، بعيدين كلَّ البعد عن اليابسة.

الفصل الأربعون

لا وقت

كودي

لا وقتَ لحكايات بومبي، ولا للرمي، ولا لِتعلُّم ربطِ العُقَد. فالرياح تَعوي، والبحرُ غاضب، وقد لمَلَمْنا أشرِعتَنا.

عندما نزلتُ إلى أسفل عانقَني أبي.

قلتُ له: «لا أريد أن أموت.»

تمسَّكَ بي. وقال: «لا يمكن أن تموت. لا يمكن. ولا يمكن أن تموتَ صوفي بهذه الطريقة.»

«لا يمكن أن تموت صوفي؟ وماذا عن العم دوك وبراين و...»

«لن نسمح بحدوث ذلك.»

ماذا يقصد؟ يبدو الأمر كما لو كان يتحدَّث بالشفرة. يبدو الأمر كما لو أن الجميع يتحدَّثون بالشفرة عندما يتعلَّق الأمر بصوفي. حتى صوفي تتحدَّث بالشفرة.

الفصل الحادي والأربعون

ركوب الأمواج

صوفي

كنتُ أُوجِّه دَفَّة القارب غالبيةَ الوقت، وهذه الأمواج بلا رحمة. جبالٌ من الماء تصطدم بنا كلَّ خمس دقائق، والرياح تعوي وتعوي وتُحاول أن تُطيح بنا. تسبَّبَت موجةٌ عاتية في سقوط كودي أرضًا، بينما كان يشقُّ طريقَه إلى مقدمة القارب.

صاح الخال دوك: «ارتدِ حزامَ الأمان هذا يا كودي!». ثم صاح بي: «ثبِّتي عجَلة القيادة يا صوفي!»

ثبَّتُّ عجلةَ القيادة بأقربِ ما يكون من اتجاهنا، بينما قام الخال ستيو بتحضيرِ بعضٍ من مشروب الشوكولاتة الساخنة لتدفئتنا، واجتمعنا جميعًا لمحاولة معرفةِ ما سنفعله بعد ذلك. كنا مُنهَكين تمامًا من مصارعة الرياح والأمواج. فالرياح والمياه تحملان بداخلهما قوةً هائلة. ونحن مثل ذرَّات الرمال بينها، محاطون بطاقةٍ هائلة يمكنها سحقُنا

إلى عددٍ يفوق الحصر من الذرَّات. لا يسَعُك سوى أن تشعر بأنَّ الرياح والماء تحملان ضغينةً ضدَّك أنت شخصيًّا.

أجلس في الكابينة الأمامية وقد ارتفعَت الأمواج قليلًا عن ذي قبل، والرياح تهبُّ بسرعة خمسين عقدة. يبدو البحر أبيضَ ومخيفًا، وثمة رائحةٌ غريبة في الهواء، تبدو كرائحةِ مزيج مختلط من السمك والطحالب والعفن معًا.

يحاول الخال ستيو وبراين إصلاحَ شراع العواصف، لكن اتجاه الرياح تغيَّر مجددًا ونحن نسير بدون أيِّ أشرعة. لم نَعُد نصطدم بالأمواج، بل أصبحَت تدفعنا إلى الأمام بسرعةٍ هائلة.

صاح كودي للتوِّ ليُخبرنا أن عارضة الصاري للشراع الخلفي قد تحطَّمَت هي الأخرى.

وماذا بعد؟

لاحقًا:

قرَّرنا عدم رفع شراع العواصف بسبب قلة حبال الرفع لدينا والضغط الواقع على عارضات الصواري. نحن الآن نركب الأمواج. نركب الأمواج إلى أيرلندا.

لاحقًا:

تنتابني حالةٌ من اليأس، رغم أنني لا أودُّ أن أكون كذلك. إنه الشعور نفسُه الذي يُزعجني من وقت لآخَر. أريد أن أقوم بجميع الأعمال المعقَّدة على القارب، جميع الأعمال على سطح القارب، وأتطوَّع دائمًا للقيام بها، لكن دائمًا ما ينتهي بي الأمر عالقةً عند دفَّة القارب.

«لا أعتقد أن بإمكانك القيامَ بذلك يا صوفي. أمسِكي الدفة.»

«الأعمال على سطح القارب شاقَّة بعضَ الشيء يا صوفي. أمسِكي الدفة.»

إن قيادة القارب ليست أمرًا سيئًا، ولكن هناك بالأعلى يبدو كلُّ شيء مثيرًا وبه كثير من الزخم، هناك في الهواء الطلق بينما يطير القاربُ ويصطدم بالأمواج.

لاحقًا:

عندما تطوَّعتُ بالمساعدة في رفع شراع العواصف، طلبَ دوك من كودي القيامَ بذلك بدلًا مني، وغضبتُ قليلًا.

صِحتُ: «أعرف أني لستُ بقوة كودي، ولكني أعوِّض ذلك ببذل الجهد!»

بدا الخال دوك مُتعَبًا. قال لي: «أمسكي الدفة يا صوفي.»

كنتُ أقوم بتوجيه القارب وأنا أتحدَّث إلى نفسي حديثًا غاضبًا صامتًا، بينما في وجه الرياح عندما جاء براين وقال لي: «كُفِّي عن هذه الأنانية يا صوفي.»

«أنانية؟ أنا؟ ما الذي تتحدث عنه بحقِّ الجحيم؟» كنت غاضبةً جدًّا منه. لا أعلم من أين أتى كلُّ هذا الغضب.

«الأمر لا يتعلَّق بكِ وحدك. يجب أن يقوم كلُّ واحد بما يُجيده، وعلى الجميع تَلقِّي الأوامر من القائد.» ولكَزني في كتفي.

«توقَّفْ عن ذلك!»

فلكَزني مرةً أخرى. وقال لي: «أنتِ في هذه الرحلة فقط لأن دوك أشفَق عليكِ. أنتِ هنا فقط لأنكِ ...»

«ماذا؟ لأني ماذا؟»

تمايل القارب، ودفع براين يدَه نحوي فدفعتُه إلى الخلف، وأخذ يحاول الوقوف مستندًا إلى السور. تمايل القارب مرةً أخرى، وكان يُكافح من أجل النهوض والتشبُّث بالسور. كان يترنَّح، وكنتُ متجمِّدةً ومتشبِّثة بعجلة القيادة.

ظهر كودي على حينِ غِرة وأمسك ببراين، ودفعه نحو منتصَف القارب، وقال له: «ارتدِ حزام أمانك الغبيَّ أيها السيد العبقري!»

دخل براين إلى الكابينة، ونظر إليَّ كودي نظرةً غريبة. قال لي: «ماذا حدث لكلِّ ذلك؟»

قلت: «لا شيء.» كنتُ أرتعد، وما زلتُ أرتعد، وبراين يتجنَّبني، وأنا أتجنبه.

لا أشعر أنني صوفي. أشعر كأنني برغوثُ بحرٍ صغيرٌ أحمق.

الفصل الثاني والأربعون

المعركة

كودي

رياح وأمواج عاتية. يبدو الأمر كأننا في خِضمِّ معركة، ومن الأفضل أن تبقى على ظهر القارب محاولًا إصلاحَ الأشياء، وإبقاءَ جسدِك في وضع مستقيم؛ لأنك حين تتوقَّف عن فعلِ أي شيء وتنزل إلى الأسفل وتُتاح لك دقيقة للتفكير، ستُدرك أنك هالك.

لذلك أنا عائد إلى سطح القارب.

الفصل الثالث والأربعون

مُنهَكون

صوفي

الأمور سيئة تمامًا هنا. نحن مُنهَكون للغاية، ولا أستطيع الكتابة من فرطِ الإنهاك.

لقد بكى الجميعُ اليوم إلا أنا. فلن أبكي.

الفصل الرابع والأربعون

الابن

كودي

أخبرني أبي اليوم أنني كنتُ ابنًا صالحًا، وأنه كان أبًا سيئًا، وأنه آسفٌ على ذلك.
لكنه كان مُخطئًا؛ فأنا لم أكن ابنًا صالحًا.

الفصل الخامس والأربعون

وحيدون

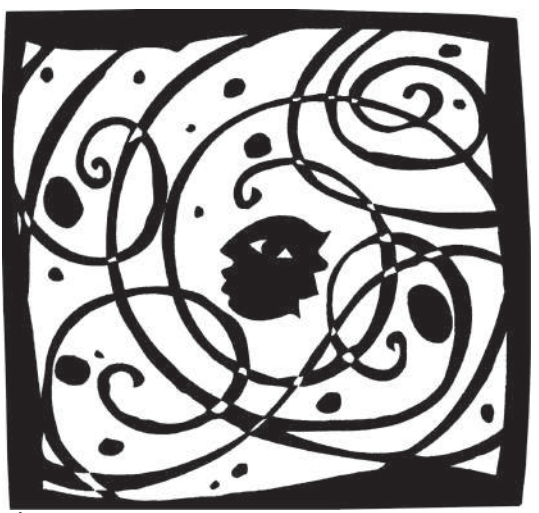

صوفي

الأمر سيِّئ، سيئ، سيئ، سيئ. تُرى إلى متى سيستمرُّ كل هذا؟

في وقتٍ سابق، عندما كنتُ أقوم أمسك بالدفة لتوجيه القارب، وتصادف أن كنا جميعًا على سطح القارب في وقتٍ واحد، التفَتُّ لأرى الخال ستيو واضعًا ذراعه حول براين، والخال مو واضعًا ذراعه حول كودي، بينما الخال دوك يتشبَّث بالسور ويُحدِّق في البحر. أكان يُفكر في روزالي؟ أردتُ أن أترك القيادة، وأن أُطوِّق الخال دوك بذراعي، أو أجعله يُطوقني بذراعه، لكني لم أستطِع ترك موقعي.

نحن جميعًا وحيدون هنا.

الفصل السادس والأربعون

بومبي في المحيط

كودي

ربما نكون قد دخلنا مكانًا غريبًا دائمًا ما تهيج فيه البحارُ وتَعوي فيه الرياح، وربما نحن سائرون في دوائر ولن نخرج منها أبدًا، وسيَئول بنا المطاف إلى الموت جوعًا.

في وقتٍ سابق اليوم، عندما سقَطتُ أنا وصوفي على الأسرَّة محاولين الخلودَ إلى النوم، أخبرَتني بحكايةٍ أخرى من حكايات بومبي. كانت الحكاية كالآتي:

عندما كان بومبي شابًّا صغيرًا، خرَج في رحلة إلى المحيط؛ إذ لم يكن قد رآه قَط قبل ذلك. سافر بومبي مُتطفلًا من كنتاكي إلى ساحل فيرجينيا بركوب سيارات الغُرباء، وعندما

وصل إلى المحيط جلس على الرمال ووقع في حبِّ المحيط. أحب كلَّ شيء فيه؛ رائحته، وأصواته، وملمس الهواء على وجهه.

خاض في الماء، حيث ظلَّت الأمواج تسقطه، ولكنه استمرَّ في السير حتى أصبح الماء عند عنقه، فسبح على ظهره محدقًا إلى السماء، وتذكَّر محيطًا آخرَ بعيدًا في إنجلترا. وأدرك أنه قد رأى المحيط قبل ذلك منذ زمنٍ بعيد عندما كان طفلًا. بعد ذلك أدرك أنه المحيط نفسُه، وأن المياه تمتدُّ آلافَ الأميال من فيرجينيا إلى إنجلترا، وربما تكون المياهُ التي تحمله الآن قد لامسَت سواحل إنجلترا من قبل، وربما تكون المياه ذاتها التي كان يلهو فيها وهو طفل.

وأخيرًا، ترك قدَمَيه تنزلقان إلى أسفل، ولكنه لم يستطِع لمس القاع، ونظر إلى الساحل، وأدرك أن الأمواج قد دفعَته بعيدًا جدًّا عنه، وبدأ في السباحة، وظلَّ يُردد في نفسه «أسرِع، أسرع»، لكن الساحل كان بعيدًا جدًّا، وكان هو مُتعَبًا جدًّا، فغمَرَته موجةٌ ودفعَته إلى الأسفل، وكان مُنهَكًا تمامًا، ولم يكن يعرف إن كانت لديه القوة الكافية للاستمرار في السباحة، وحاول السباحةَ مجددًا، ثم استراح، ثم سبَح مرةً أخرى، وفي النهاية نجح في العودة إلى الساحل.

استلقى على الرمال واستغرق في النوم، وعندما استيقظ عاد إلى كنتاكي متطفلًا أيضًا.

والبقية معروفة: جَلْد وفطيرة (فطيرة التفاح مجددًا).

الفصل السابع والأربعون

عاصفةٌ شدَّتها عشر درجات

صوفي

البحر، البحر، البحر. تتلاحقُ أمواجه ويثور. يبدو كأن القارب سيُبتلَع، وأنا خائفة.

يقول الخال دوك إننا نواجه عاصفةً قوَّتُها عشرُ درجات، وإن سرعة الرياح تبلغ خمسين عقدةً في الساعة، والأمواج التي تبدو كأسوار من المياه تتقاذفُنا ليلًا ونهارًا، وما زالت أشرعتُنا مُخفَضة. تصطدم بنا موجةٌ من الخلف كلَّ عشرين دقيقة، وتملأ قُمرة القيادة بالمياه. ونظل جميعًا نقول إن الرياح ستتوقَّف قريبًا حتمًا؛ فقد ظلَّت تهبُّ بقوة مدةً طويلة للغاية.

صاح الخال دوك في وقت سابق: «اصمدوا! سوف تقذفنا هذه الموجةُ العاتية تجاهَ الشاطئ عمَّا قريب!». بدا هذا غريبًا بالنسبة إليَّ؛ لأننا لم نكن بالقرب من الشاطئ بأيِّ حال، لكنه أوضح بعد ذلك أنه كان يستشهد بجزء من قصيدة لشاعر يُدعى تينيسون.

الخال ستيو (الذي ادَّعى سابقًا أنه لا يصاب بدوار البحر أبدًا) مصاب بدوار البحر. إنه يبدو شاحب اللون وهزيلًا، ونقوم نحن بنوبات حراسته، ونصلي للرب ألَّا نستسلم نحن أيضًا.

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل، وقد ملأَت موجةٌ للتوِّ قُمرةَ القيادة، وأنا في نوبةِ حراسة. أرجو أن تتوقف العاصفة.

الفصل الثامن والأربعون

الليل

كودي

هل سيعثر أحدٌ على هذه المُكدِّرة عائمةً على صفحة الماء؟ هل ستعرف أمي ماذا حدث لنا؟

حاولنا توصيلَ رسالة لكِ يا أمي الليلةَ الماضية. نحن نُحبك.

لو أنني أستطيع بدء حياتي من جديد ...

لا يوجد نهار. لا شيء سوى الليل.

علينا الصراخ حتى يسمعَ بعضُنا صوتَ بعض في هذه العاصفة، لكن ما أريد فعله هو الهمس. أريد قول أشياء ألطف، لكن لا وقت لذلك. فنحن نقضي جُلَّ أوقاتنا نُصارع العاصفة.

حلمتُ أمس بصوفي، وهذا الصباحَ سألت الخال دوك إن كانت صوفي تعرف ما حدث لوالدَيها. قال: «على مستوًى ما، لا بد أنها تعرف حتمًا. أما على المستوى الواعي؟ صوفي فقط هي مَن تستطيع الإجابةَ عن ذلك.»

سألتُه لماذا لا يتحدث أحدٌ في هذا الموضوع، لماذا لا يُخبرني أحدٌ لا أنا ولا براين. قال: «هذا ليس الوقت المناسب. وربما يجب أن تفعل صوفي ذلك بنفسها. فهذه قصتُها.»

الفصل التاسع والأربعون

الدوران

صوفي

في نحو الساعة الواحدة صباحًا بدأتُ نوبةَ حراسة برفقة كودي والخال دوك. بدا أن الطقس قد بدأ يستقر، وتمنَّينا لو أن القارب أصبح يسير في بحرٍ أكثرَ هدوءًا بنهايةِ نوبةِ حراستنا وبداية نوبة حراسة الخال مو وبراين والخال ستيو.

صاح الخالُ دوك: «اضرِبوا الأخاديدَ الرنَّانة!».

قلت له: «قصيدة أيضًا؟».

قال: «نعم.»

بعد مرور ساعة على بدء نوبة حراستنا، صاح كودي لي وقال: «سييرا-أوسكار! سُموك، أين هو؟»

كان رأسي به تنميلٌ شديد. وكانت أذُنايَ مسدودتَين. ماذا كان يقول؟

صاح مرةً أخرى وهو يشدُّ حزامه. قال: «سُموك!»

نقرتُ على رأسي كما لو كان عليه تاج، وانحنيت. اعتقدتُ أنه كان يلعب معي لعبةً ما.

فترَك مكانه ونزل إلى الأسفل، وعندما صعد كان يحمل سُترة الأمان الخاصةَ بي. لقد كان يقول «سترتك». شعرتُ بالغباء الشديد. قام كودي بتثبيتها لي وقال: «عليكِ ارتداؤها يا صوفي. عليكِ فعلُ ذلك.»

قلت: «الطقس يتحسَّن، نحن بخير.»

«لسنا بخير يا صوفي. ارتدي هذه.»

لكن الأمواج بدَت هادئةً بالفعل مدةَ ساعة أو نحو ذلك، وهدَأَت حِدَّة الرياح. شاهدتُ كودي وهو يتحرك على القارب. في دقيقة كان يعدل شراعًا، وفي الدقيقة التالية كان يربط حبلًا وينتشلُ وسادةً مُلقاة، ويضعُها في مكانها، ثم يعود إلى الأشرعة. وكان دوك يقوم بالأشياء نفسِها على الجانب الآخَر من القارب. كانا يتحرَّكان بسهولة واضحة في تلك البحار المتلاطمة، وبدا الأمر كما لو كان مسرحيةً، وأن حركاتهما الرشيقةَ مصمَّمةٌ مسبقًا.

في نحو الساعة الثالثة والنصف صباحًا، قبل انتهاء نوبة حراستنا بنحو نصف الساعة، هبَّت الرياح، وارتفعَت الأمواج مرةً أخرى. كان الخال دوك في قُمرة القيادة، وكان كودي يقوم بتوجيه القارب، وكنتُ جالسة بجانب الفتحة التي تُغطي الكابينة، أراقب الأمواج القادمة من خلفنا لتحذير كودي ودوك من أي موجة عاتية قادمة.

كانت كلُّ موجة تبدأ في التكون تجعلني أشعر بالضعف والغثيان، ليس بسبب حركة القارب، بل من الخوف أن تكون هذه الموجةُ عملاقةً وتقلبَ قاربنا. رأيتُ من بعيدٍ موجةً بدَت مختلفةً عن غيرها. كانت أكبرَ بكثير، ارتفاعُها لا يقلُّ عن خَمسين قدمًا، ولم تكن قاتمةً مثل مثيلاتها. كانت بيضاء، بيضاءَ تمامًا، وكانت مُحمَّلةً بالزَّبَد كما لو كانت قد تكسَّرَت للتو. حدَّقتُ فيها بضعَ ثوانٍ، محاوِلةً استيعابَ الأمر، وفي تلك اللحظة كانت قد أصبحَت خلفنا مباشرةً، ترتفع وترتفع، وما زالت مُغطاةً بالزبد.

صرختُ محذِّرةً كودي: «كودي! انظر خلفك ...»

فالتفتَ كودي ونظر سريعًا، ثم استدار مجددًا، وجلس القُرفُصاءَ، وثبَّتَ نفسَه في موضعه لملاقاة الموجة.

غالبية الأمواج التي تنكسر خلفنا تنقضي تحتَ مؤخرة السفينة، وأحيانًا يغمر الزبدُ جوانبَ قُمرة القيادة. ولكن هذه الموجة كانت مختلفةً عن غيرها. فقد كان بها التفافةٌ عالية وواضحة. رأيتُها ترتفع خلفنا إلى أعلى وأعلى، ثم التفَّت منقلبةً على قاربنا، جالبةً آلافَ الجالونات من الماء المُزبِد الغزير.

صرختُ: «كودي! دوك!».

ثم رأيتُها تصطدم برأس كودي وكتفَيه كأنه اصطدم بمليونِ قرميدة. أخذتُ نفسًا عميقًا، وأغمضتُ عيني، وغطَّيت رأسي.

كنتُ داخل الموجة، أطفو، وأدور، وأُقذَف في كل الجوانب. تذكرتُ أن أقول لنفسي «احبسي أنفاسَكِ يا صوفي»، ثم تساءلتُ إن كان سيظل بي أنفاس من الأساس. كانت قوةٌ كبيرة تدفعني؛ لم أصدق أن المياه، المياه الناعمة اللطيفة، هي مَن كانت تفعل بي كلَّ هذا.

لم أستطِع تذكُّرَ ما حلَّ بحزام الأمان. لم أكن أشعر بأنني مثبتة بشيء. أكان لا يزال موجودًا أم لا؟

لقد سقطتُ من القارب، كنتُ متأكدة من ذلك. سأظل تحت الماء للأبد، أتلوَّى وأتقلب، وأُسحَق متحولةً إلى كرةٍ صغيرة. أكان هذا هو المحيط؟ هل انقلبتُ من فوق القارب وأصبحتُ في البحر؟ هل كنتُ في الرابعة من عمري؟ في رأسي أسمع صوتَ طفل يصرخ: «أمي! أبي!»

ثم سمعتُ صوتًا ينادي: «صوفي!»

أعتقد أنني على وشك الإعياء وأنا أكتب عن ذلك.

الفصل الخمسون

الموجة

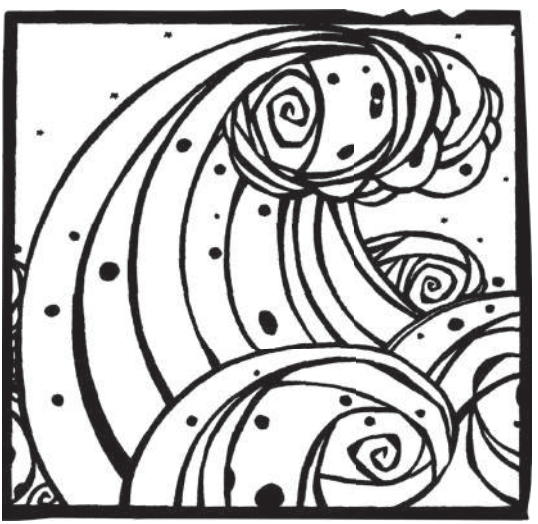

صوفي

الموجة. الموجة. لقد لطمَتني مباشرةً عبر الغطاء القماشي الواقي من الأمواج الذي يُغطي الكابينة، وأطاحت بي إلى ظهر القارب بجانب السور. كنتُ مستلقيةً على ظهري مثل السُّلَحفاة، وكانت ذراعاي وساقاي تبحث في يأس عن شيء للتشبُّث به. كان أول ما أردتُه أن أفعل أيَّ شيء لازم للخروج من هذا المكان قبل أن تأتيَ موجةٌ أخرى. كان حزام الأمان موجودًا وثابتًا؛ لو لم يكن كذلك لأصبحتُ حينها على مسافةٍ بعيدة من القارب.

رأيتُ الخال ستيو يُخرج وجهَه الأصفر من غطاءِ فتحة الكابينة الرئيسية. بدا وكأنَّ أحدًا قد لكَمه في بطنه. كان فمُه مفتوحًا وكان يُحملق أمامه.

كلُّ ما كنتُ أفكر فيه هو: «أين كودي والخالُ دوك؟»

أمسكَ الخال ستيو بحزامي، ودفعني إلى الخلف عبر فتحة غِطاء القُمرة الواقي، ومنها إلى فتحة باب القمرة. بالأسفل اصطدمتُ بطاولة الخريطة البحرية. كانت ساقاي تؤلمانني بشدَّة. ظننتُ أنهما قد كُسِرتا. شعرتُ بالإعياء والتعب، وبدا قلبي يخفق بمعدلٍ أسرع ممَّا يستطيع جسمي مُجاراته، ولم تكن ساقاي تحملانني على الرغم من أني كنتُ جالسة.

انزلقتُ على الأرض التي بلغ ارتفاعُ المياه بها قدمًا على أقلِّ تقدير، محاوِلةً التركيزَ على أماكنِ مَن معي، ومعرفة ما إذا كان الجميع لا يزال على القارب وبخير. تناثرَت الملابس ولُقيماتٌ من الطعام بالأسفل. كان هناك الخال ستيو. والخال مو. وبراين. كان عقلي عاجزًا عن العدِّ والتركيز.

زحفتُ على الأرض. مَن الناقص؟ ستيو. مو. براين. كانوا جميعًا هنا. كنتُ أزحف بسرعة على الأرض وسط المياه والأوساخ التي كانت تُغطيها. ثم بدأتُ أصرخ: «كودي دوك كودي دوك!» وصلتُ إلى الكابينة الخلفية، وانهرتُ على كومة من الملابس المبتلَّة. «كودي دوك كودي دوك!»

ثم ظهر براين جاثيًا على ركبتَيه بجانبي. «إنه بخير يا صوفي. إنه بخير. إنه بالأعلى.»

«مَن بالأعلى؟»

«دوك. إنه بخير.»

«وكودي؟ أين كودي؟»

بدا الأشخاص مثلَ الأشباح وهم يُسارعون الخُطا جَيئةً وذَهابًا، ويتدافعون لتفريغ المياه.

قال براين: «إنه بخير يا صوفي. إنه هنا. لقد رأيتُه.»

«ماذا حدَث لذراعك؟ لا تبدو على ما يُرام.»

احتضن براين ذِراعَه اليُمنى بذراعه اليُسرى. «أعتقد أنها خُبطت.»

ظل عقلي مُصرًّا على التأكد من وجود الجميع. كنت واثقةً من أنني قد راجعتُ اسم كلِّ واحد عشرين مرة، وفي كل مرة أقول لنفسي أين يوجد هذا الشخص؛ دوك: يقوم بتشغيل مِضخَّة الطوارئ الخاصة بالماء الآسن. مو: على سطح القارب، يؤمِّن الفتحة

الأرضية. براين: يقوم بتصريف الماء هنا بالأسفل. ستيو: يقوم بتصريف الماء أيضًا. كودي؟ أين كودي؟ أين كودي؟ دائمًا ما أتوقف عند كودى. ثم أتذكر، إنه على سطح القارب.

ثم رأيتُ كودي يقف أسفل السُّلم ووجهه ملطَّخ بالدماء. فقد تسبَّبَت قوةُ الموجة في اصطدام رأسه مباشرةً في عجلة القيادة، ونتج عن ذلك جُرحٌ غائر في أنفه وحاجبه الأيسر. اندفع أمامي متجاوزًا إياي إلى الحمام.

تبِعتُه ووجدته جالسًا على الأرض وفي حجره مجموعةٌ من الضمَّادات، وقد بدا بائسًا ومرتبكًا.

قال لي: «صوفي؟». وأردف: «عالجيني.»

زحفتُ إلى الكابينة الأمامية لأُحضر حقيبة الطوارئ الطبِّية، وزحفت عائدةً إلى كودي، وبدأت بتنظيف وجهه من الدم بالماء العذب. كانت الجروحُ غائرة، وعندما بدأتُ في تنظيفها بالمطهِّر، أجفل وبدأ يتقيَّأ.

كنتُ أقول له مُغمغِمةً: «لا بأس يا كودي، لا بأس، إن ذلك من أثر الاصطدام، لا بأس يا كودي.»

أعدتُ تنظيف الجروح البليغة، ووضعتُ كثيرًا من الشاش عليها وربَطتُها جيدًا باللاصق. بدا بائسًا نوعًا ما، لكن وجهه أُسعِف مؤقتًا. عثرتُ له على بعض الملابس الجافَّة، وساعدتُه على بلوغ أحد الأسرَّة ودثَّرتُه ببطانيات صوفية.

إن الألم يَسري في ساقيَّ مثل السهام بينما كنتُ أجلس بجوار كودي لأعتنيَ به. فوضى عارمة تعمُّ كلَّ شيء من حولي. واقي القُمرة المصنوعُ من القماش يرقد في منتصف الطريق إلى سطح القارب، وإطاره المعدني، الذي ثُبِّت على سطح القارب، انخلع من موضعه. كُسِرَت الطاولة في قمرة القيادة، وهوائي راديو الهواة الخاص بنا فُقِد، وأبواب فتحة الكابينة فُقِدَت أيضًا. والسماعات الخارجية فُقدت أيضًا، وكذلك الدَّلو وكرسيٌّ أزرق ومجموعة من الوسائد.

طار الجزء العُلوي من حاوية المياه العذبة الخاصة بحالات الطوارئ؛ مما أدَّى إلى تَسرُّب المياه. ولون الخشب في قمرة القيادة يبدو أفتحَ ثلاث درجات الآن، وبه خدوش وتشقُّقات.

غمرَت المياه كلَّ شيء بالأسفل. فقد دخلت المياهُ من الفتحة كأنها تندفع من خرطوم حريق، يُطلق الماء على كل شيء أمامه. قبل ارتطام الموجة بنا، كان هناك قِدرٌ ضخم ممتلئ حتى نصفِه بالفُلفل الحار، ولا يزال حتى الآن ممتلئًا حتى النصف، ولكن بالمياه المالحة، بدلًا من الفلفل الحار الذي تطاير من القِدر في الهواء.

تعرَّض كلٌّ من جهاز تحديد المواقع وراديو الهواة والرادار للتلف، وتحطَّم سخَّان الكيروسين.

يبدو الأمر كما لو أننا نركب ثورًا، يتعرض لضرباتٍ عنيفة من كل موجة، كانت ضرباتٍ قويةً وكأنَّ صخرةً تصطدم بصخرةٍ أخرى.

الفصل الحادي والخمسون

مترنِّحون

كودي

نحن نترنح وسطَ ما يحدث، ونتلمَّس الطريقَ ببقايا ما لدينا من حَدْس ومهارة. أشعر بانفصالٍ تام عن الواقع، وكأنني لستُ هنا؛ يبدو لي كأني في مكانٍ آخر أُشاهد هذا الفيلم الغريب. لو أنني أعرف النهاية لَساعَدني ذلك. إذا كنا سنعود إلى اليابسة مرةً أخرى، فقد أهدأُ بالًا، ولكن إذا كنا لن نعود، فلماذا نُهدر كلَّ هذا الوقت في إصلاحِ الأشياء والتحدُّث بلغةِ القوارب؟ لماذا لا نفعل شيئًا مهمًّا؟ ولكن تُرى ماذا عساه يكون هذا الشيء؟

الفصل الثاني والخمسون

مضطربون

صوفي

البحر، البحر، البحر. إنه يَهدِر ويمور ويقضُّ مضجعي، بل يقضُّ مضاجعَنا جميعًا.

نرتعدُ عندما نسمع تلاطُم الأمواج. كلما أغمَضتُ عيني، لا أرى سوى تلك الموجةِ المُزبدة العاتية، ولا أسمع غيرَ هديرِها الخفيض الذي يعلو ويعلو مع انكسار الموجة. كلُّنا يخشى النوم، كلنا يخشى عودةَ تلك الموجة.

وعندما نضطجع في أسرَّتنا بالفعل، نقفز منها لدى سَماع أقل صوت لموجة جديدة. أظل أجترُّ المشهد في رأسي مِرارًا من شتى الزوايا. كان الأمر يُشبه عملية الميلاد: كنتُ في

عالمي الصغير المتموِّج حتى اجتاحَتني دَفقةٌ غزيرة من مياه، سحَقَتني جاعلةً مني حزمةً دائرية صغيرة، ودفَعَتني عبر مكانٍ ضيق، ثم أصبحتُ بلا حول ولا قوة، مُبتلَّة المؤخرة، لا يربطني شيءٌ إلا حبلًا أحمر صغيرًا حتى نزَعَته عني يدٌ كبيرة. لم أستطِع الكلام، لم أستطِع شيئًا سوى الأنين والبكاء.

باب فتحة القمرة مُغلَق بإحكامٍ الآن، وتخلَّصنا من معظم المياه بالأسفل. كودي على سطح القارب، وعاد إلى العمل مجددًا، ولكن الخال مو استسلم لدُوار البحر؛ لذا فهو والخال ستيو في شدة البؤس والانهيار. أصيبت ذراعُ براين بالتواءٍ شديد، وكذلك أُصيب ظهر الخال دوك. نحن مجموعةٌ بائسة مثيرة للشفقة.

ما زالت ساقي اليُمنى ترتجف من الألم وتؤلمني في المنطقة حول الركبة والجزء الخلفي من الفخذ. ساقي الأخرى خلَت من الإصابات باستثناء التواء والتهاب في الكاحل. لكن برغم كلِّ ذلك، وبالإضافة إلى ضربةٍ كبيرة في رأسي من الخلف، فإن جسدي لا يزال قطعةً واحدة.

لكنني ممزَّقة إربًا من الداخل. يُراودني شعورٌ غريب وموجع، وأشعر باضطرابٍ بالغ. أحيانًا أشعر أنَّ تمايلًا بسيطًا للقارب، أو أيَّ حركة سريعة ستُمزق جسدي إلى أشلاء متناثرة في البحر.

على مَقرُبة مني يرقد حزام الأمان، تلك القطعةُ الصغيرة من الفولاذ المقاوِم للصدأ التي أنقذَت حياتي، وواحدةٌ مثلُها أنقذَت حياة دوك وكودي. وذلك حتى الآن.

وجهُ كودي ليس على ما يُرام حتى الآن. أمس، عندما بدأ أخيرًا في الاستيقاظ، سألني إذا كنتُ قد أعددتُ له فطيرة. لم أفهم في البداية ما كان يقصده، لكنه قال لي: «مثل بومبي. كان دائمًا ما يحظى بفطيرةِ تفاح عندما ينجو من شيء.»

قلتُ: «ويُجلَد أيضًا»، وظننتُ أن كودي سيضحك على ما قلتُه، لكنه بدلًا من ذلك قال: «هل تعتقدين أن أباه قد ندم يومًا على هذا الجَلْد؟»، فقصَصتُ عليه حكايةً أخرى من حكايات بومبي، لم تُجِب بالضبط عن سؤاله، ولكنها بدَت مناسبةً للموقف نوعًا ما.

الفصل الثالث والخمسون

بومبي ووالده

كودي

عندما فقدتُ وعيي بعد الضربة العنيفة التي تلقَّيتُها في رأسي وتعافيتُ قليلًا، قصَّت عليَّ صوفي حكايةً أخرى من حكايات بومبي. لم تكن كالحكايات الأخرى. فلم يسقط بومبي في الماء أو أي شيء من هذا القبيل. كانت القصة كالآتي:

عندما مرِض والد بومبي وكان قد تقدَّم في العمر، ذهب بومبي لعيادته. كان بومبي يجلس بجوارِ سرير والده كلَّ يوم مدةَ ثلاثة أسابيع.

خلال الأسبوع الأول، جلس بومبي بجوارِ سرير والده وبداخله غضبٌ تجاهه، واستطاع الحديثَ معه بصعوبة. وفي الأسبوع الثاني، تملَّك الغضبُ أكثرَ من بومبي، وجلس بجوار السرير يُذكِّر والده بجميع المرات التي قام فيها بجلدِه.

سأله بومبي: «أتذكر حين سقطتُ من فوق الجسر وكِدتُ أغرق في نهر أوهايو؟ أتذكر عندما جلدتَني وقتها؟» وأردف بومبي: «وهل تذكُر عندما سقطتُ في النهر بينما

كنتُ أقود السيارة، وعندما عدت إلى المنزل انهَلْت عليَّ بالسَّوط بكلِّ قوَّتك؟» ومضى بومبي يُذكِّر والده بينما كان والده راقدًا على السرير مُكتفيًا بالرَّمش بعينَيه في صمت.

خلال الأسبوع الثالث توقَّف بومبي عن الكلام، واكتفى بالنظر إلى والده. أخذ ينظر إلى يدَيه وقدميه، وذراعيه، وساقيه، ووجهه. وضع بومبي يده على جبهة والده ووجْنتَيه. وبعد ذلك غادر بومبي المستشفى، وعندما عاد في اليوم التالي قال لوالده: «انظر ماذا أحضرتُ لك. فطيرة تفاح!»

وأخذ الاثنان يبكيان.

عندما انتهت صوفي من سردِ حكاية بومبي، أردتُ أنا الآخَر أن أقصَّ عليها حكاية. لكن لم تحضرني أيُّ حكايات.

الفصل الرابع والخمسون

السيد مُصلح

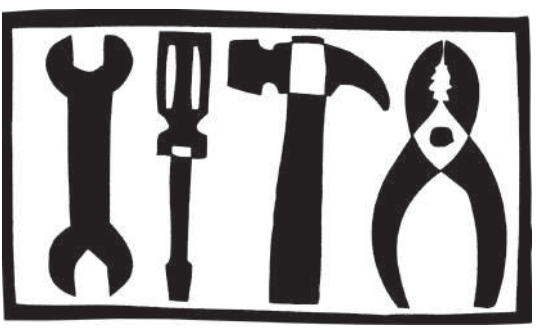

صوفي

على الرغم من أن وجه كودي يبدو بحالةٍ سيئة، فإن بقيته في حالةٍ جيدة، أقصد جسمانيًّا. ولكنه متنبِّه وجادٌّ، ويبدو أنه يرغب في تعويضِ ما ضاع من الوقت. فهو مثل السيد مصلح الذي يعمل بمفرده، مُركزًا جُلَّ اهتمامه على ما يحتاج بالضبط إلى إصلاح وكيفية إصلاحه.

وفي حين لا يستطيع بقيتُنا إلا العمل على أوقاتٍ قصيرة، لا يتوقف كودي عن العمل، ولا حتى من أجل النوم. الجميع يُريدني إما أنا أو كودي على الدفَّة؛ إذ يبدو أننا توصَّلْنا إلى طريقةٍ تجعل القاربَ يسير في تناغمٍ مع الأمواج، ويقولون إن قاربنا يسيرُ بسلاسةٍ أكثر عندما نقوم نحن بتوجيهها. غير أنني لا أستطيع الوقوفَ على الدفة طويلًا بسبب الألم الشديد في ساقيَّ.

الجميع ممتنٌّ لكودي الآن. لم أسمع أحدًا يتفوَّه بذلك جهرًا، لكني أعلمُ أنها الحقيقة. ربما يكونون مُمتنِّين قليلًا لي أنا أيضًا، لكن يبدو أن هذا الأمر لم يعد من الأهميةِ بحيث يُثير قلقي.

أكَّد الخال دوك أن نظام تحديد المواقع وراديو الهواة والرادار قد تلفوا. نحن لا نعرف أين نحن، ولا أحد يعرف أين نحن، ولا يُمكننا طلبُ المساعدة إن ازدادت الأمورُ سوءًا.

ما زلنا نسير بلا أشرعة، نُصلي من أجل أن تهدأ الرياح ويهدأ البحر، وفي الأثناء نبذل كلَّ لحظات استيقاظنا وطاقتنا في إزالة الفوضى التي عمَّت القارب. نحن جميعًا أهدأُ من المعتاد، نُفكر في أننا على قيد الحياة، والخيط الواهي الذي يفصل الحياةَ عن الموت.

الفصل الخامس والخمسون

بللٌ في كل مكان

كودي

مُبتَل، مُبتَل، مُبتَل. يكاد يكون كلُّ شيء على القارب مُشبعًا بالمياه. وحدها الكابينة الأمامية فقط جافة جزئيًّا؛ لذا نتكدَّس هناك عندما يتسنَّى لنا انتزاعُ بضع ساعات للنوم.

ما زالت سهامُ الألم ترشق ساقَ صوفي، لكنها تستطيع المشي. إنها عصبية ومتوترة للغاية، لكنها تُحاول جاهدةً أن تبدوَ ممسكةً بزمام الأمور.

نحن جميعًا منهَكون، منهكون، منهكون. قال براين مقهقهًا منذ بضع دقائق محاولًا المزاح: «الطقس بدييييع!».

لكن لدينا أشرعة مجددًا تعمل بكفاءة. قمتُ أنا وصوفي بثَنيِ الشراع الرئيسي مرتَين، ووضعنا شراعَ العواصف الذي أصلَحْناه في الصاري الخلفي للقارب. يبدو شكلُ القارب غريبًا بعضَ الشيء، لكننا نسير وسعينا جهدَنا أن نجعل القارب قابلًا للمعيشة من جديد. فأعَدْنا غطاءَ قُمرة القيادة إلى موضعه، وأصلحنا السخَّان وعجلة الدفة (التي ثُنِيَت عندما اصطدم رأسي بها).

قد نصل إلى اليابسة.

الفصل السادس والخمسون

ذو نفع

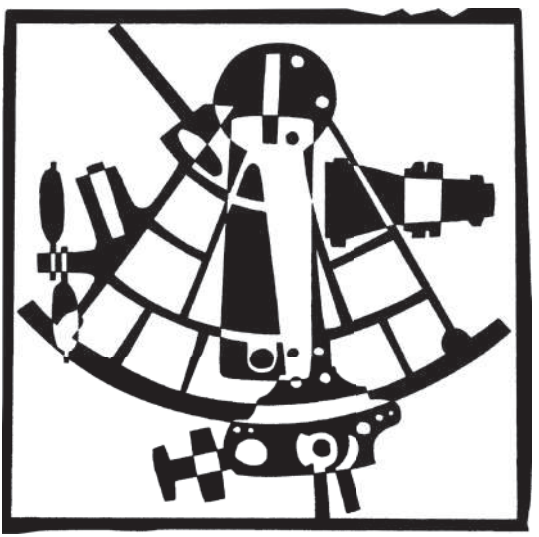

صوفي

نحاول استخدام جهاز السدس في الإبحار؛ إذ إن نظام تحديد المواقع قد «انتهى أمره»، كما يقول الخال دوك. لا يُجيد استخدامَ جهاز السدس إلا براين والخال ستيو، وقد سمعتُ كودي يقول لهما: «أنا سعيدٌ أنكما تستطيعان استخدام هذا الشيء.»

فنظر كلاهما إلى كودي وابتسَما. ولم يقولا حتى أيَّ شيء يُثير ضيقه.

جاء كودي وجلس بجانبي. قال: «أتعلمين، ربما يكون هذا هو كلَّ ما يحتاج إليه المرء، أن يكون ذا نفع.» وعقد رباط حذائي على شكل عقدة سدادة. وأضاف: «وأن يلاحظ أحد ذلك.»

قلت له: «أنت ذو نفع يا كودي.»
قال: «وأنت أيضًا يا سييرا-أوسكار.»

واجهتُ صعوبةً في القيام بنوبة حراستي منذ أن جاءت الموجةُ العاتية. الأمواج الآن ليست بمِثل ضخامتها، لكن الأمر أصبح مخيفًا جدًّا. أنظر دائمًا خلفي، وقد صارت لديَّ قناعةٌ بأنه حتى الأمواج المُحَمَّلة بأقلِّ القليل من الزَّبَد ستكون تَكرارًا لتلك الموجة العاتية.

يبدو كأنَّ مائةَ عام قد مرَّت منذ كنا نصطاد سرطاناتِ البحر، ونجمع المحارَ في جراند ماناَن، ونتسكَّع في وود آيلاند، ويبدو كما لو أن مائة عام قد مرَّت منذ كنا متلهِّفين للإبحار، غافلين عما ينتظرنا.

أشعر أن عليَّ البدءَ من جديد كي أستعيدَ حُب الإبحار؛ لأنني لم أعُد أُحبه الآن. أريد فقط الوصولَ إلى بومبي وأن أنسى أمر المحيط بعضَ الوقت.

لكننا لم نصل إلى هناك بعد. ما زلنا هنا.

أشعر أن بداخلي أشياءَ كانت مخبَّأةً بأمان، مثل الماء الآسِن المخبَّأ تحت الألواح الخشبية للقارب. لكن يبدو أن الألواح قد تطايرَت بفعل الموجة، والأشياء صارت طافيةً ومتناثرة عبر السطح، لا أعلم أين أضعها.

حدَّد كودي العبقري موضعَ سفينة حربية كندية، واتصل بها، وقد أبلغَتنا بموقعنا. نحن بالقرب من الممرَّات البحرية الآن، فإن استطعنا أن نُحدد موضعَ سفينةٍ واحدة على الأقل يوميًّا، فسيتمكَّن كودي من الاتصال بمن عليها عبر الراديو ذي التردد العالي، وسؤالهم عن موقعنا.

نحن على بُعد ٥٠٠ ميل من أيرلندا؛ أي أمامنا أقلُّ من أسبوع إن حالفَنا الحظ، ثم نُبحر إلى إنجلترا.

أوه، بومبي!

الفصل السابع والخمسون

التفكير

صوفي

أفكر في بومبي. أخيرًا سألتقي به. لماذا أنا خائفة؟

الفصل الثامن والخمسون

الطفل الصغير: دفع وجذب

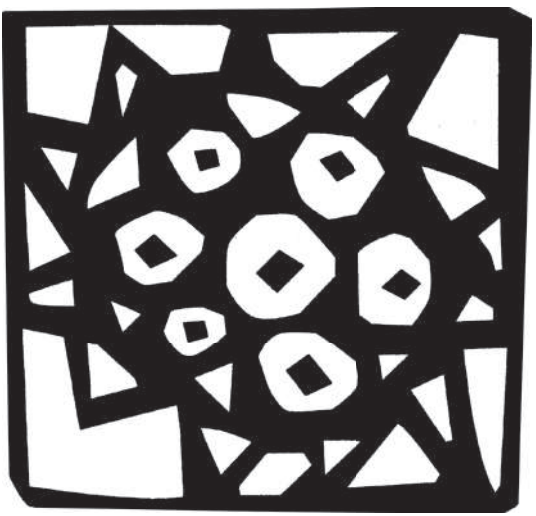

كودي

عندما أستغرق في النوم، أحلم بصوفي. في أحلامي، أراها تتكلَّم باستخدام شفرة الراديو، بينما أُحاول أن أُدوِّن ما تقوله، ولكن الكلمات التي أكتبها بلا معنًى. تتكلم صوفي بصوتٍ أعلى، وأنا أكتب أسرع، ولكني أظل عاجزًا عن فَهم الكلمات التي أكتبها على الصفحة.

أمس، قصَّت عليَّ صوفي حكاية أخرى، ولكنها هذه المرة لم تكن من حكايات بومبي. كنتُ قد سألتها إن كانت تَذكُر أحداثًا من طفولتها.

قالت: «لماذا يسألني الناس دومًا هذا السؤال؟» ثم بعد أن اعتقدتُ أنها ستستدير وترحل، بدأت تُخبرني عن الطفل الصغير مرةً أخرى. روَت القصة كالآتي:

هناك طفلٌ صغير. لا يعلم هذا الطفل الصغير شيئًا عمَّا يجري. إنه يشعر فقط بالبرد والجوع والخوف ويريد أمَّه وأباه. وعندما يُخبره الناس أنهما قد ذهبا إلى السماء، وهو مكانٌ جميل مُشمس ودافئ ليس به مَتاعب ولا أحزان، يحزن الطفلُ الصغير ويتساءل لماذا لم يأخذاه معهما إلى هذا المكان الجميل.

وفي كلِّ مكان يذهب إليه الطفل الصغير، يتساءل الناس عمَّا يتذكَّره الطفل الصغير عن الشخصَين البالغَين اللذين ذهبا إلى ذلك المكان الجميل، لكن الطفل الصغير لا يريد تذكُّر هذا الأمر المؤلم. فلدى الطفل الصغير ما يكفي ليُواجهَه كلَّ يوم. يريد الطفلُ الصغير العيش هنا، في هذه اللحظة، ويريد أن يُفكر في اللحظة الحاليَّة وفيما هو قادم، في هذا الأفق البعيد، وليس في تلك الأوقات التي تُرِك فيها وحيدًا في الماضي.

ولكن أيًّا كان ما يريده الطفلُ الصغير، فثَمة شيءٌ ما بداخله يدفعه إلى المستقبل، وشيء أو شخص آخرُ يجذبه إلى الماضي.

عندما أنهت صوفي قصتَها، لم أجد ما أقوله. كلُّ ما استطعت أن أقوله: «ألا تتمنَّين لو كان لدينا فطيرةُ تفاح؟»

قالت: «نعم.»

لم تنبس صوفي ببنتِ شَفة منذ ذلك الحين، كما لو كانت تُنصِت إلى شيء أو شخصٍ هي وحدها من يستطيع سماعَه. وفي أوقاتٍ أخرى تقف على مقربةٍ شديدة مني، كما لو كانت تتمنَّى أن أُعبِّر عما بداخلها. فأشعر أنني في حلمي مرةً أخرى؛ لأني لا أعرف الكلمات التي تُريدني أن أقولَها نيابةً عنها.

الفصل التاسع والخمسون

أحلام جديدة

صوفي

من الواضح أن الخال مو يُحاول أن يُحسِن معاملة كودي. فلم يَعُد يُوبِّخه، ولم يعد يَنعتُه بالأبله. ويبدو أن كودي لا يعرف كيف يتعامل حِيال ذلك. فهو يُحملق في أبيه كما لو كان يتفحَّص ملامحَ وجهه.

تحسَّن وجهُ كودي كثيرًا. فقد عثرنا على الشرائط الطبية اللاصقة، وساعَدَت بشكلٍ أفضل كثيرًا في التئام الجُروح الموجودة بجانب عينِه وأنفه. عندما نصل إلى إنجلترا، يمكن لكودي الذَّهابُ إلى طبيبٍ حقيقي للكشف عليه. يقول الخال ستيو إنه لا بدَّ من فحصِ

ذراع براين وكذلك ساقي، لكن ساقي تحسَّنَت، ولم تعد تُؤلمني كثيرًا، ولم يعد بها إلا كدمةٌ واحدة مزعجة حول الركبة.

حالُ الخال ستيو أصبح مضحكًا. فعندما تعتقد أنه قد أصبح لديه كثير ممَّا يستدعي القلق الآن، أصبح أكثرَ هدوءًا وطيبة.

عندما كان الخال ستيو يسألني عن ساقي، قال لي: «شعورٌ غريب أن يكون المرء أبًا. فحينها يشعر بالمسئولية عن كل شيء، ويُحاوط أبناءه بقوة لحمايتهم، ويُساوره قلقٌ شديد تجاههم، حتى إنه بالكاد يُفكر تفكيرًا صحيحًا. ولكن في أوقاتٍ أخرى يُدرك أنه لا يملك زِمام أمورٍ كثيرة، وأحيانًا يكون كلُّ ما عليه أن يأمُله أن يسير كلُّ شيء على ما يُرام.»

نظر الخال ستيو إلى براين الذي كان يُعلق قائمةً في المطبخ. وأردف: «وأحيانًا يكون عليه أن يدَع الأمور تأخذ مجراها، ويُصلي من أجل أن يكون أبناؤه بخير بمفردهم دون تدخُّل منه.»

كان بإمكاني فهمُ ما كان يقوله، لكني تساءلتُ إذا كان الأمر نفسُه ينطبق أيضًا على الأبناء؛ أعني أنك أحيانًا لا تستطيع التحكُّم في زِمام الأمور، وعليك في بعض الأحيان أن تدَع الأمور تأخذ مَجراها. بل ربما يكون عليك أن تنسَى والديك. ولكن بعد ذلك أصبح ذهني مُشوَّشًا تمامًا، ولم أستطِع استيعابَ أيِّ شيء، ولا حتى أين كنتُ أو لماذا كنتُ هناك.

أما وقد اجتمعتُ الآن بكودي في نوبةِ حراسة معًا مجددًا، فقد بدأنا في التحدث عمَّا جرى. لا أعرف إن كان أحدٌ غيرنا يفهم تأثيرَ الموجة العاتية علينا نحن الاثنان؛ إذ إن أحدًا — عدا الخال دوك — لم يرَها أو يشعر بقوتها الأولية فورَ اصطدامها بنا، حين سحَقَتنا مثلما يُسحَق البندق في الكسَّارة.

وأظلُّ أفكر في حلم الموجة الذي اعتدتُ أن يُراودَني. ما كان يبدو مخيفًا لي تحديدًا أن الموجة في كل تلك الأحلام كانت هي نفسها الموجةَ العاتية التي عصَفَت بنا؛ الارتفاع نفسُه، والشكل نفسُه. الفرق الوحيد أن الموجة التي كانت في أحلامي كانت سوداءَ اللون، أما هذه الموجة فكانت بيضاء.

في أحلامي، كنتُ دائمًا على اليابسة، ألعب على أحد الشواطئ في الغالب. أتذكَّر أنه في أحد الأحلام، كنتُ أرى الموجة قادمةً من بعيد، فبدأت في تجميع أكياس من الرمل

وتكديسِها لصُنع حاجز. لا أستطيع التخلُّص من إحساس أن الأمواج في أحلامي كانت جميعها تُشير إلى الموجة العاتية التي عصَفَت بنا في المحيط.

والآن تُراودني أحلامٌ أخرى، أحلام أسوأ. في هذه الأحلام، لا أكون على اليابسة، بل في قارب، والموجة قادمة، وتَطولُني وتجرفني بعيدًا، بعيدًا جدًّا، وعندما أستيقظ من حُلمي أشعر كما لو كنتُ لا أزال طافيةً بعيدًا في البحر.

وما زِلت أُعدُّ قوائمَ بالأشياء التي أريد أن أقوم بها في أقربِ فرصة. أريد أن أتعلم النَّسج، وأن أصنع منسجًا خاصًّا بي، وأنسج الأقمشةَ الحريرية مثلما تفعل أمي. أريد أن أركب منطادَ الهواء الساخن. أريد أقفز بالمظلَّات. أسير مسافةً طويلة سيرًا في درب الأبالاش. أقود الدراجة على أحد في الجبال مسافةَ ألف ميل. أركب الكانو في نهرٍ طويل وأخيِّم في الطريق. أتسلَّق الجبال. أبني كوخًا على جزيرةٍ مثل السيدة وكلبها في جراند مانان.

وأريد أن أصطحب أشخاصًا معي. بومبي وكودي والخال دوك. ووالداي. وحتى براين والخال ستيو يُمكنهما أن يأتيا.

ربما أضع الإبحار مجددًا على قائمتي بمجرد أن نصل إلى أيرلندا. عادت الدلافين اليوم، وأخذت تقفز وتدور، وأضحكتني. كانت كأنها دعوة لي: «هيا يا صوفي، استمتِعي بوقتك في البحر.»

يقول كودي إنه يعتقد أننا قد راكَمْنا طاقةً من الجزء الأول من رحلتنا — فكلَّما أصبحتَ أقوى، اختزنتَ طاقة — وعندما عصَفَت بنا الموجة، أصبحَت هذه الطاقة بمنزلةِ طبقةٍ واقية طوَّقَتنا وأنقذتنا. ويبدو ذلك منطقيًّا إلى حدٍّ كبير مثل كلِّ شيء يحدث هذه الأيام.

وقال كودي: «أتعرفين؟ عندما ضرَبتْنا الموجة، هل تعلمين فيما كنتُ أفكر عندما غمرَتني المياه؟ كنتُ أفكر في بومبي ...»

قلت: «وأنا أيضًا!». كنتُ قد نسيت ذلك حتى ذكَره كودي. قلتُ له: «وأنا وسط الموجة، عندما اعتقدتُ أني تحت الماء، كنتُ أفكر في معاناة بومبي في الماء، في الأنهار، في المحيط ...»

قال كودي: «وأنا أيضًا! أليس هذا غريبًا؟ أتعلمين ماذا قلتُ لنفسي وأنا تحت الماء؟ قلتُ أسرع، أسرع!».

«وأنا أيضًا. شيء عجيب.»

قال كودي: «ربما نكون قد فقدنا عقولنا.»

الليلةَ الماضية، خُضت أنا وكودي حديثًا جادًّا جدًّا عن الحياة. تساءلنا إذا كان من المحتمل أن الأشخاص لا يموتون أبدًا، بل ببساطة يستمرُّون في العيش، تاركين أماكنهم. عندما تقتربُ نهايتك، فإنك تموت في مكان، فتكون بالنسبة إلى مَن حولك ميتًا، لكن أنت — أنت نفسُك — لا تتوقَّف عن الوجود. بل تستمرُّ في العيش كما كنت دائمًا، ويبدو الأمر كما لو كنتَ قد نجَوت من موت محقَّق. تساءلنا إذا كان كلٌّ منا ليس مجردَ شخص واحد، بل أشخاص كثيرون يعيشون في ملايين الأماكن المختلفة، مثل شجرة تتفرَّع ثم تتفرع ثانيةً وتستمرُّ في ذلك، لكن دائمًا ما يكون لها جذع رئيس واحد.

بدأت أشعر بصُداع من فرطِ التفكير، ثم قال كودي: «أثناء الليل وفي وسط المحيط يُفكر المرء في أشياءَ غريبة. لنتوقَّفْ عن التفكير. لنلعب لعبة الرمي.»

وقد كان. قذَفْنا جواربَ مُبتلَّة.

الفصل الستون

تساؤلات

كودي

لا يصرخ أبي في وجهي ويسألني دائمًا إن كنتُ بخير. أريد أن أتحدَّث معه، لكني لا أعرف كيف أفعل ذلك، أو ماذا أقول.

ما أتعجَّب منه هو: كيف أنك لا تُلاحظ مرورَ الوقت، ولا تشعر أنك تتغيَّر بطريقةٍ ما، ولكنك تُدرك فجأةً أن ما تُفكر به اليوم مختلف عمَّا كنتَ تفكر به أمس أو الأسبوع الماضي أو الشهر الماضي؟

أشعر كما لو أنني كنتُ نائمًا طيلةَ حياتي، وأتمنى لو أنني كنتُ أطرح تساؤلات مثلما تفعل صوفي، وأتمنى لو كنتُ أعرف أشياءَ أكثر. ولكن على الرغم من شعوري ذاك، لا أعرف كيف أتحوَّل إلى شخصٍ يطرح الأسئلة ويعرف أكثر.

وأبي؛ لقد كنتُ أراه كلَّ يوم في حياتي تقريبًا، ولكنه فجأةً يبدو كأنه شخصٌ غريب عني تمامًا. لا أعرف عنه أيَّ شيء. فلا أعرف أين وُلِد أو ماذا يفعل في عمله، أو كيف أُصيب بتلك الندبة التي على جبهته.

الجميع يتحدَّث عن الوصول إلى أيرلندا، لكنَّ لديَّ شعورًا غريبًا بأننا لن نصل إلى هناك، أو أنني لستُ مستعدًّا لأن أكون هناك. وماذا سيحدث لصوفي عندما نصل إلى بومبي؟ ربما يكون هذا جزءًا من السبب الذي يجعلني لا أريد الوصولَ إلى هناك. أنا خائفٌ على صوفي.

وأظلُّ أتساءل مِن أين لصوفي بحكايات بومبي، وإن كانت هذه هي حقًّا حكايات بومبي، وإذا كانت كذلك، فهل أخبرها فقط بالحكايات المتعلِّقة بصِراعه في الماء، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا فعَل ذلك؟

وبعد ذلك تذكَّرتُ حكايةً من حكايات بومبي لم تكن عن الماء. كانت عن موت أبيه. حلمتُ الليلة الماضية أن بومبي كان يُخبرني بهذه القصة، وعندما استيقظت ذهبتُ أبحث عن أبي، وكان مستلقيًا على أحدِ الأسرَّة، فوخزتُه حتى استيقظ.

قلت له: «كنتُ أطمئنُّ عليك فقط.»

اليابسة

الفصل الحادي والستون

أهوي أهوي

صوفي

في الساعات الأولى من الصباح، أثناء نوبة حراستي أنا وكودي ودوك، صاح كودي: «هناك ... أهوي!»

حملقتُ في الظلام. وقلت: «ماذا؟ أين؟»

«هناك ... هل ترَين هذا الشيء المُظلم؟»

أنعَمْنا النظر في الشيء المُظلِم الذي يشير إليه كودي حتى أدرَكْنا أنه لم يكن إلا سحابةً منخفضة.

وبعد مرور نصف الساعة، صاح كودي: «أهوي!»

«أين؟»

«هناك ... أضواء!»

«أتقصد تلك الأضواء المتحركة ... أضواء القارب؟»

قال: «اللعنة.»

ولكن بعد ذلك، قُبيل الفجر مباشرةً، رأيناه، رأينا جزءًا من شيء مُظلم يظهر من خلف السحُب الرمادية المزرقة.

صاح كودي: «أهوي، أهوي، أهوي!». وصاح مُكررًا: «أهوي، أترون ماذا هناك؟».

كان جبلًا. اليابسة. إنها اليابسة!

دندنَ كودي: «أنا أرى جبلًا، أرى جبلًا جميلًا!»

اليابسة، اليابسة، اليابسة! اليابسة المباركة. اليابسة الجميلة!

أيقظنا جميعَ مَن في القارب، وفي غضونِ ساعاتٍ قليلة كنا نُبحر على طول الساحل الجنوبي لأيرلندا. أشعر براحة شديدة لكون اليابسة هي ما تُوجِّهنا وليس البوصلة. أوه، إنها اليابسة!

كان الخال دوك في حالة جيدة. وقف بجانب السور وأخذ يُلقي جزءًا من قصيدة. قال إنه من قصيدة «قافية البحَّار العجوز»:

«آه يا حلم المسرَّة! أهذه حقًّا
قمة المنارة تلك التي أراها؟
أتلك هي التلة؟ أهذا هو المعبد؟
أهذا هو موطني؟»

عندما طلبتُ منه أن يُكرِّرها ثانيةً حتى يتسنَّى لي كتابتها، أخبرني بالتهجئة السليمة لبعض الكلمات. أحبُّ ذلك. كان عليَّ أن أسأله عن المقصود بالمعبد. فقال لي إن المعبد يُقصَد به الكنيسة. وبالفعل كنا نرى من موقعنا هذا منارةً وكنيسة.

أعدنا إلقاءَ القصيدة جميعًا مع الخال دوك، وعندما انتهينا أضاف كودي: «أوه، روزالي!»

قال الخال دوك: «ماذا دعاك لتقول هذا؟»

أجاب كودي: «لا أعلم. شعرتُ فقط أن الموقف مناسبٌ لها بشكلٍ ما.»

أصبحنا بمُحاذاة الساحل الجنوبي الغربي، ونحن الآن نقترب من كروسهافين. الطقس هادئ، وأشعَّة الشمس تسطعُ سطوعًا لم نعهده من قبل، تُلقي ضوءها على الجُرُف

الصخرية وحقول أيرلندا الخضراء المتموِّجة لتُنيرها. مرَرنا على قِلاعٍ عتيقة ومَزارع، وأبقارٍ ترعى، وسيارات صغيرة متناثرة في كل مكان. أريد أن أنفخ الزورقَ القابل للنفخ، وأُسرع إلى الشاطئ.

لكن نشب شِجارٌ بالأسفل بين الخال ستيو والخال مو. سمعنا كثيرًا من الصياح وأصوات أشياء تُقذَف.

الفصل الثاني والستون

اليابسة

كودي

نحن على اليابسة! نحن على قيد الحياة وعلى اليابسة!

ظننتُ أنني أهذي عندما لمحت اليابسة للمرة الأولى، أرضٌ حقيقية تنمو عليها الأشجار وتتحرَّك عليها السيارات.

ولم نكَد نبلغ الميناء حتى نشب شِجارٌ عنيف بين أبي والعم ستيو. بدأ الأمر حينما سأل العمُّ ستيو عن الشخص الذي سيتولَّى أمر إصلاح «ذا وندرر»، وإذا كان على الباقين استئجارُ سيارة والذَّهابُ إلى منزل بومبي بدلًا من الانتظار للإبحار إلى إنجلترا بعد إصلاح القارب.

وفي خِضمِّ هذا النقاش، بدأ الاثنان يتشاجران بشأنِ أيٍّ من البالغين سيبقى مع القارب، ثم قال العم ستيو إن صوفي يجب أن تبقى هي الأخرى؛ يجب ألَّا تذهب إلى منزل بومبي! ووافقَه براين الرأي. ثم نزلَت صوفي إلى الأسفل في وسط كلِّ هذا الشجار وقالت: «أنا ذاهبةٌ إلى منزل بومبي، انتهى الأمر.»

إنها فوضى.

حاولنا الاتصالَ بأمي، ولكنها لم تُجب. وحاولَت صوفي بعد ذلك الاتصالَ بأبوَيها، ولا مُجيب. ثم حاول العمُّ ستيو الاتصالَ بزوجته، فأجابه جهازُ الرد الآلي، فترك لها رسالةً تُخبرها بوصولنا. لا أصدِّق أن لا أحد بالمنزل! ظننتُ أنهم سيكونون منتظرين بجانب الهاتف، لكن العم دوك قال: «حسنًا، ليس لديهم أيُّ فكرة عن موعد بلوغنا اليابسة، كان من الممكن أن نَبلُغها منذ ثلاثة أيام مضَت، أو الأسبوع المقبل أو ...» وأعتقد أنه مُحقٌّ في ذلك، لكنَّ سماعَ صوتٍ مألوفٍ يحتفل معنا بسلامة الوصول كان سيُصبح شيئًا لطيفًا.

اعترى صوفي بعضُ القلق. ظلَّت تسأل مِرارًا: «أين هم؟».

نحن الآن نسير مُترنِّحين مُحاولين تعلُّمَ المشي من جديد، وقد ذهب أبي لاستئجار سيارة للذَّهاب بها إلى إنجلترا، وما زلنا لا نعرف بَعدُ مَن الذي سيذهب.

لكننا على اليابسة! وعلى قيد الحياة!

الفصل الثالث والستون

ثرثرة بلا حساب

صوفي

لم أكن سأكتب في دفتر اليوميات هذا بمجرد بُلوغنا اليابسة، ولكن كودي لا يزال يكتب في المُكدِّرة الخاصة به. إنه يقول إن الرحلة لم تنتهِ بعد.

بمجرد رُسوِّ «ذا وندرر» بعد ظهر أمس، تعثَّرنا في المشي على اليابسة، وكان ذلك غريبًا للغاية. فقد بدَوْنا بُلْهًا ونحن نترنَّح بهذا الشكل، كما لو كانت الأرض تهتزُّ تحت أقدامنا ولا نستطيع الاحتفاظَ بتوازُننا. تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بدُوار البحر؛ دوار بحر على اليابسة!

دلَفْنا إلى إحدى الحانات، وطلبنا ما لذَّ وطاب من الطعام، طلبنا أطباقًا كبيرة منها؛ أطباقًا بها أشياء تسبح في المرق، وأرغفة خبز طازجة، وألوان من الخَضراوات والفواكه

الطازجة. كان شعورًا غريبًا ألا يكون علينا التمسُّكُ بالأطباق أثناء الأكل، وكم هو غريبٌ أن نستطيع الأكل والشرب في آنٍ واحد.

كنا جميعًا نُثرثر في جنون، نتكلم مع أي شخص على استعداد أن يسمع. وفي لحظةٍ من اللحظات، نظرتُ حولي لأجد كلًّا منا يتكلم مع شخصٍ غريب، كلٌّ منا يحكي قصتَنا.

«كان يجب أن ترى تلك العاصفة ...»

«تحطَّمَت عارضاتُ الصاري في القارب ...»

«الأمواج ... كالجبال ...»

«أتلفتَ الرادار، كل شيء ...»

«ظننتُ أننا قد انتهينا ...»

«أُصِبتُ بجروحٍ غائرة في وجهي ...»

«الرياح ... لا يمكن تخيُّلها ... دويُّ الرياح ...»

«اصطدمَت بنا ...»

«عصفَت بنا ...»

«جرفَتْنا ...»

كنا نُثرثر بلا حساب. وكان الغرباء يُومئون برءوسهم لنا، ويتبادلون معنا قصصَهم.

«البحر شيطان ...»

«إنه مخلوقٌ غدَّار ...»

«وعمي قد غرق هناك ...»

«فُقد سبعةَ عشر قاربًا في عام ...»

«أترى تلك الساق؟ إنها ليست ساقي. فقد أخذ البحرُ ساقي الحقيقية ...»

ظللنا ساعات على هذا الحال؛ تتدفَّق الكلمات من أفواهنا، وفي لحظةٍ ما تساءلتُ عن مدى اهتمام هؤلاء الغرباء بما كنا نقوله لهم، أو إذا كانوا مهتمِّين أساسًا، ولماذا شعَرنا بهذه الحاجة المُلحَّة إلى إخبارهم بقصتنا، ولماذا قصُّوا علينا قصصَهم.

في وسط كل هذا، شعرتُ بكودي يُراقبني ويستمع لما أقوله، وكأنَّ ما أقوله غريب. حاولتُ أن أُنصت لما أقوله، ولكني كنتُ مندمجةً في الحكي وفي سَماع ما يقوله الآخَرون، لدرجة أنني لم أستطِع التركيز.

ومع انحسار ضوء الشمس بالخارج، شعرت أننا نعرف هؤلاء الأشخاص وأنهم يعرفوننا. أخبَرونا بأماكن للمبيت لقضاء هذه الليلة، وساروا معنا إلى القارب، فهزُّوا

رءوسهم أسفًا على الحالة المزرية لـ «طفل» دوك، وساعَدونا في حمل ملابسنا المُبتلَّة إلى أعلى التلِّ الطويل، وتمنَّوا لنا جميعًا قضاءَ ليلة هادئة وهانئة على أرض وطنهم أيرلندا.

راودَتني أحلامٌ غريبة، رأيت فيها أشخاصًا كثيرين يجيئون ويذهبون. رأيتُ جوي صديقَ دوك الذي يعيش في بلوك آيلاند، وفرانك وأسرته الذي يعيشون في جراند مانان، والسيدة وكلبها، وروزالي حبيبة دوك، والأيرلنديِّين الغرباء، وبين كلِّ هؤلاء الناس تبادلَ كودي والخال دوك وستيو ومو وبراين الظهور. وأنا. كان ثَمة أشخاصٌ آخَرون أيضًا، أشخاص بدَوا مألوفين، وبدا أنهم يعرفونني، لكنهم اختفَوا وسط الزحام قبل أن أتمكَّن من معرفة مَن هم.

الفصل الرابع والستون

جسدٌ جديد

كودي

خبا الضوءُ بالخارج تقريبًا، ولكني لا أستطيع النوم. كل شيء رائحته وشعوره مختلف. لا تَمايُل ولا اهتزاز ولا رياح. نحن في نُزلٍ أيرلندي يقع أعلى أحد التلال، وأستطيع أن أرى الميناء من النافذة، وكذلك أرى قاربَنا يتمايل هناك.

كان اليوم غريبًا أمس. شعرتُ أن لديَّ جسدًا جديدًا، وأن هذا الجسد الجديد لا يعرف كيف يعمل جيدًا. كان يمشي بطريقةٍ مضحكة ويصطدم بالأشياء، ويريد أن يلمسَ أغرب الأشياء: الأرض، الوسائد، المناشف الجافَّة.

كنا في حالة من النشاط المُفرِط الليلةَ الماضية، نتكلم كما لو كنا قد وُهِبنا أصواتًا للتو. لم أسمع صوفي قط تتكلَّم كثيرًا هكذا. في البداية، كنت أنا نفسي أتكلم كثيرًا، إلى حدٍّ أنني لم أكن أستمعُ لأي أحد. ثم سمعتُ براين يقول: «كنتُ مستغرقًا في النوم عندما

اصطدمَت بنا، وظننتُ أنني هالك! لم أشعر بمثلِ هذا الخوف قط في حياتي! شعرتُ وكأنني دجاجةٌ صغيرة ضعيفة تنتظر الذبح في سوق للحوم.» كان يخبط على الطاولة ويُمسك عنقه بقوة، ولا أعرف، لقد فاجأني بقدرته على تحويل تلك القصة المخيفة إلى قصةٍ شِبه مضحكة.

ثم سمعتُ صوفي تقول لشخصٍ ما: «نعم، هذان ابنا أخوالي»، وأشارت إليَّ أنا وبراين، وأردفَت: «وكنا نُخطط لهذه الرحلة منذ كنا أطفالًا صغارًا ...»

كنتُ سأقوم بتصحيح ما تقوله، ثم أدركتُ أنها كانت تخلط بين قصَّتها وبين قصةِ أبي والعم ستيو والعم دوك.

قالت: «لم يعتقد براين أننا سننجح في ذلك، ولكني لطالما عرَفتُ أننا سننجح.»

ثم تحدَّثت عن الموجة العاتية، وكيف ارتفعَت خلف القارب. قالت: «وكانت شديدةَ السواد وعاليةً و...»

لقد كانت الموجةُ العاتية بيضاء.

الفصل الخامس والستون

صراعٌ داخلي

صوفي

نحن في السيارة في طريقنا إلى منزل بومبي، أنا وكودي وبراين والخال مو والخال ستيو والخال دوك. تركنا «ذا وندرر» مع شخصٍ وجدَه الخال دوك للبدء في إجراء الإصلاحات المطلوبة، بينما نذهب نحن جميعًا بالسيارة إلى منزل بومبي. وكان ذلك على إثر شجارٍ كبير. نحن جميعًا نَزِقون وفي حالةٍ مِزاجية سيئة الآن، ولا نكاد نتحدَّث معًا. أصيب الخالُ دوك بخيبةِ أمل كبيرة؛ إذ إننا لا نستطيع الإبحارَ بالقارب حول ساحلِ أيرلندا؛ لأنه أراد التوقُّف عند منزل أحدِ أصدقائه الموجود في إحدى البلدات الساحليَّة. وأخيرًا استطاع إقناعَ الخال ستيو والخال مو بأن نسلك بالسيارة الطريق المؤدي إلى منزل صديقه، والتوقف هناك مدةً وجيزة.

قال الخال ستيو: «ولكنها ستكون زيارةً عابرة!».

قال الخال مو: «لن نقضيَ هناك أسبوعًا أو شيئًا من ذلك.»

لم ننجح في الاتصال بأقاربنا الليلةَ الماضية نظرًا إلى وجود أعطال في هواتف الفندق؛ لذا لم يتَسنَّ لنا بعدُ التواصلُ مع الأقارب في أرض الوطن. وهو أمرٌ مُقلِق لي. أين الجميع؟ آمُل أن نتمكَّن من الاتصال بهم من منزلِ صديق الخال دوك.

نحن مكدَّسون في هذه السيارة مثل سمك السردين، ومن الصعب الكتابةُ في دفتر اليوميات الآن؛ لأن براين يختلس النظر من فوق كتفي، مُحاولًا معرفةَ ما أكتب. يقود الخال ستيو السيارة، وسنكون محظوظين إذا تمكَّنا من الوصول أحياءً. فنحن ننعطف بالسيارة يَمنةً ويَسرةً عبر طُرقٍ ضيقة، والخال ستيو ينسى باستمرار أن عليه السيرَ بالسيارة على الجانب الأيسر، وكادت السيارة بالفعل أن تدهسَ قطيعًا من الخِراف وعددًا من المزارعين أمامنا.

كل شيء في غاية الجمال؛ الأرض الشديدة الخُضرة، والجُرُف المُطلَّة على البحر. أكانت حقًّا أمواجُ هذا البحر تتقاذَفنا منذ أيامٍ قليلة؟ كنت أتمنى ألا نكونَ في هذه الحالة المِزاجية السيئة حتى نتمكَّن من التوقُّف والتجول في بعض من هذه البلدات الصغيرة. ولكن بدا من الصعب ثَنيُ أخوالي عن عزمِهم. فهم عازمون الآن على التوقُّف سريعًا عند منزل صديق الخال دوك في زيارةٍ عابرة ثم الذَّهاب إلى بومبي.

أشعر بصراعٍ داخلي، أتوق شوقًا إلى رؤية بومبي، ولكني في الوقت نفسه خائفة جدًّا من ذلك.

الفصل السادس والستون

الضيف

صوفي

يا لعجائب الزمن!

دخَلنا بالسيارة في حارةٍ ضيقة في قريةٍ صغيرة على ساحل أيرلندا، وتوقَّفنا خارجَ كوخٍ صغير، وصعد الخال دوك إلى الباب، وعندما فُتِح، رجع إلى الخلف مترنحًا وأمسك بصدره بقوة.

كنا جميعًا نُخرج رءوسنا من نوافذ السيارة مثلَ مجموعة من البلهاء، مُحاولين إلقاءَ نظرةٍ أوضح على ما يحدث. بعد ذلك عانق الخال دوك شخصًا يرتدي فستانًا أصفرَ اللون عناقًا حارًّا، وسمعناه يقول: «أوه! روزالي!»

قلنا جميعًا: «روزالي؟ روزالي؟».

وخرَجنا جميعًا من السيارة في تدافُع، فأفلَت الخال دوك روزالي من يدَيه؛ ومن ثَم تمكنَّا من إنعام النظر فيها. كان وجهُها هو أجملَ وجهٍ يمكن أن تراه في حياتك، وكانت لها عينان مستديرتان نَجلاوان، وقد انفرَجَت شَفتاها عن أعرضِ ابتسامة يمكن أن تراها في حياتك، ربما باستثناء ابتسامة الخال دوك التي كانت أكبرَ ابتسامة في الكون.

الفصل السابع والستون

مكالمات هاتفية

كودي

تزداد هذه الحياة الغريبة التي نعيشها غرابةً أكثر وأكثر. فأمس، فوجئ الخال دوك بأكبرِ مفاجأة في حياته عندما وجد روزالي في منزلِ صديقه — وصديقها — في أيرلندا. لم يبدُ لي أننا سننجح قَط في الفصل بينهما.

سمح لنا صديقُ دوك باستخدام الهاتف، فاتصلنا جميعًا بأقاربنا في أرض الوطن، وكان الجميع على كِلا جانبَي المحيط يقفز فرحًا، وكان الناس يصرخون ويضحكون، ثم ارتمينا جميعًا على الأرض من شدة الإجهاد.

ظلَّت صوفي تقول: «لا أصدق ذلك. لم أعتقد قَط أنني سأسمع صوتَهما مجددًا. أنا لستُ في حلم، أليس كذلك؟ لقد اتصلتُ بهما وكانا هناك، أليس كذلك؟»

كان الخبر غيرُ السارِّ الوحيد في هذا اليوم عندما قالت والدةُ صوفي إن بومبي ليس بخير، وإنها كانت عازمةً على السفر بالطائرة لتراه بنفسها، لو لم نتصل بها بحلولِ يوم غد ونَقُل إننا أصبحنا بالقرب من بومبي.

لذلك هُرِعنا جميعًا إلى الذَّهاب إلى بومبي في أسرع وقت، ولم يشأ دوك ترْكَ روزالي، واضطُرِرنا فعليًّا إلى أن نجذبه إلى الخارج. السبب الوحيد الذي جعل دوك يغادر أصلًا أن روزالي قد وعَدَته باللَّحاق به في منزل بومبي في غضون بضعة أيام.

بمجرد ركوبنا السيارة مجددًا، بدأ الجميع يقول: «روزالي! أوه، روزالي!» فاحمرَّ وجهُ الخال دوك، لكنه كان في غاية السعادة إلى حدِّ أنه لم يُبالِ حتى بمزاحنا ذاك معه.

نحن الآن على متن العبَّارة، نعبر البحر الأيرلنديَّ باتجاه ويلز. أبحث دومًا عن الأشرعة؛ لشعوري بأن من المفترض أن أكون منهمِكًا في شيء. يمكنني القول إن أيًّا منا لم يكن متشوِّقًا لركوب البحر في قارب مرةً أخرى.

ظل أبي يتساءل: «ألا يوجد جسر؟». وأضاف: «هل أنتم متأكدون من أنه لا يوجد جسرٌ يؤدي إلى ويلز؟»

قال الخال ستيو: «أبله.»

فحذَّره أبي: «لا تبدأ بالعبث معي.»

ظل براين يُضايق صوفي. قال لها: «هل تعتقدين أن بومبي سيتعرَّف علينا؟»

قالت صوفي: «بالتأكيد سيتعرف علينا.»

«كلنا؟»

قالت صوفي: «بالتأكيد.»

ولكنَّ ثمة شيئًا مختلفًا في الطريقة التي يُضايق بها براين صوفي الآن. إنها لا تبدو شريرة كسابق عهده، بل تُشعرك بأنه يُحاول جاهدًا فهمها، وأنه قلقٌ بشأنها أيضًا. يحبُّ براين الحقائق والوقائع والقوائم، وأعتقد أنه ينزعج بشدة من شخص مثلِ صوفي، التي ترى العالم بشكلٍ مختلف عنه. يظل براين يسألني عما يجري مع صوفي، وعمَّا سيحدث عندما نصل إلى منزل بومبي. أخبرتُه أنني لستُ بقارئ للأفكار ولا عرَّاف.

الفصل الثامن والستون

ويلز

صوفي

انطلقنا عبر ويلز طولًا وعرضًا. الخُضرة تلفُّ الريف، وتُضفي عليه نَضرةً وجاذبية لا توصَفان، ولكن من الصعب التعوُّد على السيارات والضوضاء والسرعة. أتمنى لو توقَّفنا مدةً أطول. فأنا أتوق إلى النظر من نوافذ البيوت والاستماع إلى أحاديث الناس. ماذا يفعلون يوميًّا؟ من الذي يعيش في كل تلك البيوت؟

لكننا نُسارع الزمن للوصول إلى منزل بومبي؛ لأن صحته ليست على ما يُرام، والجميع قلقٌ عليه الآن، وهو ما يُخيفني بشدة. قبل ذلك كنتُ فقط خائفةً من مقابلة

بومبي وماذا سيعني ذلك، ولكني الآن خائفةٌ ألَّا نجدَه أصلًا على قيد الحياة عندما نصلُ إلى هناك، وهذا سيكون أسوأ بكثير.

توقَّفنا الآن عند نُزل صغير في قريةٍ مظلمة وهادئة، وسوف أعود إلى الأسفل الآن؛ لأُنصت إلى أحاديث الناس.

الفصل التاسع والستون

الفتاة الصغيرة

كودي

انطلقنا عبر ويلز. يا إلهي، هل أحبَّت صوفي ويلز! لقد ظلَّت تقول: «ألَا تحبُّ أن تعيش هنا؟ في هذه القرية؟ أين المدرسة التي سنذهب إليها؟ ماذا سنتناول على الفطور؟ تُرى من يعيش في ذلك البيت الصغير الكائن هناك؟»

ولكن الليلة الماضية كانت الأغربَ على الإطلاق. كنا في نُزل صغير، في انتظار صوفي لنتناولَ طعام العشاء بالأسفل، وكان براين يُلحُّ على العم دوك ليُخبرنا بما حدث لوالدَي صوفي الحقيقيَّين.

قال براين في إصرار: «من حقِّنا أن نعرف.»

قال العم دوك: «ليس لديَّ فكرة عن هذا الموضوع.»

قال العم ستيو: «ماذا حدث؟». وأردف: «لا يُخبرني أحدٌ بأي شيء مطلقًا.»

قال براين: «لماذا تكذب صوفي دائمًا بشأن والديها؟ هذان ليسا والديها. لماذا تكذب بشأن بومبي؟ سوف أسألها صراحةً عن سبب كذبها.»

قال العم دوك: «صوفي ليست كاذبة.»

قال براين: «بل كاذبة إلى أقصى حد.»

قال العم دوك: «اسمع، سوف أقول لك شيئًا. سوف أروي لك حكاية ...»

قال براين: «لا أريد حكاية. أريد الحقيقة.»

قال العم دوك: «فقط اسمع. ذات يوم كانت هناك طفلة تعيش مع والديها بجانب المحيط. كانت أسرةً صغيرة جميلة، وكانت الفتاة محبوبةً للغاية. ولكن حدث شيء ... الأبوان ... لقد مات الأبوان، ثم ...»

شعرتُ برأسي يطنُّ وكأنه قُصِف بوابلٍ من الألعاب النارية. قلت: «انتظر!». وأردفتُ: «بعد ذلك ظلَّ الجميع يُخبر هذه الفتاة الصغيرة كيف أن أبويها قد ذهبا إلى السماء ...»

قال دوك: «لا أعرف بالضبط ...»

أكملتُ أنا القصة. قلت: «كان الجميع يقول كيف أن السماء مكانٌ جميل للغاية، وما إلى ذلك، وليس به متاعب ولا أحزان، ممَّا أحزن الطفلةَ الصغيرة بشدة؛ لأن أبويها قد ترَكاها وذهبا إلى هذا المكان الجميل بدونها ...»

قال دوك: «حسنًا، لا أعرف بالضبط. كلُّ ما أعرفه أن هذه الفتاة الصغيرة قد ذهبَت بعد ذلك للعيش مع ...»

قلت: «انتظِر. مع جَدِّها؟ هل عاشت مع جدها؟»

قال العم دوك: «نعم. لكنها عاشت مع جدها مدةً قصيرة فقط، ثم مات هذا الجد، فذهبَت للعيش في منزل عمَّتها، ولكن العمة ...»

قلت: «العمة لم تكن تريد الطفلةَ الصغيرة، أليس كذلك؟». وأكملتُ: «فذهبت الطفلة للعيش برفقةِ أسرةٍ بديلة أو ما شابهَ ثم أخذَت تتنقَّل بين الأسر. لم يُرِدها أحدٌ على الأرجح. لقد عاشت في أماكن كثيرة جدًّا، أليس هذا صحيحًا؟»

قال العم دوك: «بلى.»

قال براين: «ماذا يحدث بحق الجحيم؟ كيف عرَفتَ كلَّ هذا يا كودي؟».

قال العم ستيو: «لماذا لا يُخبرني أحدٌ أبدًا بكل هذا؟».

قلت: «وأخيرًا تبنَّت إحدى الأسر الفتاةَ الصغيرة، صحيح؟»

قال العم دوك: «صحيح.»

«حينئذٍ»، وكنتُ أتحدث بسرعةٍ بالغة حقًّا، «أرادت الفتاة بشدة أن تكون مرغوبة، لدرجة أنها أقنعَت نفسها بأن هذه الأسرة هي أسرتُها الحقيقية، أسرتها الوحيدة، وأنهما قد اختاروها وأحَبُّوها، ولا يستطيعان العيشَ دونها.»

عندما وصلتُ إلى هذه النقطة، دخلَت صوفي الغرفة، فحملقنا جميعًا فيها، ووضع براين رأسه بين يدَيه وقال: «أوه. أوه!»، وقال العم ستيو: «يا إلهي. لا أحد يُخبرني بأي شيء على الإطلاق!»

ثم تناولنا العشاء.

لم أستطِع أن أتناول الطعام إلا قليلًا؛ لأن كلَّ ما استطعتُ فِعله هو النظر إلى صوفي، صوفي الجديدة كليًّا، وكان الجميع ينظر إليها أيضًا، وأخيرًا وضَعَت الشوكةَ على المائدة وقالت: «لماذا يُحملق فيَّ الجميع بالضبط كما لو كنتُ شبَحًا أو شيئًا ما من هذا القبيل؟»

قال العم دوك: «أنتِ فقط تَبْدين الليلةَ مميزةً جدًّا يا صوفي، هذا كل ما في الأمر»، فأحنَت رأسها، ورأيتُ دمعةً وحيدة تسقط على خدِّها ثم على الطبق.

عبرنا للتو نهر سيفرن (كان هناك جسر! وليس عبَّارة!) ونحن الآن في إنجلترا. بكى أبي والعم دوك عندما دخلنا إنجلترا. سألتُ صوفي عن سبب بكائهما، وقال العم دوك: «إنجلترا! إنجلترا!» ولم تكن تلك إجابةً بالمعنى الدقيق.

قالت صوفي: «وما المشكلة؟»

قال أبي: «لقد وُلِد أبونا هنا.»

قالت صوفي: «أعرف ذلك.»

سأل براين: «ولماذا يجعلكما ذلك تبكيان؟».

قال أبي: «أبونا. بومبي. وُلِد هنا.» ثم التفت إلى العم ستيو. «هل تفهم ما أقصد؟ لقد وُلِد بومبي هنا.»

قال العم ستيو الذي كان يقود السيارة: «عليَّ التركيز هنا، إلى أين نحن متَّجهون الآن؟ مَن معه الخريطة؟»

فالتفت أبي إلى العم دوك: «دوك؟ اشرح له أنت. فالأمر مؤثرٌ بعض الشيء ...»

قال دوك: «بالتأكيد. أنا أعرف ماذا تقصد. فأبونا قد وُلِد في هذا البلد؛ مما يعني أن جزءًا منا هنا أيضًا. نحن جئنا من هنا ...»

ثم عمَّ الصمتُ الجميع، وظلُّوا يُحملقون في المناظر الريفية.

قالت صوفي: «فقط فكِّروا في الأمر. لو لم يأتِ بومبي وأبواه إلى أمريكا، لكنتم قد ترعرعتم في إنجلترا أيضًا. ولَمَا كنتم قد أصبحتم أمريكيِّين. كان سيُصبح هذا موطنَكم.»

أومأ أبي برأسه. «هذا بالضبط ما كنتُ أفكر فيه.»

قال براين: «حسنًا، لو ترعرَع بومبي هنا، فربما لم يكن ليتزوج الفتاةَ التي تزوَّجها، وما كنتم جميعًا وُلدتم وأصبحتم هنا الآن. أو ربما لو وُلدتم هنا، لترعرعتم هنا وما كنتم تزوَّجتم ممَّن تزوجتم بهن، ولم أولَد أنا. ولا كودي ...»

همسَت صوفي: «وهل كنتُ سأولد؟»

نظر الجميع إليها ثم إلى الريف مجددًا، وقال براين بجِديةٍ شديدة: «والآن هذا هو سؤال القرن.»

أراحت صوفي رأسها على النافذة وأغمضَت عينَيها. أظنها نائمةً الآن.

همس براين لي: «ولكن ماذا عن حكايات بومبي؟ كيف عرَفَت حكايات بومبي؟ هل قامت بتأليفها؟»

قلت: «لا أدري.» والآن أفكر في جميع الأشياء التي لا أعرفها عن صوفي. أريد أن أعرف كيف مات أبواها. هل أُصيبا بمرضٍ خطير؟ هل ماتا في الوقت نفسِه أم ماتا واحدًا بعد الآخر، وإذا كان الأمر كذلك، فأيُّهما مات أولًا؟ وفيمَ تُفكر صوفي؟ وبمَ تشعر صوفي؟

أتساءل ما الذي تحلم به صوفي.

سنكون في منزل بومبي الليلة.

الفصل السبعون

القلعة

صوفي

جُبْنا أنحاءَ إنجلترا؛ مرَرْنا على بريستول وسويندون وريدينج، ونجلس الآن على أحدِ المقاعد أمام قلعة وندسور، التي تَلوح في الأُفُق خلفَنا، وهي قلعةٌ عظيمة مبنيَّة من الحجَر الرمادي. ربما تكون الملكةُ تحتسي الشايَ بالداخل. في الشارع المُقابل يوجد مطعم ماكدونالدز. نأكل برجر بالجبن، هنا أمام قلعة وندسور مباشرة.

الهواء دافئ وقد أثقلَنا الترقُّب. نحن قريبون جدًّا من منزل بومبي، ربما على بُعد نصف ساعة منه.

أعتقد أننا ذاهبون. الآن.

الفصل الحادي والسبعون

الكوخ

كودي

عندما استيقظتُ هذا الصباح، شعرتُ أنني ربما قد هبطتُ على كوكبٍ آخَر، وأنني كنتُ داخل جسدِ شخصٍ آخَر. كان شعوري ذاك يُعزى من جانب إلى نومي طَوال الليل على الأرض، ومن جانبٍ آخَر إلى ما كان في انتظارنا عندما وصَلْنا إلى منزل بومبي الليلةَ الماضية.

وجدنا قرية ثورب دون كثير من العناء، ولكن ما كان أصعبَ بعض الشيء هو العثور على منزل بومبي في الظلام؛ إذ إن المنازل هناك بلا أرقام. جميع المنازل لها أسماء، مثل «جليناكر» و«ذا يلو كوتيدج» و«ذا جرين كوتيدج» و«ذا أوولد بوست أوفيس.»

اسم منزل بومبي هو «وولنت تري كوتيدج»؛ أي كوخ شجرة الجوز؛ لذلك قضَينا وقتًا ليس بالقليل نُحملق في الأشجار، بحثًا عن شجرةِ جَوز؛ لتُبين لنا أنه لم تَعُد هناك

شجرةُ جوز عند منزل بومبي بأيِّ حال. وأخيرًا وجَدْنا ضالَّتَنا بعد أن توقَّفنا عند أحد المنازل، وعندما صعدتُ الدَّرَج وطرَقتُ الباب، فتحَت سيدة الباب وقالت: «المنزل الذي تبحث عنه هو ذلك المنزل الذي على الجانب المقابل من الطريق يا عزيزي»، وأشارت إلى كوخٍ أبيضَ صغير في الشارع المقابل.

كانت جميعُ أنوار كوخ بومبي مُضاءة. طرَقْنا الباب، وعندما فُتِح، وجدنا أمامنا مُمرِّضة. عرَّفها العم دوك بنا، ثم دخَلْنا جميعًا الكوخ، وسألها العمُّ دوك: «أين هو؟»

أدخلَتنا الممرِّضة إلى غرفة ثم إلى غرفة أخرى حيث الأسقفُ منخفضة إلى حدٍّ أن رءوسنا كانت ترتطمُ بها، واتَّبعناها عبر غرفةٍ أخرى، ثم إلى رَدهة ضيقة تؤدِّي إلى غرفةِ نوم بومبي.

وها هو بومبي مستلقيًا في سريره مُغمض العينَين. كنت متأكدًا أن الحظَّ لم يُحالفنا وأنه قد مات.

الفصل الثاني والسبعون

بومبي

صوفي

أوه، بومبي!

عرَفتُ الآن لماذا أراد بومبي العودةَ إلى موطنه إنجلترا. فالمكان هنا خلَّاب، مُكلَّل بالزهور المتسلِّقة على جوانبه، ونبات الخُزامى منتشِر في شكل تكتُّلات كبيرة عبر الممرِّ المؤدي إلى المنزل، وبالداخل توجد غُرَف ضيقة ونوافذُ ومدافئ صغيرة.

لكَم أردتُ أن أراه بمفردي، ولكننا دخَلْنا الغرفةَ جميعًا معًا.

سأل كودي: «هل مات؟».

قالت المُمرِّضة: «صه. لا ليس ميتًا، ولكنه مُشوَّش الذهن قليلًا. لا تُخِفه.»

بدا شكله مختلفًا عمَّا توقَّعت، لكني تصوَّرتُ أن السبب في ذلك هو أن عينَيه وفمَه مغلقان. ما رأيتُه هو وجهٌ رقيق مستدير، شاحب جدًّا، وخُصلات رمادية تُغطي مقدمةَ رأسه. بدا كأنه نسخةٌ أكبرُ سِنًّا من الخال دوك.

أمسك الخال دوك بيد بومبي ومسدَ عليها برفق. وهمَس له: «بومبي. بومبي؟»

فتح بومبي عينَيه، ورمش، وحملق فيه. قال للخال دوك: «بيتر؟»

قال الخال دوك: «بيتر؟». وأردف: «مَن بيتر؟ هذا أنا ... دوك ... يونس.»

قال بومبي: «يونس ليس هنا. إنه في المعسكر.»

عضَّ الخال دوك على إحدى شفتَيه.

قال الخال مو: «بومبي؟».

حملَق بومبي بشدة في الخال مو. وسأله: «مَن أنت؟».

«هذا أنا، موسى.»

قال بومبي: «موسى ليس هنا. إنه في المعسكر.»

قال الخال ستيو: «بومبي؟ هل تعرفني؟ أنا ستيوارت.»

فرمش بومبي ثلاثَ مراتٍ أو أربعًا أخرى. وقال: «ستيوارت ليس هنا. إنه في المعسكر.»

ثم تقدَّم كودي خطوةً إلى الأمام، فقال بومبي: «أوه! ها هو موسى. هل عُدت من المعسكر؟»

قال كودي: «نعم. لقد عدت من المعسكَر.»

وعندما تقدَّم براين خطوةً إلى الأمام، قال بومبي: «وها هو ستيوارت! هل عُدتَ من المعسكر أنت الآخَر؟»

فقال براين: «نعم.»

ثم تقدَّمتُ أنا خطوةً إلى الأمام وجلستُ على ركبتيَّ بجانب سريرِ بومبي، وقلت له: «بومبي؟ هل تعرفُ مَن أكون؟»

فحملق بي بشدَّة وقال: «هل أنتِ مارجريت؟»

قلت: «لا.»

«كلير؟»

«لا.»

قال براين: «توقَّفي عن هذا يا صوفي. إنه لا يَعرفك.»
فقال بومبي: «صوفي! هل أنتِ صوفي؟»
قلت: «نعم.»

الفصل الثالث والسبعون

القصة

كودي

يبدو لي كأننا في منزلِ بومبي منذ أكثرَ من أسبوع، وأنَّ دهرًا قد مضى منذ انطلَقْنا في رحلتنا التجريبيَّة في المحيط.

على مدارِ يومنا الأول هنا، كان بومبي نائمًا معظمَ الوقت ولم يتعرَّف علينا. وفي اليوم الثاني، بدأَت صوفي في إخبار بومبي بقصصه. قالت له: «أتذكُر يا بومبي حين كنتَ صغيرًا وتعيش في المزرعة في كنتاكي، وقايَضتَ أُسرتَك بغلَين مقابل سيارة؟ أتذكر ذلك يا بومبي؟»

ففتح بومبي عينَيه على اتِّساعهما وأومأ برأسه إيجابًا.

«وهل تذكر يا بومبي كيف أنك ذهبتَ إلى البلدة لاستلام السيارة وقيادتها إلى المنزل؟ وفي الطريق إلى المنزل ...»

ومع كل تفصيلة تسردها صوفي، كان بومبي يُومئ برأسه ويقول: «نعم، نعم، كان هذا أنا.»

«وفي الماء عندما ظللتُ تُصارع وتُصارع ...»

قال بومبي: «أنا؟».

«كنتَ تحت كلِّ هذه المياه ...»

قال بومبي: «لا أتذكر هذا الجزء جيدًا.»

بعد ظهر ذلك اليوم، قصَّت صوفي على بومبي قصةً أخرى. قالت له: «أتذكر يا بومبي عندما كنتَ صغيرًا وتعيش في كنتاكي بالقرب من نهر أوهايو، وفي يوم من الأيام بدأتَ عبور النهر عن طريق الجسر الخاص بالقطار ...»

قال بومبي: «الجسر البحري، نعم، نعم.»

«وهل تذكر كيف كان الطقسُ عاصِفًا وممطرًا ...»

«نعم، نعم.»

«وعندما جاء القطار، كان عليك أن تقفز في الماء من أعلى الجسر ...»

«نعم، نعم، كان هذا أنا.»

«وجرَفَتك المياهُ الدوَّامية في جميع الاتجاهات، وكنت تحارب من أجل التنفُّس و...»

قال بومبي: «لا أتذكر هذا الجزءَ جيدًا.»

قصَّت صوفي على بومبي جميعَ القصص التي روَتها لنا، وفي أثناء ذلك كنا نحن ندخل إلى الغرفة ونخرج منها، وكان الجميع يُصغي في هدوءٍ شديد. تذكَّر بومبي كلَّ شيءٍ قالته صوفي، باستثناء الأجزاء المتعلِّقة بالصراع في الماء.

وفي مرة، بينما كنتُ بالداخل مع صوفي، قصَّت عليه قصةً لم أسمعها منها من قبل. كانت كالآتي:

«أتذكُر يا بومبي عندما ذهبتَ مع والديك في رحلةٍ بحرية عندما كنتَ طفلًا صغيرًا جدًّا؟» قال: «أنا؟».

«في المحيط الواسع الشديد الزُّرقة. وكنتم تُبحرون، تبحرون، ثم أظلمَت السماء، وبدأت الرياح تهبُّ مُدوِّية ... أتذكر ذلك؟»

فنظر إليها ورمَش عدةَ مرات، ولكنه لم يَقُل شيئًا.

«ألا تذكر الرياح؟ كانت تَعوي، وتعوي، وتعوي، وأخذ القارب يتمايل، واشتدَّت البرودة، فقامت أمُّك بِلفِّك في بطانية ووضعَتك في الزورق ... أتذكر؟»

حملقَ بومبي في صوفي، ولكنه لم يَقُل شيئًا أيضًا. فواصلَت صوفي بنبرةٍ متسارعة: «أتذكُر؟ أتذكر؟ و... و... الرياح ... البرد ... المياه، جبلٌ أسود شاهق من المياه يهبط عليك ثم بدأتَ تطفو، تطفو، تطفو ... و... و... والأبوان ... الأبوان ...»

ونظرَت إليَّ في استعطاف، وفجأةً بدا كلُّ شيء واضحًا تمامًا لي. فجثوتُ على رُكبتي على الجانب الآخَر من السرير. قلتُ: «الأبوانِ لَقِيا حتْفَهما.»

فشهقَت صوفي. وقالت مُردِّدةً كلماتي: «الوالدان لَقِيا حتْفَهما»، ثم أكملَت كلامها في عُجالة: «ثم أصبحتَ وحيدًا تمامًا يا بومبي، بمفردك، تطفو، وتطفو، وتطفو ...»

قال بومبي: «ولكني ...»

مددتُ يدي عبر السرير وأمسكتُ بيد صوفي. قلت لها: «صوفي. ربما ليست هذه قصةَ بومبي. ربما تكون قصتَكِ أنتِ.»

فهمَس بومبي: «إنه مُحقٌّ يا صوفي. هذه قصتُكِ أنتِ يا حبيبتي.»

حدَّقَت صوفي فيَّ ثم حدَّقتُ في بومبي. بدا عليها الخوفُ الشديد، وبدا حجمها صغيرًا للغاية وهي جالسةٌ بجانب بومبي. وبعد ذلك وضعَت رأسها على صدر بومبي وبكَت بشدة.

ترَكتُهما معًا بالداخل وخرَجتُ إلى الفِناء الخلفي، واستلقيتُ على الحشائش تحت شجرة التفَّاح.

وبعد نحو ساعة، جاءت صوفي، وأعطتني دفترًا مُغطًّى بغلافٍ من قماشٍ أزرق اللون.

همسَت لي: «أريدك أن تقرأ هذا الدفتر. إنه جدُّك أنت أيضًا»، ثم خرَجت من البوابة إلى طريق القرية الضيق.

كان الدفتر يحوي خطاباتٍ مكتوبةً بخط اليد، نحو عشرين أو ثلاثين خطابًا، مؤرَّخةً على مدى السنوات الثلاث الماضية. كُتب في أعلى جميع الخطابات «إلى حفيدتي صوفي»، وكان التوقيع في الأسفل: «من جدك بومبي.»

في الخطاب الأول، كان بومبي يُرحب بها في عائلتها الجديدة. قال لها إنه يستطيع أن يكون جَدًّا لها؛ سوف يكون جدها بومبي. وفي كلِّ خطاب من الخطابات الأخرى، كان

يقصُّ عليها حكايةً عنه وهو في بداية حياته؛ حتى يتسنَّى لها أن تعرفه جيدًا على حدِّ قوله.

كانت هناك حكاياتٌ أخرى كثيرة خِلاف التي قصَّتها علينا صوفي بالفعل. كانت هناك حكايات عن أيام دراسته في المدرسة وأخرى عن ذَهابه للصيد مع جدِّه؛ وكانت هناك حكايات عن أول فتاة قام بتقبيلها، وعن اليوم الذي قابل فيه زوجتَه مارجريت.

كان غريبًا أن أقرأ جميعَ الحكايات عن السيارة التي سقَطَت في النهر، وعن القفز من أعلى قُضبان القطار، وتعميد بومبي، وعن بومبي في حفرة السباحة، وعن بومبي في المحيط. كان غالبيةُ ما أخبرَتنا به صوفي مشابهًا إلى حدٍّ كبير لما كتَبه بومبي في خطاباته، باستثناء الأجزاء الخاصة بمُعاناته في الماء. لقد كان بومبي في الماء في كلِّ هذه المرَّات، ولكنه لم يذكر شيئًا عن أيِّ صراع فيه.

كانت هذه الأجزاءُ خاصةً بصوفي.

عندما انتهيتُ من القراءة، جُبتُ حارات القرية بحثًا عن صوفي.

الفصل الرابع والسبعون

التفاح

صوفي

كان فِناءُ منزل بومبي حديقةً غنَّاء تعجُّ بالورود ونباتات الخُزامى وزهور العائق والبيتونيا والثالوث. وفي الفِناء الخلفي، توجد شجرةُ تفاح، مليئة بثمار تفاحٍ شِبه ناضجة. في اليوم الثالث لنا هنا، خرج الخال مو، وقطَف بعضَ ثمار التفَّاح الأكثر نضجًا، ثم دخل إلى حجرة نوم بومبي في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم وقال: «بومبي؟ انظر ماذا أحضرتُ لك ...»

فجلس بومبي في سريره وقال: «فطيرة تفاح!» وضحك، ثم بكى، ثم ضحك مرةً أخرى، وكان الخال مو يضحك ويبكي هو الآخَر، ثم دخل الجميعُ إلى الغرفة، وكنَّا جميعًا نضحك ونبكي على فطيرة التفاح تلك.

قال الخال ستيو: «كيف تعلَّمت طريقةَ صُنعها؟».

قال الخال مو وهو شديدُ الفخر بنفسه: «عثرت على كتاب الطبخ الخاص بجَدتي! واتبعتُ الوصفة! أنا لستُ أبلهَ تمامًا!»

بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كنتُ أنا وكودي جالسَين مع بومبي، نُراقبه وهو نائم، أخذ بومبي نفَسًا قصيرًا وسريعًا، ثم نفَسًا آخر، ثم توقَّف عن التنفُّس مدةً قبل أن يأخذ نفَسًا آخَر، ثم توقف التنفُّس.

حدَّقتُ أنا وكودي أحدُنا في الآخَر. ثم همهم بومبي وأخذ نفَسًا آخر وظلَّ يتنفس.

سألني كودي: «أكنتِ تُفكرين فيما أفكر به؟». وأردف: «أكنتِ تقولين في ذهنك أسرع يا بومبي؟»

قلتُ: «نعم، كنت أقول ذلك.»

في وقت كهذا، وبومبي طريحُ الفراش، ستعتقد أن الجميع سيتحلَّى بمزيدٍ من الطِّيبة والهدوء ومُراعاة شعور الآخَرين، لكن الخال ستيو والخال مو دخَلا في واحدةٍ من مُجادلاتهما العنيفة كعادتهما. كان الجدلُ عمَّا إذا كان عليهم اصطحاب بومبي معنا إلى أمريكا.

سأل الخال ستيو: «كيف له أن يبقى هنا؟». وأضاف: «إنه لا يستطيع الاعتناء بنفسه ... من سيعتني به؟ أرى أنه يجب أن يعود معنا إلى أمريكا.»

قال الخال مو: «وأنا أرى أن يبقى هنا. وإضافةً إلى ذلك، إذا جاء إلى أمريكا، فأين سيعيش؟ هل سيعيش معك؟»

غمغم الخال ستيو. وقال: «يعيش معي؟ ليس لدينا مكانٌ ... لسنا مستعدِّين ... لماذا لا تأخذه أنت ليعيش معك؟»

تدخَّل الخال دوك. «ربما يجب أن تسألوا بومبي عمَّا يريد أن يفعل.»

فسألوا بومبي، وقال: «أنا في بيتي! سأبقى هنا!» فقال الخال دوك إن بومبي قد اتخذ قراره. لقد جاء إلى بيته، وهو مكانٌ جميل، وعلينا تركُه يعيش في موطنه إنجلترا، المليئة بالورود ونباتات الخُزامى النامية في كل مكان حوله.

سأل الخال ستيو: «ومن سيعتني به إذن؟».

قلت: «أنا. في العُطلة الصيفية. هل يُمكنني ذلك؟»

قال الخال ستيو: «ما زلتِ صغيرةً جدًّا.» ثم عقد ذراعَيه على صدره، كما يفعل براين أحيانًا، وقال: «أتعرفون؟ لن أقلقَ بشأن ذلك. يُمكنكم جميعًا القلق. أما أنا فسأذهب لأخذِ قيلولة.»

في ذلك الوقت تقريبًا، وصلَت روزالي، فوقفنا جميعًا نُحدق فيها هي والخال دوك ببلاهة. غير أنهما بالتأكيد قد سئما تحديقَنا فيهما؛ لأنهما سرعان ما قالا إنهما ذاهبان للتمشية.

في المطبخ، كان براين ينقل وصفةَ فطيرة التفاح. قال: «لقد ظللتُ أفكِّر في هذه الفطيرة طَوال الوقت ونحن في المحيط. سوف أتعلم طريقةَ إعدادها أيضًا.»

قال كودي: «هاي. انظروا هناك ...»

في الفِناء الخلفي، كان الخال مو يقذف ثمار التفاح. وظلَّ يقذفُها حتى بعدما خرَجنا لمشاهدته. قال: «انظروا إلى هذا. يمكنني رميُ أربع ثمرات تفَّاح في وقتٍ واحد! هذا رائع جدًّا، أقصد هذه اللعبة. ما رأيك يا سييرا-أوسكار-نوفمبر؟»

قال كودي: «رائع جدًّا يا دلتا-ألفا-دلتا، رائع جدًّا.»

فقمنا جميعًا بقطفِ التفاح، وذهبنا إلى نافذةِ بومبي، حيث كان يُشاهدنا وهو مستند إلى بعض الوسائد، وبدأنا جميعًا في رمي التفاح، وكان بعضُنا يضرب رءوس بعض كثيرًا بالتفَّاح الطائر، وكان هذا هو المكان الذي وجَدنا فيه الخال دوك عندما عاد من نُزهته.

الفصل الخامس والسبعون

أوه، روزالي!

كودي

النساء!

ذهبت روزالي.

عاد العم دوك من النزهة بمفرده متجهِّمَ الوجه. أمطرناه بوابل من الأسئلة رغبةً في معرفةِ أين ذهبَت روزالي.

قال: «لقد ذهبت.»

قالت صوفي: «ذهبت؟». وأردفَت: «لا يمكن أن يحدث ذلك. لقد وصلَت هنا لتوها ...»

فأعاد العمُّ دوك الكلمة: «لقد ذهبت. ذهبت، ذهبت، ذهبت.»

انهال عليه الجميع بالأسئلة لنعرف أين ذهبَت، ولماذا ذهبت، وإذا كانت ستعود مجددًا.

قال العم دوك: «لديها خُطط لا يُمكنها تغييرها. ستُسافر غدًا إلى إسبانيا.»

ثم قالت صوفي: «اذهب وأحضِرْها!» وقال براين: «امنعها من الرحيل!»

هز العمُّ دوك كتفَيه. وقال: «تلك المرأة لها عقليةٌ خاصة.»

ظلَّ براين وصوفي يقولان: «اذهَب وأحضِرها!»، ثم لا أعلمُ من أين جئت بتلك الكلمات، لكنني قلت: «لماذا لم تطلب يدَها للزواج، أو شيئًا من هذا القبيل؟»

قال العم دوك: «فعلت ذلك.»

قال العم مو: «أحسنتَ يا دوك.»

تساءلت: «وماذا قالت إذَن؟ لماذا رحلت؟»

«كما قلت، لديها بعضُ الخطط.»

سألتُه: «ولكن ماذا قالت بشأن عرض الزواج؟».

وقف العمُّ دوك هناك يرمي تفاحةً خضراء لأعلى ثم يتلقَّاها بيدٍ واحدة. «قالت إن هذا الكلام سابق لأوانه ...»

قالت صوفي: «سابقٌ لأوانه؟». وأردفَت: «لقد ظللت تنتظرها طِيلة حياتك. لقد كنتَ تذوب حسرةً وألَمًا ...»

قال العم دوك: «اللعنة. ألا يمكن لأحدٍ أن يحتفظ بأيِّ أسرار هنا؟»

ثم قال أحدُنا إنه ربما تُغيِّر روزالي رأيها، وربما تذهب لإتمام خُططِها وتعود، ثم قالت صوفي: «إذا حدث وتزوَّجتُما، فلن تجعلَها تقوم بجميع الأعمال المنزلية، أليس كذلك؟»

قال العم ستيو، الذي كان قد انضمَّ لنا حينها: «حسنًا، كفاكم ثرثرة. ماذا سنفعل بشأن مسألة رعاية بومبي؟»

قال العم دوك: «أعتقد أنني قد وجدتُ الحل.»

قال العم ستيو: «ما هو؟».

قال العم دوك: «سوف أبقى أنا هنا. سوف أبقى هنا في إنجلترا. وسوف أعتني به.»

بدا على الجميع الارتياح، ورأوا أن هذا حلٌّ معقول. ولكن فيما بعد، عندما كنتُ أنا وبراين وصوفي نحزم أغراضَنا، قال براين: «أعتقد أن هذا شيءٌ حزين. لقد عثر العمُّ دوك للتو على روزالي، وها هو يفقدها مجددًا. والآن سوف يتخلى عن كلِّ شيء من أجل البقاء هنا والاعتناء برجلٍ عجوز.»

أخبرَته أن بومبي ليس مجردَ رجلٍ عجوز، بل والد العم دوك.

ثم بدأت صوفي تتساءل إذا كان من المحتمل أن تُغير روزالي رأيها يومًا ما، وإن كان بومبي قد يتحسَّن، ثم قلت إنه ربما يُمكننا أن نزورَهما هنا في إنجلترا، في العطلات الصيفية مثلًا، ثم قالت صوفي: «وربما يمكننا جميعًا القيامُ برحلةٍ بحرية أخرى بقاربنا.»

قلت: «رائع. سوف نقوم جميعًا برحلةٍ بحرية، وسوف نُبحر بعيدًا جدًّا ...»

قال براين: «لن نُبحر بعيدًا للدرجة. وليس بهذه السرعة.»

وقالت صوفي إنه إن لم تكن روزالي قد عادت بحلول ذلك الوقت، فيُمكننا جميعًا الذَّهاب للبحث عن روزالي، أوه، روزالي!

الفصل السادس والسبعون

الهدايا

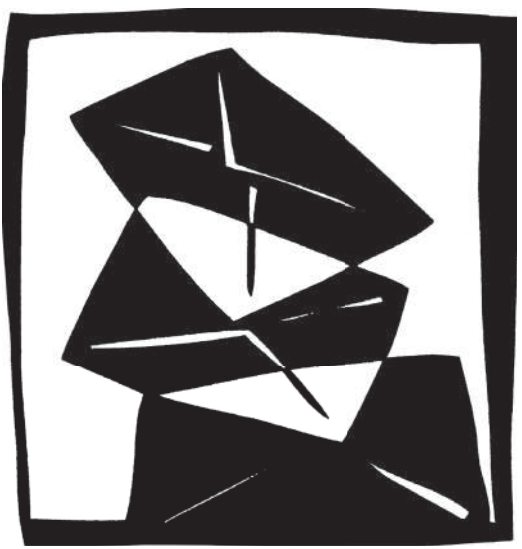

صوفي

جلسنا جميعًا الليلةَ الماضية حول بومبي نتسامر، وأخبرناه عن رحلتنا على متن «ذا وندرر»، وبدا مستغرقًا تمامًا في كل ما نقوله. وعندما انتهينا، قال بومبي: «أنتم من يستحقُّ أكْلَ فطيرة التفاح. أين الفطيرة؟ أحضِروا فطيرةً أخرى!»

قال الخال مو: «انتظروا لحظةً ... معي شيء ...»

ظننا أنه سيُحضر فطيرة تفاح، ولكنه أحضر مجموعةً من صناديق الهدايا المغلَّفة المستوية. التقط الخال مو واحدًا من أعلى قائلًا: «هذا لبومبي.»

مزَّق بومبي غلافَ الصندوق، وكان بداخله واحدة من لوحات مو. كانت عبارةً عن صورةٍ مرسومة لبومبي جالسًا في سريره يأكل فطيرة.

قال بومبي: «فطيرة!». وقهقهَ قائلًا: «ها ها ها! فطيرة!»

أسفل الرسم، كتب الخال مو: «يوليسيس يأكل الفطيرة».

قال بومبي: «يوليسيس!». وقهقه قائلًا: «ها ها ها! هذا أنا!»

ناول الخال مو صناديقَ الهدايا لكلٍّ من الخال ستيو وبراين والخال دوك. كانت هدية الخال ستيو رسمًا لستيو وبراين وهما يستخدمان جهاز السدس. وكانت هدية براين رسمًا له وهو يُعلق إحدى القوائم في مطبخ القارب. أما هدية الخال دوك، فكانت لوحةً بألوان الماء لـ «طفل» دوك، «ذا وندرر»، والقبطان دوك يقف عند المقدمة.

كنا جميعًا منبهِرين بهذه الرسومات.

قال الخال مو: «أما هذه الهدية، فهي لكودي.»

مزَّق كودي الغلاف. ووجد بالداخل لوحةً بالحبر لكودي وهو يلعب لعبةَ الرمي. كان واقفًا على ظهر القارب، وكان القارب يتمايلُ بشدة، ولكن كودي كان محتفظًا تمامًا بتوازُنه، ولم يكن يرمي أكياسَ كعك مِلح ولا جوارب، بل كان يرمي أشخاصًا. كان كل واحد منا يبدو في الرسم ضئيلًا جدًّا في الهواء، وكان كودي يرمينا.

قال كودي: «يا إلهي! مُدهِش!».

قال الخال مو: «وهل لاحظت العُقَد؟».

فأنعَمْنا جميعًا النظر. ثم تمكنَّا من رؤية العُقَد. كانت خُصلات شعر كودي مربوطةً على شكل عُقَد سدادة وعُقَد وتديَّة صغيرة.

قال كودي: «هذا أروع رسم رأيته في حياتي.»

أعتقد أن الخال مو قد سُرَّ كثيرًا لسماع هذا الإطراء.

ثم قال كودي: «انتظروا!» وخرج مهرولًا من الغرفة، وعندما عاد أعطى الخال مو ورقةً كان قد نزعها من المُكدِّرة الخاصة به. قال له: «هذه لك. سوف أشذب الحافات ...»

قال الخال مو: «لي أنا؟».

كان رسمًا للخال مو مستلقيًا على كرسي على متن القارب. كان يضع في حجره دفترَ الرسم، وتحت الرسم كتب كودي: «الفنان موسى».

قال الخال مو: «موسى. هذا أنا!»

قال بومبي: «هاي! وماذا عن هاتين الهديتَين المتبقيتَين؟ لمن هما؟»

قال الخال مو: «أوه. حسنًا. هاتان الهديَّتان الأخيرتان كانا من المفترض أن تكونا لأحدثِ أعضاء الأسرة، ولكن ...» ونظر إلى الخال دوك. وقال له: «كان من المفترض أن تكون هذه الهدية لروزالي. أعتقد أنَّ عليك فتْحَها ...»

مزَّق الخال دوك الغلاف ببطء. كان بداخلها رسمٌ لثلاثة حيتان؛ الأم والطفل والأب، تلك الأسرة التي رأيناها في المحيط.

همس الخال دوك: «أوه. أوه روزالي ...»

قال بومبي: «روزالي؟ من تكون روزالي التي يتحدث عنها الجميع؟ هل أعرفُها؟»

قال كودي: «إنها تلك السيدة الشديدة الأناقة التي يعرفها العمُّ دوك. ولكنها مفقودة مؤقتًا.»

قال بومبي: «لنُرسل مجموعةَ بحثٍ للعثور عليها!».

فنظرنا جميعًا للخال دوك. فقال: «أفهمكم. والآن ماذا عن الهدية الأخيرة؟»

قال الخال مو: «هذه لصوفي.»

كانت أصابعي ترتجف. هدية؟ لي؟ استطعتُ بصعوبةٍ أن أمزِّق الغلاف من شدة حماستي. كان بداخلها إحدى رسومات الخال مو.

كان رسمًا لي وأنا أتأرجح عاليًا في الهواء على السقَّالة المتحركة فوق الأمواج، وكانت المياه شديدةَ الزُّرقة، والسماء زرقاء، ومن تحتي في المياه الزرقاء اثنان من الدلافين يقفزان في الهواء.

وأسفلَ الرسم كتب الخال مو: «أسرعي يا صوفي!»

الفصل السابع والسبعون

ذكريات

كودي

كان وداع العم دوك وبومبي أمرًا صعبًا بلا شك. ولكننا ودَّعناهم وسافرنا بالطائرة فوق ذلك المحيط الشاسع، وكان شعورًا رائعًا أن نُدرك أننا قد أبحَرْنا كلَّ هذه المسافة عبره.

ها قد عدتُ إلى الوطن، وستبقى صوفي معنا بقيةَ الأسبوع. ذهبنا أمس إلى المحيط، ومشينا على الشاطئ، وأخذنا ننظر إلى الماء، ولم نتمكَّن من التوقُّف عن الحديث عن رحلتنا. تذكرنا المكانَ الذي رأينا فيه «ذا وندرر» للمرة الأولى، وتذكَّرنا جميع الأشياء التي

قمنا بإصلاحها فيه، وتذكَّرنا حين ذهبنا إلى بلوك آيلاند ومارثا فينيارد وجراند مانان، وكذلك الرحلة الطويلة الراعبة إلى أيرلندا.

قلتُ: «أتذكرين عندما قلتِ إنك ذهبتِ لجمع المحار مع بومبي في بلوك آيلاند عندما كنتِ صغيرة؟»

قالت: «نعم.»

«إذا كنتِ لا تريدين تذكُّرَ هذا، فلا بأس، ولكني كنت أفكر، ربما كنتِ مع جدِّك الآخر، جدك الحقيقي ...»

تجمَّدَت صوفي في موضعها. ثم قالت: «جدي الحقيقي؟»

«نعم، ربما يكون هو من اصطحَبكِ لجمع المحار، وربما كنتِ مع أبوَيك أيضًا ... أبويك الحقيقيَّين ...»

«أبواي الحقيقيان؟»

قلت لها: «يبدو أنه كان وقتًا رائعًا بحق. سيكون من الجيد أن تذكريه، أليس كذلك؟ ذاك الطفل الصغير الذي أخبرتِني عنه ... ذاك الطفل لن يُمانع في تذكُّر مثلِ هذه الأشياء، أليس كذلك؟»

قالت: «لقد كبر الطفل الصغير الآن.»

ظللت أفكر في هذا الطفل الصغير، أو بالأحرى الطفلة. أعتقد أن الحظ قد حالف الطفلةَ الصغيرة يومًا ما، ورست في مكان لا بأس فيه من ألا تستطيع أن تتذكَّر طوال الوقت، ولأنه كان لا بأس من التذكُّر، فقد بدأت تتذكر. ومع الأحداث المؤلمة جاءت الأحداث الأخرى الجميلة التي تستحقُّ التذكر، وربما تكون قد شعرت أنها وجدَت بعضًا مما فقَدَت.

اتصل بنا العم ستيو ليُخبرنا أنه قد عثر على عمل مع شركةٍ تقوم برسم خرائطَ بحرية لأعماق المحيط. قال العم ستيو: «يجب أن ترَوا المُعدَّات التي لديهم!». وأردف: «سيكون رائعًا أن أرى ما في أعماق المحيط.»

في البداية، كانت صوفي مهتمةً جدًّا بالأمر، وأخذت تسأل ملايينَ الأسئلة عن أنواع المعدات وأنواع الأشياء التي يمكن العثورُ عليها بها، ولكنها قالت لاحقًا إنها لم تكن متأكدةً من أنها تريد معرفة ما يوجد في أعماق المحيط.

والتحقَ أبي بفصولٍ دراسية مسائية لتعليم الرسم. سألته صوفي: «هل هذا يعني أنك ستعمل ما تُحب؟».

قال أبي: «حسنًا، في الصباح سأظلُّ أعبث بالأرقام، ولكن في المساء سأكون الفنانَ موسى.»

اتصل العم دوك وقال إن القارب قد أُصلحَ، وإنه يعتقد أن بومبي قد يكون بصحةٍ جيدة بحلول الشهر القادم بحيث سيتمكَّن من الخروج في رحلةٍ بحرية قصيرة معه.

قالت صوفي: «لا تدَعْه يسقط من القارب. لا تدعه يسقط في الماء.»

قلت له: «ربما بإمكانك الإبحارُ إلى إسبانيا.»

قال العم دوك: «نعم، لن نعلم أبدًا أين قد يَئول بنا المَطاف.»

في الأسبوع القادم، سوف نلتقي أنا وسييرا-أوسكار-بابا-هوتيل-إنديا-إكو وبرافو-روميو-إنديا-ألفا-نوفمبر في منزل صوفي لتفقُّدِ نهر أوهايو والتجوُّل فيه. تقول صوفي إن التجول بطَوْف في النهر سيكون أهدأ بكثير بعد الإبحار في ذلك المحيط. براين مشغول في إعداد قوائم بما سنحتاج إليه لبناء الطَّوف، وقد قرَّرنا بالفعل أن نَطلُوَه باللون الأزرق، وأن نُسميَه «ذا بلو بوبر وندرر.»

قلت: «سوف نعثر على الجسر الذي قفز منه بومبي.»

قال براين: «والمكان الذي انقلب فيه بومبي مع السيارة في النهر.»

قالت صوفي: «والمكان الذي عُمِّد فيه بومبي حينما عضَّ القس.»

لكنني أظنُّ أن هذه المُكدِّرة قد انتهت.

برافو-يانكي-إكو-برافو-يانكي- إكو

الفصل الثامن والسبعون

الوطن

صوفي

لقد عدتُ إلى الوطن، ولا شك أنه شعورٌ رائع أن تعود إلى وطنك. وسوف يقضي معي كودي وبراين بضعةَ أسابيع أخرى.

أنا متأكدة من أن أبوَيَّ الحاليَّين يشعران بارتياح بالغ لعودتي سالمة. فهما يدلفان إلى غرفتي ليلًا باستمرار ويجلسان على حافَة السرير، وعندما أفتح عينيَّ يقولان: «هل أنت بخير؟ هل تحتاجين إلى أي شيء؟» وأقول: «أنا بخير.»

في الليلة الأولى بعد العودة، أعدَّ أبي وجبتي المفضلة؛ الدجاج المشوي مع كيزان الذرة الحلوة.

قال كودي: «دجاج شهي حقًّا!»

قال براين: «كيزان ذرة شهية حقًّا!»

وكانت التحلية آيس كريم شوكولاتة كبيرًا ورائعًا.

قال براين: «أعتقد أن علينا تعليمَهما كيفية صُنع فطيرة.»

أمس، كنا أنا وكودي وبراين واقفين بالقرب من نهر أوهايو، نُشاهد التيار وهو يحمل الأغصان والأوراق تحت جسر القطار، وعَبْره وبعدَه، وحول المنحنى.

سأل كودي: «هل تذكرانِ ما كان حول هذا المنحنى؟»

سأل براين: «هل ذهبتِ إلى هناك من قبلُ يا صوفي؟»

قلتُ: «لا. ليس بعد.»

قال كودي: «حسنًا؟ ما رأيك؟ هل تريدين إزاحة الستار عن «ذا بلو بوبر وندرر» والإبحارَ في هذا الاتجاه؟»

قلت: «بمجرد حصولنا على بعض من تلك الأشياء الخشبية التي تُسمَّى مجاذيف.»

قهقه براين.

لستُ أحلِّق في أرض الأحلام، ولا في دنيا الواقع، ولا أسكن أرضًا تعجُّ بأناس يتَّسمون بالعناد. أنا هنا فقط، في هذه اللحظة. عندما أغلق عينيَّ، يظل بإمكاني استنشاقُ رائحة البحر، لكني أشعر كما لو كنت قد غُمِستُ في المياه الباردة النقية وخرجتُ منها مخلوقًا جديدًا ونقيًّا تمامًا.

إلى اللقاء يا بومبي. إلى اللقاء أيها البحر.

دليل القارئ

أسئلة للمناقشة

(١) يبدأ الفصل الأول بتأملات صوفي الشعرية: «البحر، البحر، البحر، تلاحقَت أمواجه وناداني. كان يقول «اقتربي مني، اقتربي مني».» نرى تنويعات على هذه السطور يتردَّد صداها في جميع أجزاء الكتاب (الفصول ٢١ و٢٣ و٢٥ و٢٧، و٣٧، و٤٧، و٥٢). فكيف تعكس التغيراتُ الطفيفة في هذه اللازمة علاقةَ صوفي المتغيرة بالبحر؟

(٢) ما أوجُه التشابه بين هذه الرواية والروايات البوليسية؟ كيف تقوم الكاتبة بـ «إسقاط التلميحات» للقارئ؟ هل وجدتَها مشوِّقة؟

(٣) ينتقل الكتابُ لأول مرة من وجهة نظر صوفي إلى وجهة نظر كودي في الفصل السادس، عند بداية تسجيل كودي ليوميَّاته في «المُكدِّرة». يمثِّل هذا التحوُّل أولَ تلميح لنا إلى كون صوفي يتيمة، وأنها قد عاشت مع والديها الحاليَّين ثلاث سنوات فقط. ماذا كان ردُّ فِعلك حين اكتشفتَ ذلك؟ هل غيَّر هذا وجهةَ نظرك في موثوقية صوفي ودقَّتها بوصفها راوية للأحداث؟

(٤) يُطلِق والد صوفي عليها في الفصل الثاني اسم «صوفي ذات الوجوه الثلاثة»: «أبي يُطلِق عليَّ صوفي ذاتَ الوجوه الثلاثة؛ وجه حالم ورومانسي، وآخر منطقي وواقعي، وثالث شديد المِراس ومندفِع.» هل تتفق مع تقييمه؟ هل يُمكنك أن تجد في الكتاب لحظاتٍ تعكس هذه الوجوهَ الثلاثة لشخصية صوفي؟

(٥) يُقرر الخال ستيو أن على كل فرد من أفراد الطاقم تعليمَ الآخرين شيئًا أثناء الرحلة (الفصل الخامس). ما الذي يُظهِره كلُّ اختيار من اختيارات الشباب — كودي والرمي، وصوفي وسرد القصص، وبراين والمناورات البحرية — عن هذه الشخصيات الثلاث؟ ما الذي تُخبرنا به مواقفُ أفراد الطاقم تجاه اختيارات بعضهم بعضًا؟

(٦) صوفي هي الفتاة الوحيدة بين طاقم من الرجالِ والفِتيان. ما شعور صوفي تجاه ذلك؟ هل يعاملها الرجالُ والفِتيان على نحوٍ مختلِف لكونها فتاة؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف يقومون بهذا؟

(٧) جميع شخصيات الرواية يتعاملون مع الألم تعاملًا مختلفًا. ما بعض التحديات التي تواجه صوفي وآلياتها للنجاة منها؟ وكودي؟ والخال مو؟ ودوك؟

(٨) تُعتبر علاقة صوفي المتطورة مع كودي بمنزلة إحدى الأفكار الأساسية للرواية. كيف يتغير انطباع صوفي عن كودي منذ البداية عندما تتساءل عمَّا إذا كان لديه أيُّ عقل في رأسه (الفصل الحادي عشر)؟ وكيف يتغير انطباعُ كودي عن صوفي؟

(٩) يُراوِد صوفي حُلمٌ متكرر تُطلِق عليه «حلم الموجة العاتية» (الفصلان ٢٩ و٥٩). ما الدور الذي تلعبه الأحلام في الرواية؟

(١٠) هل قرأتَ أيَّ كتبٍ أخرى لشارون كريتش؟ إذا كنتَ قد قرأت، فهل يمكنك التفكير في أي أوجُهِ تشابهٍ في الأفكار أو الأساليب؟

أسئلة إلى شارون كريتش

(١) صوفي، مثل سال في رواية «مسيرة شهرين»، من نوع الراوي الذي يُضفي حياةً على القصص. كيف ترَين دورَكِ باعتبارك قصَّاصة؟ هل كان في حياتِك قصَّاصون تأثَّرتِ بهم؟

أعتقدُ أنني أرى دوري بوصفي قصَّاصة مشابهًا لدور الراوي؛ أن أُضفِيَ حياةً على القصص، وأن أسمحَ للقارئ بالشعور كما لو كان في داخل القصة، ويُمكنه أن يرى الأشياء نفسَها التي يفعلها الراوي ويسمعها ويشعر بها. أحاول استبعاد الأجزاء المملَّة، وتسريع أو إبطاء الوتيرة حسب الحاجة.

عائلتي مليئة بالقصَّاصين ممن يُضفون حياةً على القصص، وقد تعلمتُ منهم أهميةَ الوتيرة والتفاصيل والنبرة. وتعلمتُ أيضًا قيمة الحس الدعابي، وأن أكثر القصص جِديةً لا تخلو من لحظاتٍ من المرح أيضًا.

(٢) لو كنتِ على متن رحلة «ذا وندرر»، وكُلفت بمهمة الخال ستيو في الفصل الخامس، فما الشيء الذي كنتِ ستختارينه لتعليم رفقائك على القارب المذكور؟

كنتُ سأواجه صعوبةً في الاختيار؛ لأن كل اختيار من اختيارات الشخصيات في هذه القصة يدخل في نطاقِ اهتماماتي (الرمي، شفرة الراديو، القصص، وما إلى ذلك)؛ لذا بصفتي الكاتبة، فقد تمكَّنتُ من اختيارها جميعًا.

(٣) أخبِرينا بمزيد عن إهدائك في الرواية: «إلى ابنتي كارين، التي أبحرَت عبر المحيط وألهمتني هذه القصة. من والدتِك التي شعرَت بالقلق بينما كنتِ بعيدة». كيف نشأَت هذه الرواية من قصة ابنتِك؟

عندما تخرَّجَت ابنتي من الكلية، أبحرَت عبر المحيط في مركبٍ شراعي يبلغ حجمه خمسًا وأربعين قدمًا برفقة ستة ذكور، وغنيٌّ عن القول أنني بصفتي والدتها كنتُ قلقةً عليها أثناء الرحلة، مع العلم بأنني لم أتلقَّ أيَّ اتصال منها خلال الرحلة التي استمرَّت قرابة الشهر. لم يتسنَّ لي أن أعرف ما إذا كانوا قد استمرُّوا في طريقهم بسلام حتى وصلوا إلى اليابسة. لقد واجهوا في الطريق عاصفةً شديدة، وكادوا يفقدون حياتهم، لكنني لم أكن أعرف ذلك حتى هاتفَتني ابنتي من أيرلندا في نهاية الرحلة. كانت أولى كلماتها «أمي! لقد كِدنا أن نموت.»

كنتُ مفتونةً بكل جانب من جوانب رحلتها، وظلَّت تدورُ في رأسي عدةَ سنوات، قبل أن أبدأ محاولاتي في تحويلها إلى قصة. صوفي وأفرادُ الطاقم يتبعون مسارًا مماثلًا، ويواجهون عاصفةً مماثلة.

(٤) كيف أجرَيتِ أبحاثك عن الرحلة البحرية؟ هل أنتِ نفسُك بحَّارة؟

بينما كانت ابنتي في رحلتها، أخذت دروسًا في الإبحار (في بحيرةٍ هادئة جدًّا!) حتى أعرف القليل عمَّا كانت تمرُّ به. بعد عدة سنوات، عندما صِرتُ مستعدةً لكتابة النسخة الأدبية من رحلتها، انغمَستُ في كتب الإبحار وخرائط المحيطات، وتحاورتُ مع ابنتي. ولحسن الحظ، كان لديها سجلٌّ بيومياتها أثناء الرحلة، وكان مليئًا بالرسومات والتفاصيل الرائعة لما يبدو عليه الحال حين تكون في هذا المحيط الشاسع؛ مما ساعدَني على تخيُّل ما كان عليه الأمر.

(٥) هل هناك أيُّ شخصيات في الرواية مأخوذةٌ من شخصيات واقعية؟

كلُّ شخصية من المحتمل أن تكون مأخوذةً من أشخاصٍ كثيرين من دائرة معارفي، لكنني لا أكون على دراية بذلك عندما أكتب. فأنا أبدأ بصورةٍ مُبهَمة لشخصٍ ما ثم أكتب من أجل تطوير ملامح وتفاصيل تلك الشخصية، وعندما أكتب تأخذ أيَّ أوجه تشابُه «واقعية» ربما تكون قد ألهمَت الشخصية، في التطور والتغير مع وضع الشخصية في مواقف مختلفة. في شخصية صوفي، على سبيل المثال، يمكنني رؤيةُ رتوش من شخصية ابنتي وشخصيتي، لكنني أرى العديد من الاختلافات أيضًا.

(٦) تُبرز العديدُ من كُتبِك علاقاتٍ قويةً بين الأجيال. هل كنتِ قريبةً من أيٍّ من أجدادك؟

كنتُ أقربَ إلى جدتي لأمي (التي تظهرُ نسخةٌ منها في رواية «الجدة توريلِّي تُعِد الحساء»)، ولكن أيضًا كانت تربطني علاقاتٌ وثيقة بالعديد من العمَّات والأعمام، وأعتقد

أن كلَّ هذه العلاقات كانت مصدرَ إلهام لشخصياتي الأكبر سنًّا. أحبُّ أيضًا التوازن في الكتابة عن الصغار والكبار؛ فالشخصيات الأكبر سِنًّا تُرشِد الشباب، ولكن تتعلم منهم أيضًا، والشخصيات الأصغر سنًّا لا تتعلم من كبار السن فحسب، بل تؤثِّر فيهم أيضًا.

(٧) هل كان التناوبُ بين منظورَي الصبي والفتاة يُمثِّل لك تحدِّيًا؟

ثَمة سببان وراء قراري باستخدام الأصوات المتناوبة؛ هما: إحداث التباين، واستكشاف مفهوم أن أيَّ قصة تتشكَّل من خلال راويها. التحدي في التناوب بين منظور الصبي والفتاة لم يكن متعلقًا بالنوع بقدرِ ما كان متعلقًا بالشخصية؛ كيفية البقاء داخل منظور هذه الشخصية بعينها أثناء روايتها للقصة. صوفي وكودي شخصيتان مختلفتان تمامًا، وكان استكشافُ رؤية كلٍّ منهما الرحلةَ أمرًا مثيرًا وممتعًا.

(٨) تُعاني صوفي من بعض الإحباط بسبب نبذِها لكونها فتاةً وحيدة على متن قارب من الفِتيان والرجال. هل عانيتِ إحباطًا مماثلًا في طفولتِك؟

ما يدعو للاستغراب أنني أُعاني من تلك الإحباطات وأنا بالغةٌ أكثرَ مما عانيتُها عندما كنتُ طفلة! ولكن في هذه القصة، انصبَّ اهتمامي أكثرَ على إحباطات ابنتي بصفتها الفتاةَ الوحيدة على متن ذلك القارب الشراعي. لقد كانت إحباطاتُها مماثلةً لإحباطاتِ صوفي.

(٩) هل حدَّدتِ بِنْية الرواية قبل البدء في الكتابة، أم إن التنسيق المكوَّن من ستة أجزاء وثمانية وسبعين فصلًا قد نشأ أثناء كتابتك لها؟

نشأ أثناء الكتابة. لقد بدأتُ بقصة صوفي، وسرعانَ ما أدركتُ أنه سيكون من الممتع والمفيد أن يكون لديك راوٍ ثانٍ بمنظورٍ مختلف. وبدا التناوب بين وِجهتَي نظرَيهما طبيعيًّا. لقد بدَت الفصول العديدة الصغيرة مناسبةً للشكل الذي تبدو عليه تدويناتُ المفكرة اليومية، وبدا منطقيًّا عرضُ الرحلة نفسِها في ستة أجزاء (تجهيزات الرحلة، الرحلة التجريبيَّة، الجزيرة، وما إلى ذلك). وقد لفت أحدُ أعضاء لجنة جائزة نيوبري نظري إلى الاستخدام السائد للعدد ثلاثة ومضاعفاته في هذه القصة (ستة على سبيل المثال)، بدءًا من «البحر، البحر، البحر»، صوفي ذات الوجوه الثلاثة، التنسيق السداسي الأجزاء، إلخ. لم يكن هذا عن قصد، لقد كان إيقاعًا وُضع عندما سمعتُ لأول مرة صوتَ صوفي في رأسي تقول: «البحر، البحر، البحر.»

(١٠) هل كنتِ قارئةً في طفولتك؟ ماذا كانت كتبك المُفضَّلة؟ وماذا عن الآن؟

مع الأسف لا أعتقد أنني كنت أقرأ كثيرًا في طفولتي. فقد كنتُ أكثرَ اهتمامًا بالخروج واللعب والانطلاق. أحاول الآن اللَّحاق بما فاتني. أقرأ كل يوم القصصَ الخيالية بصفةٍ أساسية (للكبار وللأطفال). من بين المؤلفين المفضَّلين لديَّ في مجال قصص الأطفال: كارين هيس وجيري سبينيلي وكاثرين باترسون ولويس لوري وكيت ديكاميلو وسونيا سونز وكارين كوشمان وريتشارد بيك وفيليب بولمان وديفيد ألموند و... حسنًا، يمكن أن تطولَ القائمة إلى ما لا نهاية.

هنـــداوي